مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

العلامة المجمعي

عز الدين التنوخي

١٣٠٧-١٣٨٦هـ
١٨٨٩-١٩٦٦م

تأليف
إبراهيم الزيبق

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

العلامة المجمعي

عِزُّ الدِّين التنوخيّ

مجمع اللغة العربية بدمشق

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

العلامة المجمعي

عِزُّ الدِّينِ التَّنوخيّ

١٣٠٧-١٣٨٦هـ

١٨٨٩-١٩٦٦م

تأليف

إبراهيم الزيبق

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

عِزُّ الدِّينِ التَّنوخيّ

رَحِمَهُ اللهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى عشاق العربية والمنافحين عنها...

في زمنٍ...

قَلَّ فيه عُشَّاقها وأنصارها...

إبراهيم

إنْ يَهِـــمْ قـــيسٌ بلـــيلى زمنـــا والنُّـــواسيُّ ببنـــتِ العِنَـــبِ
فلقـــد هِمْـــتُ وذُبْـــتُ شـــجَنا ببنـــي عمِّـــي وقـــومي العَـــرَبِ

عز الدين التنوخي

تقديم

أستاذي عز الدين التنوخي

بقلم: د. مازن المبارك

عضو المجمع

رحم الله أستاذي التنوخي؛ فقد جمعتني به مناسبات كثيرة؛ كان أولها حين سمعت وأنا طفل في نحو السادسة من عمري صوتًا رقيقًا جدًّا، حادًّا جدًّا، مرتفعًا جدًّا، من غرفة الضيوف في بيتنا القريب من مبنى المجمع في باب البريد، فأسرعت أدفع باب الغرفة بكلتا يديّ لأقف أمام صاحب الصوت... وليقطع حديثه ويلتفت إليّ مبتسمًا قائلًا: أهلًا! فقال والدي: هذا ابني مازن، فلم تمضِ لحظات حتى أنشد الرجل بيتين من الشعر نظمهما في مازن، وما علمت إلّا بعد مدّة طويلة أنه ارتجلهما! لقد قلت لوالدي ذات يوم: هل كان الأستاذ التنوخي ينشد شعرًا حفظه؟ فقال لي: التنوخي على كثرة محفوظه، أسهل عليه أن يرتجل من أن يحفظ!

وكانت المناسبة الثانية حين جاءنا الأستاذ التنوخي مدرّسًا للبلاغة في كلية الآداب بالجامعة السورية (جامعة دمشق)... وكان عدد الطلاب قليلًا وكان لنا أبًا ناصحًا كما كان لنا أستاذًا معلّمًا. وكانت المناسبة الثالثة تلك الرحلة التي سافرت فيها معه إلى تركيا؛ فقد رأس رحلة ضمت الأستاذ سعيد الأفغاني والدكتور عبد الكريم اليافي، وشارك فيها واحد وعشرون طالبًا من الجامعة، كنت واحدًا منهم، فأقمت معه عشرين يومًا نتنقّل في المدن التركية، ونحضر مناسبات استقبالنا، ونسمع كلمات رئيس بعثتنا يلقيها باللغة العثمانية أو التركية القديمة التي كنا نفهم معظم مفرداتها المأخوذة من العربية. ولقد حظينا منه بصحبة قلّ نظيرها، لِما كان رحمه الله يتمتع به من لطف وأدب وتواضع، ولِما انطوى عليه من همّة وعزيمة ونشاط دونها كلّها همتنا وعزيمتنا ونشاطنا نحن الشباب! كذلك كانت حياته كلّها، رحمه الله، حياةً ممتلئة بالعمل، لا يكلّ ولا يملّ.

ولد الأستاذ التنوخي في دمشق سنة ١٣٠٧هـ- ١٨٨٩م، ومات فيها سنة ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م أي أنه عاش سبعًا وسبعين سنة ميلادية، ولكنه كان من عباد الرحمن الذين آتاهم الله بركة في العمر لم يؤتها كثيرين ممن بلغوا المئة من السنين أو كادوا!! ذلك أن البركة شيء، وطول العمر شيء آخر.

ومن عرف التنوخي ومراحل حياته معرفتي به قال إن حياة التنوخي في تلك الحقبة من العصر صورة لا تصوِّر حياة إنسان من مواطني الدولة العربيّة، ولكنها تصوّر حياة أمّة، وتحرّر شعب، وحركة مجتمع، من جميع جوانبها اللغوية والثقافية والوطنيّة والقومية، كما تصوّر معاناتَها وكفاحها في سبيل التحرّر والاستقلال، وفي سبيل النهضة والتقدّم وبعثِ الروح وإحياء التراث.

لقد رأيت في حياة التنوخي مرآة تنعكس عليها أكثر أحداث مجتمعها في العصر الذي عاش فيه:

ففي مرحلة طلبه للعلم يتنقّل بين المدارس القرآنية والمسيحية والأزهرية والتركية والفرنسية متنقّلًا بين أماكن وجودها في دمشق وفلسطين ومصر والأستانة وباريز!!

وفي العمل بين الوعظ والإرشاد، والتدريس والتعليم، والكتابة والتأليف، والتحقيق والترجمة، والوظائف الإدارية.

وفي الكفاح بين الانخراط في العمل الوطني، والانتساب إلى الجمعيات، وأداء الخدمة الإجبارية في الجيش، والفرار والتشرّد، ثم الالتحاق بالثوّار، وما يستدعيه ذلك من فرار من دمشق إلى الحجاز وإلى العراق وإلى مصر....

وفي خدمة العربية بين منشئ في وزارة المعارف، وأمين سر في المجمع العلمي العربي، ومؤلفٍ للكتب المدرسية، ومحققٍ لكتب التراث، وواضعٍ للمصطلحات.

وفي المشاركة في الحياة العامة؛ في الصحافة، وفي الأندية والجمعيات الأدبية، ومن نظمٍ للشعر يلقيه في المناسبات فتسمع صوته نادبًا حال دمشق تحت نيران الفرنسيين، وتسمع صوته يرثي الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، ثم تسمعه ثانية يرثي عدنان المالكي... وتسمعه في مهرجانات المجمع الثقافية... وتراه في صحبة كبار العلماء من الضيوف الذين يزورون دمشق ومجمعها.

بدأ الأستاذ التنوخي عمله العلمي حين كان يدرس في الأزهر، فوضع شرحًا على قصيدة ابن سينا، وهو دون العشرين من عمره، وبقي يكتب ويحقق ويؤلف إلى آخر حياته.

لقد كان الأستاذ التنوخي واحدًا من أنشط أعضاء المجمع، ولست أبالغ إذا قلت إنه كان يتصف بجملةٍ من الصفات والخصال لم تجتمع في واحد منهم! لقد كان لكل

منهم صفاته النبيلة الفاضلة في عقله ونفسه وجسمه، وأما هو فقد جمع صفاتهم جميعًا؛ فكان العالم الأديب، والمجمعيّ المخلص، والعربي الحرّ، والمناضل النشيط، والإنسان الطيّب النقيّ السريرة الذي اتّسع قلبه لحبِّ الناس كلّ الناس، واتسعت نفسه لكل الصداقات الإنسانية، وتميَّز بالأنس والظَّرف، والذكاء وحضور البديهة، وبالقدرة على ارتجال الشعر في كلّ الموضوعات وكلّ المناسبات، ولقد عاش عفيف اليد واللسان، زاهدًا في الدنيا، ما أظنه خرج منها بأكثر مما دخل به إليها، ما أحبّ من دنياه ولا عرف إلّا مجالس العلماء، ومذاكرة الأدباء، وصحبة الأصدقاء، وكان لكلِّ مَن عرفه من الصادقين الأوفياء، وما أهمّه في حياته إلّا عزّ وطنه وأمته، وخدمة لغته. وكان عالي الهمّة، صادق العزيمة، خفيف الظلّ، متواضعًا، وكان ذا صوت رفيعٍ حادّ مرتفع، يغادر الغرفة التي هو فيها معلنًا عن وجوده، وكان كثير الحركة، يتنقَّل بسرعةٍ بين المجالس وبين البلاد، كما يتنقّل بسرعة بين الموضوعات في المجلس الواحد.

ولعل من أجلّ نعم الله على أستاذنا التنوخي أنْ آتاه الله طاقة على العمل، وقدرة على الحركة، ندر أن تجد مثلها عند الرجال، وأيّ طاقة تلك التي تجعله في حركةٍ دائمة وتنقّلٍ دائم طَوال حياته؟ وتغييرٍ دائم في غير ساحة من ساحات العمل؟ وفي غير ميدان من ميادين الصراع الفكري والعمل الثقافي والوطني، والمشاركة في الحياة الاجتماعية والمدنيّة والإداريّة، وفي الحياة العسكرية النظاميّة والثوريّة؟

أيّ طاقة بشرية كان يتمتع بها التنوخي؟ وأيّ قدرة كانت له على الحركة والتنقّل الجسدي والنشاط الفكري في كتابة المقالات، وترجمة الكتب، وتأليف الكتب المدرسية، ووضع المصطلحات وتعريبها، وتحقيق كتبٍ تراثية، ونظمٍ للشعر، ومشاركةٍ في الجمعيات الوطنية، والأندية الثقافية، وفي إلقاء المحاضرات، والتدريس في المدارس والمساجد والجامعات في غير ما قطرٍ من الأقطار العربية، وفي موضوعاتٍ وعلوم مختلفة،

وفي شغل وظائف علمية وإدارية، وأن يكون منشئًا ومدرّسًا ومفتشًا، ومديرًا للتربية، وزراعيًّا، ومترجمًا، وحينًا في وزارة الصحة وحينًا في البرق والبريد...؟

وإني أدعو القارئ إلى أن يطّلع معي على صفحتين أنشر فيهما السيرة الذاتيّة التي كتبتها مستخلَصةً من حياة التنوخي ليعلم أيّ خُطًا كتبت عليه فسارها، برضىً وتسليمٍ وإقبال على الحياة، وأيّ آثار وسعها جهدُه، فأصدرها لتشعّ علمًا ونفعًا.

التاريخ	العمل
- ١٨٨٩م=١٣٨٦هـ	ولد عز الدين التنوخي في دمشق
	تعلّم القرآن في دمشق
	درس الابتدائية في مدرسة (الفرير) بيافا في فلسطين
	درس خمس سنوات في الأزهر
- ١٩٠٦	نشر شرحه لقصيدة ابن سينا في القاهرة
- ١٩١٠	سافر إلى فرنسا....
- ١٩١٣	عاد إلى دمشق
	عُيِّن معلمًا زراعيًّا في بيروت
	أسّس جمعية الإفصاح للتحدث بالفصحى
- ١٩١٤	مدير المدرسة الزراعية بطول كرم في فلسطين وسمّاها «دار العلم والعمل»
	عيّن في ريف حلب لأعمال زراعية بيطرية!
	وحين قامت الحرب العالمية الأولى دُعي إلى الخدمة الإجبارية في الجيش العثماني

- ١٩١٥ فرّ من الجيش العثماني
- ١٩١٦ سافر إلى العراق، وعمل في البصرة بمجلّة الأوقات البصرية
ثم غادر العراق وذهب إلى الحجاز
كلّف بوزارة الزراعة في مكة عند الشريف حسين
- ١٩١٧ سافر إلى القاهرة، وتابع كتابة مقالاته حتى انتهت الحرب في سنة ١٩١٨
- ١٩١٨ سافر إلى العقبة والتحق بجيش الفيصل
دخل دمشق مع فيصل
- ١٩١٨/١١/١٧ مدرّس في الجامع الأموي بدمشق
صار عضواً في شعبة الترجمة والتأليف التي شكلت في ١٩١٨/١١/٢٨
نقل إلى ديوان المعارف
- ١٩١٩/٨/٣٠ انتخب عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق (الذي أسس في ١٩١٩/٦/٨)
- ١٩٢٠/١/١٠ أعيد إلى ديوان المعارف ثانية (وكانت شعبة الترجمة والتأليف قد دمجت في ديوان المعارف في ١٩١٩/٢/١٢)
- أيّار ١٩٢٠ عُيّن مديرًا لمجلّة التربية والتعليم في وزارة المعارف، بقرار من الوزير ساطع الحصري (كما ذكر في الجريدة الرسمية «العاصمة» عدد ١٣٦ ص٩)
- ١٩٢٠/١٠/١٠ أعيد إلى المجمع العلمي العربي

- ١٢/ ٣/ ١٩٢١ أصبح مسؤولًا عن مجلة الرابطة الأدبية بدمشق
- آذار ١٩٢٢ عُيّن مميِّزًا للرسائل في مديريّة الصحة بدمشق
ثم مترجمًا في البريد والبرق.
- ١٩٢٣ سافر إلى العراق للتدريس
ألّف كتاب «صناعة الإنشاء»
ترجم كتاب «مبادئ الفيزياء»، وهو صاحب مصطلح «الفيزياء»
ترجم كتاب «قلب الطفل»
- ١٩٣١ عاد إلى دمشق
شارك في الحياة الثقافية وخاصة في المجمع
- ١٩٣٦ عيِّن أمين سرّ المجمع
أصدر كتاب «تكملة ما تغلط فيه العوام»
أصدر كتاب «المنتقى من أخبار الأصمعي»
- ١٨/ ١٢/ ١٩٣٧ عُيّن مدرِّسًا في حمص
أصدر كتاب «بحر العوّام...
- ١٩٤٢ مدرّس في دار المعلّمين بدمشق
- ١٩٤٣ مدير معارف في السويداء
مفتش اللغة العربية في وزارة المعارف بدمشق
- ١٩٤٦ أصدر كتاب «إحياء العروض»
- ١٩٤٧ مدرّس في كلية الآداب بالجامعة السورية (جامعة دمشق)
- ١٩٤٨ أصدر الجزء الأول من «تهذيب الإيضاح» (البديع)

- ١٩٤٩ مدرّس في ثانويات دمشق

أصدر الجزء الثاني من «تهذيب الإيضاح» (المعاني)

- ١٩٥٠ أصدر الجزء الثالث من «تهذيب الإيضاح» (البيان)
- ١٩٥٣ أحيل على التقاعد

استمر نشاطه في المجمع

- ١٩٥٩ عضو في لجنة ترجمة المعجم الكندي العسكري
- ١٩٦٠ عضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة

أصدر كتاب «المثنَّى»

- ١٩٦١ عضو في المجمع العلمي العراقي

أصدر كتاب «الإبدال»

أصدر كتاب «الإتباع»

أصدر كتاب «مقدمة في النحو»

- ١٩٦٢ أصدر كتاب «الإبدال والمعاقبة والنظائر»
- ١٩٦٣ أصدر كتاب «وصف المطر والسحاب»

أصدر كتاب «شرح الجامع الصغير»

- ١٩٦٥ أصدر كتب سلطنة عُمان
- ١٩٦٦ وفي يوم الجمعة ٢٤ حزيران من عام ١٩٦٦ فارق دنياه مودَّعًا بالحب والإجلال، رحمه الله وأجزل له الأجر والثواب.

* * * * *

لم يكن التنوخي بلغ الثلاثين من عمره حين عيّن في لجنة الترجمة والتأليف التي شكلت بدمشق في ٢٨/ ١١/ ١٩١٨، وهي التي أصبحت تعرف باسم «ديوان المعارف» اعتبارًا من ١٢/ ٢/ ١٩١٩، ثم حوّلت إلى «المجمع العلمي العربي» في ٨/ ٦/ ١٩١٩. وبذلك يبدأ عمل التنوخي في المجمع أمينًا للسرّ- أو كاتبًا لمحاضر الجلسات، واستمرّ كذلك حتى انتخب عضوًا في المجمع بتاريخ ٣٠/ ٨/ ١٩١٩ فكان مرافقًا لتأسيس المجمع وكان أصغر أعضائه سنًّا، ولكن حياته فيه لم تكن مستقرّة كما رأيناه، فكان يغادره ويعود إليه إلى أن استقرّ في دمشق فتفرّغ للمجمع وللعمل العلمي في الكتابة تأليفًا وتحقيقًا، وخاصة بعد أن أحيل على التقاعد...وبقي عاملًا منتجًا حتى سنة وفاته في سنة ١٩٦٦.

إن المرء ليعجب حين يرى ما رأينا في الصفحتين السابقتين من مراحل حياة أستاذنا التنوخي، وما امتلأت به من عملٍ وسفر ونشاط وإنتاج كيف استطاع أن يملأ زمان حياته عملًا، أكثر مما ملأت الحياة عمرَه زمانًا؟! لقد كانت حياة أكثر الناس أطول زمانًا من أعمالهم... أما التنوخي فقد كانت حياته أكثر إنتاجًا مما يتّسع له زمانها- ويلفتنا في تلك الحياة المباركة، ولا أقول الطويلة، أن صاحبها كان صاحب رسالة لم تغب عنه أبدًا في أي مرحلة من مراحل حياته، ولقد كان يعبّر عن ذلك صراحة في كل مناسبة يتحدث فيها، أو يرثي فيها، أو يشارك فيها بكلمة، سواء أكانت مناسبة ثقافية أو وطنية أو قومية، أو حفل استقبال أو حفل رثاء... وكثيرًا ما كان يعبِّر عن آرائه وعواطفه نثرًا وشعرًا، وقد يسبق الشعر فيفيض على لسانه مرتجلًا؛ إذ كان – رحمه الله – رقيق النفس، مرهف الحسّ، يتأثر بكل حدث فرديّ أو اجتماعيّ أو وطنيّ أو قوميّ، ويتجلّى تأثره هذا في شعر تجيش به نفسه، فيرتجله حينًا،

ويعدّه بعناية حينًا آخر، ويأتي شعره في الحالتين صادقًا جميلًا، وإن اختلف بعضه عن بعض من الناحية الفنية.

ولعل من المفيد في هذا المجال أن أنقل رأي عالمٍ بالشعر ولغويّ عرف الشعر معرفة دراسة ودراية، ونقد وممارسة، وهو الأستاذ محمد البزم، معاصر الأستاذ التنوخي، وزميله في المجمع، فلقد كتب في بعض آثاره شهادةً أُثبتها كما جاءت بخطّه نقلًا عن كتاب «محمد البزم» لمؤلِّفه د. محمد رضوان الداية. قال الأستاذ البزم تحت عنوان: عز الدين علم الدين: «مارس قرض الشعر عشرين عامًا، يتركه حينًا ثم يرى العود فيعود. أعطي من الشاعرية والنبوغ حظًّا، ولكنه حُرم من آلات الشعر وأدواته مما لا غنى عنه لكل من يريد أن يُعرف بالشعر، فلولا سلامة في ذوقه، وصحّة في طبعه، وعبقريّة فيه، لكبا كما يكبو غيره ممّن صرفتهم الشواغل عن استجماع لوازم الشعر ومعداته.

يطول عهده بالشعر فتثور عليه نفسه، ويضطرب به صدره، فيقذف القطعة أو القصيدة يفيض منها الألم، ويقطر ماء الرقة، فلولا ما فيها مما يدلّ على نقص الصنعة لفعلت في النفوس فعل الخمر بأخي الشجو الحزين.

ليس في شعره ما يؤاخذ عليه إلَّا نقص في أحكام اللفظ ومادة اللغة التي حال بينه وبينها اشتغاله باللغات الإفرنجية ومعاناة العلوم والفنون.

نبئت منذ سنتين أنه قد ترك الشعر، والظاهر أن ذلك لم يكن من مقدرته، لأن الشعر من أغراض النفس وحاجاتها، وليس في استطاعة الإنسان أن يحول بين النفس وحاجاتها، فقد أسمعنا عام أول قصيدة رثاء هي خير ما عرفته له من الشعر، ثم لم ألبث أن قرأت له مقطوعة في إحدى الصحف لم تدع لي مرية بأن صديقنا

يروض نفسه ويعد من طبعه ما يجعله قادرًا على أن يجول في معترك الشعر جولة غير جولته الأولى، فإن تابع رياضته وجرى في إعداده [و] لم تحل بينه وبين ما يريد الحوائل، بزّ وبرز، وتعذّر على مَن في طبقته اللحاق به.

وقصارى القول أنه رقيق الحسّ، كثير الشعور، سريع الألم، حادّ الخاطر...»

وحسب الأستاذ التنوخي أن يكون في نظر الأستاذ البزم متَّصفًا بنبوغ وسلامة ذوق، وصحة طبع، وعبقرية، وأنه رقيق الحسّ، حادّ الخاطر، وأن شعره يقطر منه ماء الرقة. والأستاذ البزم شاهد لم ينج من «جحيمه» إلّا من رحم الله!

ولعلّ قول البزم إن التنوخي حُرم من آلات الشعر وأدواته ينطبق على الشعر الذي نظمه التنوخي في أيام شبابه، وهو الذي قال عنه البزم إنه كان يتركه حينًا ثم يعود إليه. وأما بعد أن خفّت أعباؤه الاجتماعية والرسمية (الوظيفية)، وانصرف إلى تحقيق الكتب اللغوية، فقد رأيناه في كلية الآداب أستاذًا قديرًا يدرّسنا البلاغة، ويصدر كتاب «تهذيب الإيضاح» ويدرّسنا العروض وموسيقا الشعر وما يتّصل بذلك من أنواع الشعر وبحوره وزحافاته وعلله، ويؤلِّف كتابه النفيس «إحياء العروض» الذي يدلّ على أنه – رحمه الله – بقي متابعًا ترويض نفسه على نظم الشعر وإتقان صنعته، يؤيّد هذا ما سبق أن توقَّعه البزم حين قال إنه قرأ له مقطوعة تثبت أنه امتلك القدرة على أن يجول في معترك الشعر غير جولته الأولى، وأنه إن تابع بزّ وبرز وتعذّر على من في طبقته اللحاق به.

وأما نثر التنوخي وما كان يعلن فيه من آرائه، ففي مقالاته وفي مقدّمات كتبه ما يدلّ عليه، وحسبنا أن ننظر في بعض مقدمات كتبه التي حققها لنسمعه يحضّنا على إحياء تراثنا، فيقول في مقدمة تهذيب الإيضاح: «إن دمشق العربية، بل قلب العروبة

الخفّاق، لأحقّ البلاد في نهضتها بإحياء مَن ضمّتهم تربتها الزكيّة من علماء العرب وأدبائهم، والجلال القزويني الدمشقي مؤلف الإيضاح قد خدم دمشق بالقضاء والتعليم دهرًا طويلًا، فهو – لعمري- أحقّ الناس بأن يفيد أبناء الشام، بل أبناء الجامعة العربية، بعلمه وأدبه كما أفاد منه في القرن الثامن آباؤهم الذين كانوا هم الأحياء والبلغاء»[1].

ولنسمعه ينبّه على خطورة التسرّع في تفصيح العاميّات، فلقد وقف على تفصيح كلماتٍ أعجمية وهمَ المعرِّب فظنها عربيّة الأصل ولكن العامّة حرّفتها.. إن ذلك يجعل العاميّة جسرًا لدخول العجمة إلى الفصحى! قال – رحمه الله- إنه وقف على رسالة فيها جرائد (قوائم) من ألفاظ العامّة في دمشق: «وفيها الكثير من الألفاظ الأعجمية من تركية وإيطالية وغيرها، ولا يعمد مؤلفها إلى إرجاعها إلى الفصحى كما فعل مؤلف بحر العوّام، وتفيدنا هذه الرسالة في معرفة ما بلغته العاميّة في دمشق منذ نصف قرن تقريبًا من الانحطاط، وكثرة الاختلاط بالألفاظ الأجنبية».

ويشير في مناسبة أخرى إلى رسالة المجمع التي صرف لها الكثير من جهده ووقته، فيقول: «لا جرم أن رسالة المجمع التي من أجلها تمّ إنشاؤه هي المحافظة على سلامة اللغة العربية، وتوفير شرائط الحياة والنماء لها، وإنما يتمّ ذلك بمعالجة أمراضها من الألفاظ والتعابير الفاسدة في الكتاب والخطاب، بالتنبيه إليها وإلى ما يقابلها ويقوم مقامها من الألفاظ الصحيحة»[2].

---

(١) مقدمة كتاب تهذيب الإيضاح. والقزويني هو جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. توفي سنة ٧٢٦هـ وكان قاضي دمشق وخطيب جامعها الأموي.

(٢) مقدمة كتاب «تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامّة».

ولقد أحسن الأستاذ إبراهيم الزيبق، مؤلف هذا الكتاب، حين ترك المألوف في عرض السيرة الذاتية لمن يكتب عنه إلى تصوير عصره من خلال الحديث عن حياته، أو تصوير حياته من خلال الحديث عن أحداث عصره، واستطاع أن يعطي صورة جلية وصادقة عن الأستاذ عز الدين التنوخي ويتتبع معالمها في حياته على رحابتها.

رحم الله أستاذنا عز الدين التنوخي، ما كان أكثر مبادراته، وأملأ بالعمل ساعاته. رحمه الله في العلماء العاملين، ورحمه في العاملين المخلصين. وشكر الله لمجمع اللغة العربية إحياءه ذكرى أعضائه العلماء، وللمؤلف الأستاذ إبراهيم الزيبق جهوده الطيّبة في البحث والتأليف، والحمد لله رب العالمين.

مازن المبارك

عضو المجمع

مُقَدِّمَة

سمعتُ باسم الأستاذ العلامة عز الدين التنوخي أوَّل ما سمعت وأنا في غَيْسان الشَّباب وبداية الطَّلب، محفوفًا بلقبٍ جليل كان له وقع جميلٌ في نفسي، هو : عضو مجمع اللغة العربية.

ثم ازدادت معرفتي به حين وقفت على كتابه الرَّائع «إحياء العَرُوض»، فوجدته يأخذ بيدي برفق نحو مجاهل هذا العلم الذي اعتاص عليَّ بعض الوقت، حتى بات كتابه نديمي في مكتبتي لا أكاد أستغني عنه.

وبقي للتنوخي في قلبي، على توالي السِّنين، إجلالٌ وحبٌّ، ولاسيما أن لقبه التنوخي كان يوحي إليَّ بنسبٍ عربي صميم ينتمي إليه.

وفي زيارة للأستاذ الدكتور مازن المبارك – أمتع الله به – رغب إليَّ أن أكتب في سيرته، ضمن هذا المشروع الرَّائد للكتابة عن مؤسسي مجمع اللغة العربية بدمشق، فوجدتُني أنشرح لهذه الرغبة، وأجدِّد من خلالها صلتي بهذا العالم الجليل.

وترفَّقت بي الأيام، وأنا عاكفٌ على جمع أشتات سيرة حياته، التي امتدَّت نحو سبع وسبعين سنة، قضى نحو ستين سنة منها في خدمة لغتنا العربية، لا يشغله عنها شاغلٌ، مع أوَّل كتاب ألفه في القاهرة سنة ١٩٠٦م، ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره، وحتى آخر مقالة كتبها قبيل أن يغلبه الموت سنة ١٩٦٦م، فإذا هي حياةٌ

خصبة حقًّا، زاخرة بالجهاد لإحياء لغتنا العربية؛ سيدةِ لغات العالمين، كما وصفها التنوخي بحق ذات مرَّة[1].

ولا أخفي أنني، وأنا أطوِّف في عالمه الرَّحب مع أشعاره الممتعة، وتحقيقاته المفيدة، وأبحاثه اللغوية العميقة، قد شعرت بغُصَّة، مبعثها هذا الانفصام الذي يعيشه جيلنا مع ذلك الجيل الرَّائد، الذي نبغ مع ولادة القرن العشرين، فحمل مبكرًا على كتفيه الغضَّيْن أعباءً ثِقالًا للنهوض بأمتنا بعد سُبات، وفي مقدمتها لغتنا العربية التي كادت تموت بين جهل أبنائها وجحد أعدائها.

فكان التنوخي من الرَّعيل الأوّل من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، بل من أصغرهم سنًّا، المحافظين على سلامة العربية وصيانتها، الواقفين على أسرارها، المفتونين بمزاياها، العاملين على نشر تراثها، وإحيائها بالمصطلحات العلمية، غير مترخِّصين في تراكيبها وأساليبها، ولا يلجؤون إلى التوليد والتعريب إلا بعد استشارة كتب علمائنا الأقدمين اللغوية والعلمية.

وقد قام الأستاذ الجليل عز الدين التنوخي بهذه الأعباء كلِّها، بصبر العالم، وثبات المؤمن، وعزيمة المجاهد، متأبيًا على شهرة زائفة، وصيت ذائع، ناشرًا العربية التي افتتن بحبِّها أينما حلَّ في بادية أو حاضرة، في مدرسة أو وظيفة، يُسْعده على نشرها ذكاءٌ حادٌّ أوتيه، وثقافة شاملة حصَّلها، وذاكرة قوية، وبديهة حاضرة، وقلبٌ طيبٌ ودود، ونفسٌ صافية، وتواضع جمٌّ، ولسان عفٌّ، مع نكتة جميلة تشيع الدفء بين مُجالسيه.

ومن منا لا يعرف مصطلح «الفيزياء» الذي شاع في أرجاء عالمنا العربي وذاع، ومن منا يعرف أن التنوخي هو أوَّل من وضعه؟

* * *

(١) الإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجي:٣

وفي هذا الكتاب الذي أودَعْتُه ما وقفتُ عليه من سيرته وآثاره، على ندرة المراجع وتشتُّتِ البال، ما قد يفي ببعض حقِّه علينا، فللتنوخي جانبٌ تجدر العناية به كذلك، فهو التنوخي الشَّاعر، إذ كان للشِّعْر عنده منزلة رفيعة، يرتجله وينشده في مناسبات شتى تعرض له بصوته الجَهْوري الرَّفيع، وقد ضمَّن كتبه بعض مقطَّعاته، ولاسيما كتابيه «تهذيب الإيضاح» و«إحياء العروض»، وله قصائدُ طويلةٌ منثورة في أوراق عند أسرته، وفي بعض المجلات والجرائد، حرص فيها على جزالة اللفظ وقوة السَّبْك، تنتظر من يحنو عليها، فيجمع شتاتها في ديوان.

وبعد،

فالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور مازن المبارك الذي أتاح لي هذه الإطلالة على حياة عالم كبير من علمائنا.

والشكر الموفور لمجمع اللغة العربية بدمشق ممثلًا برئيسه الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، وأعضائه المبجَّلين، وأخصُّ بالذِّكْر منهم الأستاذ الدكتور عبد الله واثق شهيد على هذه المبادرة الطَّيِّبة لإحياء سيرة مؤسِّسيه.

وللدكتور عماد قيس التنوخي كلُّ عرفان بالجميل، لإطلاعي على ما عثر عليه من أوراق جدِّه الكريم.

والحمد لله وحده بَدْءًا وخِتامًا.

إبراهيم الزيبق

دمشق في

١٤ جمادى الأولى ١٤٣٤ هـ

٢٥ آذار/ مارس ٢٠١٣م

سنواتُ التحصيل

- ١ -

عزُّ الدِّين عَلَمُ الدِّين التَّنُوخي، هذا هو الاسم الذي اختاره لنفسه، بعد أن تحقَّق من نسبه، فاشتهر به وعُرف، وأما اسمه الذي سُمِّي به أوَّل أمره، فهو عزُّ الدِّين بن أمين شيخ السُّروجية[1].

وقد ولد بدمشق سنة ١٨٨٩م/ ١٣٠٧هـ[2].

وذُكِرَ أنَّ أسرته كانت قد اتخذت من العراق سكنًا لها منذ مئات السنين، ثم هاجر بعضُ أبنائها إلى الشَّام، وأقاموا في سواحله وعلى جباله الشُّمِّ، يشتركون مع أهليها في ردِّ عادية الصَّليبيين عن الثغور الشَّامية، ثم انتهت تلك الحروب، واستقرَّ

(١) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٢٢٥

(٢) ذكر التنوخي في ترجمته بقلمه، التي قدمها للمجمع العلمي العربي، أنه ولد سنة ١٨٩٣م/ ١٣١١هـ، وهذا التاريخ هو المسجل بالقيود الرسمية، غير أنه لا يتوافق مع ما نستقبل من أحداث حياته، ولعل الصواب ما أثبتُّه، فقد ذكره كل مَنْ ترجم له، انظر مجلة المجمع: مج ٤١/ ٥٣٩، ومج ٤٤/ ٢٢٥، ٩٥٦، والأعلام:٤/ ٢٢٩، ومعالم وأعلام:٢٠٥

أبناء هذه الأسرة في لبنان[١] قرب صوفر[٢]، وعُرفوا ببيت عَلَم الدِّين[٣] - وكانوا في نسبهم ينتهون إلى قبيلة تنوخ[٤] - وهم سادة اليمانية ورؤساؤها[٥]، فلما وقعتِ الواقعة بين اليمانية؛ بيت علم الدين، والقيسية الشِّهابيين سنة ١٧١١م/ ١١٢٣هـ[٦] وهي آخر معاركهم في لبنان، اجتمعتْ عليهم القبائلُ القيسية وبيَّتوهم، فذبحوهم في عين دارة، ولم ينجُ من اليمانية غير قليل، أما أمراؤهم من آل علم الدين فقد قتل منهم في المعركة ثلاثة، ووقع في الأسر منهم أربعة، فقطع المنتصر رؤوسهم، وبهذا قضي على آل علم الدين، آخر الأمراء اليمانيين في لبنان[٧]، ولم يبق منهم إلا طفلٌ رضيع، حُمل إلى دمشق، فنشأ فيها منسوبًا إلى غير أهله، خوفًا عليه أن يُعرف مكانه،

---

(١) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٩٥٦

(٢) ذكريات علي الطنطاوي:٢/ ٨٥

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٥٦

(٤) وفي قبيلته تنوخ سيقول عز الدين فيما بعد في كلمة له :

سَلِ الوغى عن تنوخَ فَهْي تعرفُهُم ... من كلِّ أرْوَعَ في الهيجاءِ مشهودِ
تسَلْسَلَ المُلْكُ فيهم قبل ذي يَزَنٍ ... إلى المناذرةِ الغُرِّ الأماجيدِ
أهلِ السَّدير وأصحابِ الخَوَرْنَقِ والـ ... ـخيلِ السَّوابق والمَهْرِيَّة القُودِ
أبناؤهم في ذرى لبنانَ تملكُهُم ... صَبَابةٌ بالعُلى لا الخُرَّدِ الغِيْدِ
ولم تزلْ بحِمى الفيحاءِ هابطة ... بقيةُ السَّيْفِ منهمْ والصَّناديدِ
عصابةٌ لو رأى حَسَّانُ طَلْعَتَهُمْ ... لقالَ قَوْلَ امرئ بالحقِّ معهودِ
هذي وجوههمُ هذي أنوفهمُ ... البيضُ والشُّمُّ ما شيءٌ بمفقودِ

تنظر هذه الأبيات في مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٧٤

(٥) ذكريات علي الطنطاوي:٢/ ٨٥

(٦) خطط الشام:٢/ ٢٧٤، ومجلة المجمع: مج٤٤/ ٩٥٦

(٧) سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني: ٤١ - ٤٢، وخطط الشام:٢/ ٢٧٤

فيلحق به مَنْ يُلحقه بمَنْ هلك مِنْ أهله[1].

وكَبِرَ هذا الطفل، وصار سروجيًّا[2]؛ أي يعمل السُّروج التي توضع على الخيل للرُّكوب عليها[3]، ثم صار من بعدُ شيخ هذه الصنعة، يوم كان لكل صنعة شيخ.

هذا الطفل هو الجدُّ الأعلى للأستاذ عز الدين التنوخي، ومن ثَمَّ كان لقب أسرته: شيخ السروجية[4].

وورث أمين والدُ عزِّ الدِّين هذه الصنعة عن جدِّه، كما ورثها أخوه من بعده[5].

بيد أن عز الدين قد اتخذ منحى آخر في حياته، ويبدو أن أباه قد اهتمَّ بتعليمه، فبعد أن ختم القرآن الكريم في المدرسة السّباهية الابتدائية، درس مبادئ العلوم واللغات: العربية والتركية والفارسية والفرنسية في المدرسة الرُّشْدية – الابتدائية العالية –[6]، وهي أقربُ ما تكون الآن إلى المدارس الإعدادية[7]، وحصل على شهادتها الرسمية[8].

وحين هاجر أبوه إلى فلسطين، وأقام في يافا للتِّجارة، تابع عزُّ الدين هناك

---

(١) كان لآل علم الدين معارف في دمشق، فقد أقاموا فيها بعد هزيمتهم من قبل الشهابيين سنة ١٦٩٤م/ ١١٠٥هـ، إلى أن استدعاهم محمود باشا؛ الوالي العثماني على لبنان، سنة ١٧١٠م/ ١١٢٢هـ، وتزوج فتاة منهم. ينظر كتاب سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني: ٣٧، ٤١.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي:٢/ ٨٥

(٣) قاموس الصناعات الشامية:١/ ١٨٠

(٤) ذكريات علي الطنطاوي:٢/ ٨٥ – ٨٦، ومن أوراق التنوخي لدى المجمع.

(٥) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٩٥٦

(٦) ترجمته بقلمه

(٧) مجلة المجمع:٤٤/ ٩٥٦

(٨) ترجمته بقلمه

تحصيله العلمي، فانتسب إلى مدرسة الفرير الفرنسية[1]، ونال شهادتها الثانوية[2].

ولما رأى والده رغبته في الاستزادة من العلم، بعث به إلى القاهرة ليلتحق بالجامع الأزهر[3]، بغية إتقانه العربية[4]، فهل أراد والده أن يوازن في تكوينه العقلي ما بين الثقافة الغربية، وقد تلقاها في مدرسة الفرير الفرنسية، والثقافة العربية، وهاهو الآن يتلقَّاها في الجامع الأزهر؛ موئل هذه الثقافة العريق؟

ولعل هذه الموازنة بين التعليمين هي وراء جَمْعِ الأستاذ عز الدين التنوخي بين الثقافتين، دون أن تطغى إحداهما على الأخرى، والتي ستظهر آثارها فيما بعد.

- ٢ -

لم تكن حياة التنوخي في مِصْر، وقد دامت نحو خمس سنين[5]، سهلة ميسَّرة، فقد عانى فيها ما عاناه من مُرِّ العيش وشظفه[6]، ولربما هذه المشقة في الحياة دفعتْ به إلى مواجهة التحدِّي بالتحدِّي، فنراه يتصدَّى للتأليف ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره[7]، ويخوض غمار البحث في موضوع فلسفي، خاضه من قبله الفيلسوف ابنُ سينا في قصيدته المشهورة في النَّفْس، والتي مطلعها:

هبطتْ إليكَ من المَحَلِّ الأرْفَعِ وَرْقــاءُ ذاتُ تَعَــزُّزٍ وتمَنُّــعِ

(١) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٢٢٥

(٢) ترجمته بقلمه

(٣) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٢٢٥

(٤) ترجمته بقلمه

(٥) مجلة المجمع: ٤٤/ ٢٢٦

(٦) مجلة المجمع:مج٤٤/ ٩٥٧

(٧) مجلة المجمع:مج٤٤/ ٩٦٠

فيجلس الفتى إلى أوراقه، ليكتب شرحًا لها يسمِّيه «الفتح المبين في شرح عينية ابن سينا الرئيس»[1].ولك أن تتخيَّلَ صعوبة شرحها على فتى في مثل سِنِّه، وهي من أشهر القصائد الرَّمزية في تراثنا العربي.

فقد رمز ابنُ سينا إلى النَّفْس بالوَرْقاء، وأراد بالمحلِّ الأرفع عالمَ العقول المجردة الذي تفيض منه النفوس على الأبدان، ثم أراد بالهبوط الفيضان من العالم الرُّوحاني الشَّريف إلى عالم الأجسام الخسيس الكثيف[2].

ويتجرَّأ هذا الفتى الشَّامي، وينشر شرحه في القاهرة سنة ١٩٠٦م/ ١٣٢٤هـ[3]، ولَمَّا يتجاوز السَّابعة عشرة من عمره.

- ٣ -

وبعد إقامته في مصر هذه السنوات الخمس ينهل من علم جامعها الأزهر عاد إلى دمشق، وفي طريقه إليها مرَّ بأسرته في فلسطين يزورها[4].

ثم تابع طريقه نحو دمشق، فوصل إليها قبيل إعلان الدستور سنة ١٩٠٨م/ ١٣٢٦هـ[5]، فراح يجلس في جامعها الأموي، ولَمَّا يبلغ العشرين من عمره،

---

(١) مجلة المجمع:مج٤٤/ ٩٦٠

(٢) الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام:٢٢٦

(٣) ترجمته بقلمه، ومجلة المجمع: مج٤٤/ ٩٦١

(٤) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٦

(٥) أعلن الدستور أول مرة سنة ١٨٧٦م/ ١٢٩٣هـ، وسعى السلطان عبد الحميد الثاني للتخلص منه، معلقًا العمل فيه بعد سنتين، وتعالت الأصوات من بعدُ مطالبةً بعودته وإطلاق الحريات، وكان صوت جمعية الاتحاد والترقي من أعلى هذه الأصوات وأقواها، فقادت المعارضة إلى أن تم لها ذلك في٢٤ تموز ١٩٠٨م/ ١٣٢٦هـ. ينظر كتابي «عبد القادر المبارك»: ٤١ - ٤٦

متصدِّرًا للتدريس والإقراء، وأقبل النَّاس على مجالسه، ورضوا عن طريقته في الوعظ والإرشاد، ودعوته إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأعانه على اجتذاب قلوبهم طلاقةٌ في لسانه، وحلاوة في حديثه، مع بُعْدٍ عن الجمود والغلوِّ، ودعوةٌ معتدلة لإصلاح متزن متئدٍ في شؤون الدِّين والدُّنيا، وعلمٌ غزير اكتسبه من الأزهر، ومن تلمذته على علَّامتَي دمشق يومئذٍ الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ عبد الرزاق البيطار،[1] و قد كان من جملة ما قرأ على الجمال القاسمي الرسائل الآلوسية، ومذهب داود الظاهري، وقد استخرجه القاسمي من فتوحات الشيخ محيي الدين بن عربي[2].

ونَعِمَ التنوخي كما نعمت دمشق بأجواء الحرية التي أعقبت إعلان الدستور، فكم من أناشيد وطنية نُظمت، ومقالات دُبِّجت، وحفلات أقيمت تعلن اغتباط الشَّاميين بالدستور الجديد الذي أعاد لهم بعض حقوقهم، ومنحهم بعض حريتهم.

وقويت في ذلك الوقت آراء من كان ينادي بالإصلاح في دولة عثمانية جامعة، تقوم على المساواة بين العرب والترك[3].

بيد أن هذه الفرحة لم تدم طويلًا، إذ لم ينقض على إعلان الدستور سوى أشهرٍ قلائل حتى دبَّرت جمعية الاتحاد والترقي انقلابها عليه، فخلعتِ السُّلطان عبد الحميد الثاني في ٢٧ نيسان ١٩٠٩م/ ١٣٢٧هـ، ونصَّبَتِ السُّلطان محمد رشاد الخامس الذي صار ألعوبة في يدها، واستبدَّت بالسُّلطة، وسحقت معارضيها، واتجهت نحو تطبيق سياسة مركزية شديدة تقضي بصهر جميع سكان الإمبراطورية في بوتقة الطُّورانية،

(١) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٥٧

(٢) مجلة المجمع: مج ٣٦/ ١٣٥، ١٣٨

(٣) الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام:٣٩

وأدَّى ذلك إلى انفضاض من تعاطف معها من العلماء العرب[1].

وأصبح جو الشَّام متلبِّدًا بالغيوم؛ حكومة تركية غاشمة، توجَّسُ من بنيه شرًّا، وتضمر لهم أذى وضرًّا، وتتربَّص للإيقاع بمن أبى منهم الإقامة على ضيم يُراد بهم وببلادهم، وأنِفَ من الاستكانة إلى ظلم أولئك الطُّورانيين، فقامت جمعيات سرية عربية تسعى للخلاص مما تعانيه البلاد[2].

في تلك الأيام الحالكة غادر التنوخي دمشق، حين اختارته جمعية أهلية، ألَّفها بعضُ أهل الفكر، واحدًا من ثلاثة لإيفادهم إلى فرنسة سنة ١٩١٠م/ ١٣٢٨هـ لمتابعة تحصيلهم العلمي العالي[3]، في أوَّل بعثة علمية دمشقية[4].

فأقام في فرنسة ثلاث سنوات حصل في نهايتها على شهادة المدرسة الزراعية العليا في مدينة غرينيون ***crignon***[5]، وعلى شهادة في تطعيم الأشجار[6].

ثم رجع إلى دمشق في سنة ١٩١٣م/ ١٣٣١هـ، وفي طريقه إليها عرَّج على الآستانة؛ عاصمة الدولة ليعادل فيها شهادته الفرنسية بالشهادات العثمانية، وهي سبيلُ الوظائف الحكومية إذ ذاك[7].

---

(١) عبد القادر المبارك:٤٥.

(٢) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٩٥٧

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٦

(٤) ترجمته بقلمه، وكان ثانيهم الأمير مصطفى الشهابي؛ رئيس مجمع اللغة العربية فيما بعد. تنظر مجلة المجمع: مج٤٣/ ٦٥٩

(٥) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٩٥٧

(٦) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٢٢٦

(٧) المصدر السالف

في الآستانة، وخلال مراجعته لوزارة الزراعة لتعديل شهادته[١]، راح التنوخي يتصل بالشباب العربي، المتطلع إلى نهضة عربية شاملة، موثقًا علاقته بالرُّوَّاد منهم، منتسبًا إلى إحدى منظماتهم «المنتدى الأدبي»[٢]، وقد أُسِّس فيها عام ١٩٠٩م/ ١٣٢٧هـ[٣]، فكان موئلًا للطلاب العرب، جمع شملهم، وأضرم في صدورهم جذوة العروبة، وبث فيهم فكرة الوحدة القومية الكبرى، ورئيسه يومئذٍ عبد الكريم قاسم الخليل، ومن أعضائه: سيف الدين الخطيب، وسامي العظم، ورفيق رزق سَلُّوم، وأحمد عزة الأعظمي؛ صاحب مجلة المنتدى الأدبي، وغيرهم[٤]، وقد أعجب التنوخي بأخلاق رئيسه عبد الكريم الخليل، وبأفكاره الحرة، وثورة نعرته العربية على حد تعبيره، وإن أخذ عليه اندفاعه أحيانًا، وعدم تنظيم أعماله القومية.

وأتيح للتنوخي أثناء إقامته في الآستانة أن يشارك في نشاطات «المنتدى الأدبي»، ففي حفلة أقيمت في قاعته، احتفاء بعودة مندوبي بيروت من المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس في حزيران سنة ١٩١٣م/ ١٣٣١هـ ألقى قصيدة بكى فيها على سوء أحوال الأمة العربية، وختمها بقوله مادحًا هؤلاء المندوبين:

هيهات يَخْدَعُهُمْ عن نَيْلِ مَطْلَبِهِمْ ... وَعْدٌ أرادَ بِهِ تخديرَنا العَجَمُ

والحقُّ في النَّاسِ لا يُعْطى بلا تَعَبٍ ... والحقُّ تَسْتَلُّهُ بالقوَّةِ الأُمَمُ[٥]

---

(١) ترجمته بقلمه

(٢) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٤٨٣، مج ٤٤/ ٢٢٦

(٣) الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام:٤٣

(٤) مجلة المجمع: مج ٣٥ / ٤٨٣

(٥) نبذة من ترجمته بقلمه محفوظة في أوراقه لدى أسرته، وسأحيل عليها بقولي: نبذة من ترجمته بقلمه، تمييزًا لها عن ترجمته بقلمه المحفوظة في أوراقه لدى مجمع اللغة العربية بدمشق.

واتفق آنئذٍ زيارة الأمير شكيب أرسلان للآستانة، وكان رأيه في الدولة العثمانية على خلاف رأي كثير من مثقفي العرب وقتئذ، فهو من المُدافعين عنها، ويراه دفاعًا عن العروبة والإسلام ضد الأطماع الأوربية، ولم يكن شُبَّان العرب وأعضاء المنتدى الأدبي يرضون عن هذه السِّياسة الشكيبية، إذ كانوا يعدُّونها انتصارًا للتُّرْك على العرب، ولإيضاح موقفهم هذا، زاره في فندقه التنوخي مع عبد الكريم قاسم الخليل وسيف الدين الخطيب، وقالوا له: إن العرب لا يطلبون سوى الإصلاح، وهل في طلبه عداءٌ للترك أو خلاف؟ فأجابهم شكيب بلهجة حازمة: إن هذا الطلب والدولة في جهاد، وأعداؤها بالمِرْصاد، ليس شيئًا من النَّجْدة والإنصاف[1].

وتمضي الأيام، وينتهي التنوخي من مراجعة وزارة الزِّراعة، وتعدَّل شهادته بعد الفحص، ويعيَّن في بيروت معلمًا في مركزها الزراعي[2].

فيشد الرِّحال إليها، وفي طريقه يمرُّ على دمشق؛ مدينته التي يحب، فتحتفل بعودته في بيت من بيوتاتها العريقة؛ بيتِ شاعرها خليل مردم بك، في حارة الرَّازي، غربيِّ جامعها الأموي، ويجتمع لتكريمه رجالات الفكر والسِّياسة فيها، أمثال الدكتور عبد الرحمن الشَّهبندر، والأساتذة الأعلام: شكري العسلي، وعبد الوهَّاب الإنكليزي، ورشدي الشمعة، ومحمد كرد علي، وفارس الخوري، وفايز الخوري، وأنيس سلوم، وعبده كحيل، وجورج حداد، وسامي العظم، ورضا مردم بك، وعثمان بن عبد القادر مردم بك، وبدر الدين الدَّاغستاني، والأمير عارف الشِّهابي، والسيد محسن الأمين، وغيرهم كثير.

---

(١) مجلة المجمع: مج ١٥/ ٣١٨

(٢) ترجمته بقلمه

وتُعقد في دمشق بمناسبة هذا التكريم أوَّل ندوة سياسية، يقرِّر فيها المجتمعون وجوبَ جَمْعِ شمل العرب، والمطالبة بحقوقهم أمَّةً لها كيانُها التَّاريخي والواقعي[1].

ثم يتابع التنوخي طريقه إلى بيروت، وهناك يؤسِّس «جمعية الإفصاح»، وقانونها التكلم بالفُصْحى، وهي تعبِّر عن مدى شعور الاستياء الذي غمر الشبان العرب آنئذٍ من سياسة التتريك، فدفع بهم إلى انتزاع العربية من براثن الفناء[2].

وفي بيروت يجد التنوخي نفسه مغلول اليدين عن العمل الزراعي الصحيح، الذي لأجله درس فن الزراعة، فيستعفي بعد نحو سنة من مركزها الزراعي، ويعين بطلب من قائم مقام طور كرم[3]بفلسطين حمدي الجلاد مديرًا للمدرسة الزراعية التي أنشأها، ويسميها التنوخي له «دار العلم والعمل»[4].

(١) كتاب الأعرابيات:٣ – ٥

(٢) من حاضر اللغة العربية:٣٧ – ٣٨

(٣) طور كرم: هكذا كتبها التنوخي بخطه، وهي كذلك عند قدماء مؤرخينا كياقوت الحموي في «معجم البلدان» ٢/ ٤٧، والمقريزي في «السلوك» ج١/ ق٢/ ٥٣٢. وطور تعني جبل، ولاشتهارها بالكروم سميت طور كرم، وحرفتها العامة فيما بعد إلى طولكرم، واشتهرت بهذا الاسم، ونُسي اسمها القديم. وهي تقع شمالي غرب الضفة الغربية.

(٤) نبذة من ترجمته بقلمه.

الانعتاق

- ١ -

لم يُمض التنوخي في وظيفته الجديدة إلا نحو ثلاثة أشهر حتى أعلن الأتراك النفير العام[١] في أعقاب اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م/ ١٣٣٢هـ، فَدُعي إلى الخدمة المقصورة[٢] مع من دُعي من طلاب المدارس العالية والإعدادية، وأنشئت لهم مدرسة الضباط الاحتياط في دمشق[٣]، وكُوِّنت منهم سَرِيَّة «بلوكا»، بلغت نحو مئتي طالب، هم من نخبة الشبيبة العربية، وكان فيهم من أصدقاء التنوخي جلال الدِّين البخاري، ووصفي زكريا، وفخري البارودي، ويقصُّ علينا التنوخي حديث تلك الأيام بقوله: «كان قائد هذه السَّرِيَّة جميل الألجي[٤]؛ من أذكياء الضباط، وعُرف بفنِّ الرِّماية، وتحت يده توفيق الكنج أحمد؛ وهو تركي - ولد في يافا، وصحبتُه مدة في صغري - وكنا نُعطى صباحًا درسًا نظريًّا في أصول الحرب، وبقية النهار نتدرب

(١) نبذة من ترجمته بقلمه.

(٢) هكذا كانت تسمى الخدمة العسكرية الإلزامية في تلك الأيام.

(٣) ترجمته بقلمه

(٤) اسم جميل الألجي يستدعي إلى الذاكرة اسم جميل الألشي، السياسي الدمشقي في عهد الانتداب الفرنسي، وكان قد خدم في الجيش العثماني كذلك، ولاسيما أن هذه (ج) التركية تكتب (ش) أيضًا، فهل هما شخص واحد أم شخصان؟ لا أستطيع الجزم بذلك.

عمليًّا، وقد استفدنا مادَّةً من الخدمة المقصورة، لأن صحتنا تحسنت، وأدبًا لأنَّا تمرَّسْنا على استعمال السلاح وأصول الحرب اللازمة، استعدادًا للقيام إن تمكنا بأمر قومي في المستقبل عظيم، وأُخذنا مرة للدِّيماس حيث شاهدنا وشاهدتُ لأول مرة في حياتي إطلاق المدافع الحديثة. وأما جميل الألجي فقد عاملنا معاملة طيبة، فقد كنا ونحن خارجون لضواحي دمشق للتدريب ننشد الأناشيد القومية بالعربية، مثل: «شدُّوا على الجُرْد العِتاق»، و «نحن أبناء الأُلى»، و «خضبوا الأرض بدم»، وامتعض مرة التركي توفيق الكنج أحمد؛ وهو ملازم أول ممتاز، طالبًا أن ننشد بالتركية، فلم نأبه له، ومضينا على إنشادنا العربي»[1].

* * *

وفي حفلة أقامها النادي العربي، وحضرها جمال باشا؛ قائد الفيلق الرَّابع، سَمِعَ هؤلاء الضُّبَّاط، وفيهم جلال الدين البخاري ذو الصوت الرَّخيم، ينشدون في الفترات التي تخللت خطباء الحفلة:

نحـن جنـدُ اللهِ شُـبَّانُ الـبلاد نكره الذُّلَّ ونأبى الاضـطهاد[2]

وكان التنوخي من خطباء هذه الحفلة، فألقى فيها قصيدة عربية النزعة، قومية شديدة النعرة، كان حَمَلَه على نظمها مرارًا عبد الكريم قاسم الخليل؛ رئيس «المنتدى الأدبي»، وكان هؤلاء الضباط يريدون من وراء ذلك أن يُظْهروا للاتحاديين أنهم عرب، متمسكون بعروبتهم، راجين أن تلين قلوبهم لمطالبهم، فيمنحوهم حقوقهم المهضومة، فالعرب هم دعامة الدولة العثمانية إذا عاملهم الأتراك بالعدل والإحسان.

(١) نبذة من ترجمته بقلمه.

(٢) الأعلام:٢/ ١٣٢- ١٣٣

وحُسْنُ الظنِّ هذا بالأتراك الاتحاديين نجم عنه كثيرٌ من الشر، ودلَّ على نقص في تربيتنا السياسية، على حدِّ تعبير التنوخي، إذ ما إن ترجمت الأناشيد والقصيدة لجمال باشا ليلتئذ[1]، حتى استشعر ما تضمُّه جوانح هؤلاء الضباط من روح قومية ملتهبة، فأمر على الفور في اليوم التالي بتفريقهم ولم يتموا من سنتهم في الخدمة إلا نصفَها[2]، وكان الضباط العرب من قبل لا يخدمون إلا في بلادهم وفي عاصمتهم فقط[3]، فشُتِّتوا في البلاد، وكان من نصيب التنوخي أن قُذِفَ به إلى شرقيِّ حلب؛ نواحي مسكنة على الفرات، لمداواة جِمال الترعة التي جَرِبَتْ في المراعي الحلبية، ويعجب التنوخي من تعيينه طبيبًا للجِمال الجَرْباء بعد دراسته في فرنسة ثلاث سنوات للزِّراعة، فيقول ساخرًا: وكأنهم ظنوا أن الزِّراعي الذي يُحسن تطهير الكروم بمذوب كبريتات النحاس يُحْسِن تطهير الجمال بالقَطِران، فيشفيها![4]

---

(١) نبذة من ترجمته بقلمه، ومجلة المجمع: مج٣٥/ ٤٨٧

(٢) نبذة من ترجمته بقلمه، وترجمته بقلمه

(٣) مرآة الشام:٤٠٩.

(٤) نبذة من ترجمته بقلمه، ومجلة المجمع: مج٣٥/ ٤٨٧

وكان التنوخي قبيل سفره إلى حلب قد كلف بإيصال نحو مئتي جمل إلى جنين، وكان له في دمشق صديق حميم أبى أن يفارقه، وهو عبد الوهاب نشأت، وقد سعى التنوخي أن يبقيا معًا، بيد أن عبد الوهاب أُرسل إلى نابلس بعد سفر التنوخي إلى جنين. وتلحُّ على التنوخي ذكراه وهو في طريقه إلى جنين، فيبعثه شوقه الشديد له على نظم قصيدة رقيقة فيه، مطلعها:

ألا يـا حُـداةَ العِـيْسِ في المَهْمَـهِ القَفْـرِ رُوَيْـدَكُمُ لا تحفِـروا بـالنَّوى قـبري

أجيبـوا سـؤالَ المُـشْتهامِ بـربِّكُمْ أفيكمْ فـؤادي لـيس يخفِـقُ في صَـدْري

وخوفًا من ضياع هذه القصيدة، وهي في اثنين وعشرين بيتًا، يثبتها التنوخي بخطه حين كتب نبذة من ترجمته.

وفي حلب يتعرف التنوخي إلى الضَّابط يحيى كاظم أبو الشرف؛ وهو عضو في «جمعية إخوان العهد»، إذ غالبية أعضائها من الضباط العرب، فيضمُّه إليها، وكان رئيسها في حلب ياسين الهاشمي؛ رئيس أركان الحرب لفخري باشا، قائد الفيلق الثالث عشر، ومن أعضائها البارزين: مولود مخلص، وعزيز علي المصري، ونوري السعيد، وسليم الجزائري[1].

ويُنمى إليه وهو في حلب، أن جمال باشا يريد التخلص من شباب العروبة المتعلمين، ولاسيما أعضاء «المنتدى الأدبي»، والتنوخي واحدٌ منهم، فيقرِّر الفرار من الجيش التركي في صيف عام ١٩١٥م/ ١٣٣٣هـ[2].

- ٢ -

فمن حلب يتخذ التنوخي طريقه جنوبًا نحو جبل الشيخ، ومنه إلى بادية الشَّام، فالجوف - دُومة الجَنْدل قديمًا - وكان يحكمه يومئذٍ الأمير نوَّاف الشعلان[3].

وفي طريقه يلتقي صديقه جلال الدِّين البخاري، وهو فارٌّ من الجيش أيضًا، فيرافقه، حتى يهبطا البلقاء، ويلقيا عصا التسيار في أيلول ١٩١٥م/ ١٣٣٣هـ في مضارب عرب بني صَخْر قرب قرية الزرقاء[4].

ثم ينتقل في ١٤ تشرين الأول مع رفيقه جلال إلى عرب السَّرْحان، وكانوا عزموا على التبدِّي، وهو التشريق بلغة البدو[5]، فيصل في ضحى ١٧ تشرين الأول

---

(١) مجلة المجمع: مج٣٥/ ٤٨٧، ٤٨٣.

(٢) ترجمته بقلمه

(٣) ترجمته بقلمه

(٤) الرحلة التنوخية: ١٥، ١٧، وفي المطبوع منها سنة ١٣٣٢، وهو خطأ.

(٥) الرحلة التنوخية: ١٧.

إلى منازل هزيم، وبينها وبين دمشق نحو مئتي كيلو متر[1].

ويتلفت التنوخي حوله فلا يرى إلا الصحراء بوَحْشتها ورمالها وبردها ومعاناتها، فيراها على قسوتها أهون عليه من العيش تحت رِبْقة الأتراك، فيردِّد في هدأة الليل بصوته الجهير، شحذًا لعزيمته :

فـإنَّ الـسُّرى واللَّيْـلُ يَغْـرِسُ بَـرْدَه وسَـيْرِيَ في البَيْـداءِ مُعْتَـسِفًا يَـوْمي
وذَرْعَ الفلا ما عِـشْتُ في غُرْبـةِ النَّوى وحيـدًا فـلا أكـلي يطيـبُ ولا نَـوْمي
لأفـضلُ لي واللهِ يـا عـاذِلي مِـنْ مُشاهدةِ التُّرْكِيِّ يَقْـضِي على قَـوْمي[2]

ويعزم بعد نحو ستة عشر يومًا مع صديقه جلال على استئناف التشريق، واللحاق بشيخ الحُوَيطات؛ عودة أبو تايه، والمسافة بينهما نحو ثلاثين كيلو مترًا، فيضطرَّان إلى قطع بعضها حُفاة، حتى يبلغا مخيم الحُوَيطات، ويدخلا فسطاط الشيخ عودة[3].

وهناك يلتقيان نفرًا من أهل الشام، فيكتمان أمرهما عنهم، وينتحل التنوخي اسم عبد الله نديم، تفاؤلًا باسم هذا الكاتب الكبير، ويسمي جلال الدين نفسه سالمًا، ويدَّعيان أنهما لم يلوذا بالفرار إلا حذرًا من التجنيد، ثم يرغبان إليهم أن يوصوا بهما الشيخ عودة لكيما يسهِّل وصولهما إلى الجوف. فوعدوهما خيرًا، ووفوا لهما، وعرَّفوا الشيخ عودة بهما تعريفًا حسنًا، فرحب الشيخ عودة بهما، وقال لهما بلهجته البدوية:لا بأس، لا بأس عليكما، ليفرج كربكما، وليأمن عندي سِرْبكما، فأنا أيضًا من ذوي القومية، وإخوان الحَمِيَّة، فمرحبًا بكما[4].

---

(١) الرحلة التنوخية:٢٠، ٢١.

(٢) الرحلة التنوخية:١٩

(٣) الرحلة التنوخية: ٢٣

(٤) الرحلة التنوخية:٢٤

وقبيلة الحُوَيطات قبيلة قوية انتشرت مساكنها في الشام من محطة العلاء إلى معان والعقبة وغزة[1].

ويصف لنا التنوخيُّ في أوراقه التي دوَّن فيها وقائع فراره الشيخَ عودة بأنه رجلٌ عرفته البادية بكرمه ونجدته ونخوته العربية، وكان مولعًا بالغزو، ويعدُّه البدو أحد فحول الحرب في بادية الشام. ولذا كان التنوخي يهتبل أية مناسبة ليذكر لعودة وقومه فظائع القتال، وما ينجم عن الغزو المستمر من البلاء وسفك الدماء، وأنه محرَّم عقلًا وشرعًا، وكان عودة يعتذر بأن الغزو ضرر لا مفرَّ منه، إذ لهم فيه معاش، فلا يستغنون عنه، ثم إن في الضَّرب بالنَّار أخذًا بالثار وغسلًا للعار، ولا طاقة لهم بحَسْمه، إذ نفعه أكبرُ من إثمه.

ويعجب التنوخي من أخذهم الصبيان للغزو معهم، ليعتادوا من حداثتهم شهود الميدان، والثبات في معترك الفرسان، فيخبرنا بدُعابته المعهودة عما يتمناه :

أشـــتهي أنْ لا أرى الغَـــزْ وَ ولا الغَـــزْو يَـــرَاني[2]

وكان الشيخ عودة أبو تايه، وقد عرف أن التنوخي درس بالأزهر، كثيرًا ما يدعوه إلى وعظ قومه وتذكيرهم، فكان التنوخي يفسِّر لهم عقب صلاة العصر من كل يوم آيات من القرآن الكريم، وبعض الأحاديث النبوية، متخذًا من ذلك سُلَّمًا للمقاصد القومية، فيذكرهم بمجد أسلافهم العرب، وما كان لهم من علم وعزٍّ وسلطان، وكيف كانت تفد أعرابُ البوادي على عرب الحواضر لتروي لهم أشعار الجاهليين، ولغتهم وآدابهم، وما كانوا ينالونه من أعطيات الحضر وجوائزهم،

(١) الرحلة التنوخية: ٢٥

(٢) الرحلة التنوخية: ٢٦

وكيف قُلب لهم اليوم، بتحكم الأتراك، مِجَنُّ الدَّهر، وعضَّتهم أنيابُ العِيلة والفقر، حتى ألصقتهم بالأرض أحكامُ العُسْر والقَسْر. وكان يبدو على مُحيَّاهم التأثر بكلماته والتحسُّر، وتثير في جوانحهم كوامن الغضب على القوم الظالمين[1].

وذات يوم يغيب الشيخ عودة أبو تايه في إحدى غزواته، ويضيق التنوخي ورفيقه جلال بحياة البادية الخشنة، ويستبدُّ بهما الخوف من عاقبة هذه الغزوة، فيعزمان على استئجار راحلتين للوصول بهما إلى الجوف.

- ٣ -

ويضربان في البيد غَوْرًا ونَجْدًا، ويواصلان السُّرى تحت جنح الظلام[2]، حتى يلوح لهما من بعيد جبلٌ شاهق، قاتم اللون، يقال له العبد، بينه وبين الجوف نحو فرسخ[3].

فيحثَّان المطايا، ولاسيما بعد أن شاهدا خُضْرة غابة النَّخيل، وهاهما الآن على مقربة من الماء النَّمير، والظل الظَّليل، عندئذٍ شعرا بما يشعر به رَكْبُ السفينة السَّادرة في تيه البحار إذا ظهرت لهم الجزيرة، واطمأنا بابتعادهما عن أشراك الأتراك.

وحطَّا رحالهما في الجوف، فوجداه في غور من الأرض، تُحدق به الهضابُ والآكام، فعلما سبب تسمية البدو له اليوم بالجوف.

وكان حاكمه الأمير نواف الشعلان غائبًا، فاستقبلهما نائبه الشيخ عامر، وبعد أن قدم لهما الضِّيافة على عادة العرب، سألهما عن أمرهما ومقصدهما، فأخفيا حالهما، وقالا له: إنهما من طلبة العلم الشريف، ومن أهل الشام، وقد فرَّا من جندية لا يطيقانها، لأنهما

(١) الرحلة التنوخية: ٢٩

(٢) الرحلة التنوخية: ٣٣

(٣) الرحلة التنوخية: ٣٨

من حملة الأقلام وأنصار السَّلام. فرحَّبَ بهما، ووعدهما بمقدم الأمير خيرًا[1].

وكان الأمير نواف بن الشيخ نوري الشَّعلان؛ شيخ الرُّوَلة من قبيلة عَنَزة، قد انتزع إمارة الجوف عَنْوة من ابن الرَّشيد؛ حاكم نجد سنة ١٩٠٨م/ ١٣٢٦هـ، فبسط فيها العدل، ونشر الأمن.

وكان وَلوعًا بسماع الأخبار والأشعار، فوجد في التنوخي طَلِبَته، ففي مجالسه بات التنوخي يقرأ له صفحاتٍ من التاريخ الحديث، وقصصًا من ألف ليلة وليلة، وقصائد من أشعار العرب وأخبارهم.

وذات يوم قرأ له مُعَلَّقة عمرو بن كلثوم:

ألا هُبِّي بـصَحْنِكِ فاصْـبَحِينا ولا تُبْقِـي خُمُـورَ الأنْـدَرِينا

والتي يقول فيها:

أبـا هِنْـدٍ فـلا تعجَـلْ علينـا وأنظِرْنـا نُخَـبِّرْك اليقينـا

بأنَّـا نُـورِدُ الرَّايـاتِ بِيـضًا ونُـصْدِرُهنَّ حُمْـرًا قـد رَوِينـا

وأيـامٍ لنـا غُـرٍّ طِـوَالٍ عَـصَيْنا المَلْـكَ فيها أنْ نَـدِينا[2]

فتمايل الأمير نواف طربًا لمعانيها، والتفت إلى حاشيته قائلًا بفخر واعتزاز: اسمعوا أيش تقول أجدادنا العرب!

وأحيانًا كان التنوخي يسأله عن معانٍ من غريب اللغة، والأمير نوَّاف يُجيبه عنها، لأنهم ما يزالون يستعملونها في كلامهم[3].

---

(١) الرحلة التنوخية: ٣٩

(٢) شرح القصائد السبع الطوال: ٣٧١، ٣٨٨

(٣) الرحلة التنوخية: ٤٥

ويرى التنوخي عند قاضي الجوف كتبًا في صندوق كبير، ورثها عن أسلافه، بعضُها مخطوط، وبعضها الآخر مطبوع، قد أكلت منها الأرَضَة أكثرها، وعلاها الغُبار، وأغلبها للإمام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيِّم، فكتب قائمة بأسمائها، لكنها ضاعت فيما ضاع من أوراقه[1].

وتروعه، وهو الشاعر، غابة النخيل في الجوف، وهي تتمايل في السَّحَر مع نسائم الصَّبا[2]، وكان لتمرها شهرةٌ ذائعة[3]، وينتابه الشعور بالأمان، فيصدح بقوله:

لعَمْـرِي لقـد زُرْتُ الـدِّيارَ وأهْلَهـا وطُفْـتُ بهـا حتـى دُعِيـتُ بطـوَّافِ

فلـم أرَ مِثْـلَ الجَـوْفِ يزهـو بنَخْلِـه ولم أرَ فيهـا حـاكمًا مِثْـلَ نـوَّافِ[4]

وما كان للتنوخي أن يبتعد عن السياسة، وهو يرى الأمير ابن الرَّشيد؛ حاكم نجد، على وفاق مع الأتراك، فراح يغري الأمير نوافًا باكتساح عاصمته حائل، ويحضُّه على الاتفاق مع الأمير عبد العزيز ابن سعود؛ حاكم الرياض وقتئذ، فهو من قبيلة عَنَزة مثله.

واتفق مرَّة أن طلب إليه الأمير نواف أن يستفتح له بالقرآن الكريم، فأخذ التنوخي المُصْحف، وفتحه بعد قراءة الفاتحة، فخرجت آية ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، فقرأها له، ثم قال: اصبر يا نواف، فستفتح حائلًا، والعاقبة للمتقين أمثالك.

وتقربًا من الأمير نواف ينظم التنوخي قصيدة له يذكر فيها غزواته، مطلعها:

---

(١) الرحلة التنوخية: ٤٦، ٤٧

(٢) الرحلة التنوخية: ٤٣

(٣) الرحلة التنوخية: ٤٤

(٤) الرحلة التنوخية: ٤٧

غيري يَحِنُّ لـشُرْبِ بنتِ الحـانِ ولـضَرْبِ أوتـارٍ وعَـزْفِ قِيـانِ
اصْـبِرْ فعُقْبـى المُتَّقِـين جميلـةٌ قــال الإلــه إليــكَ بــالقُرآنِ
أيَّـامَ تفـتحُ حـائلًا ويُنِيلُـكَ الـرَّ حمــنُ مُلْكًــا ثابــتَ الأرْكــانِ
فَتُذِلَّ قومَ ابـنِ الرَّشيدِ ورَهْطَـهُ وتُــدِيرَ دائــرةً عــلى ســبهانِ

وسبهان هم أخوال الأمير ابن الرَّشيد، وكان يأتمر بأمرهم[1].

- ٤ -

وذات يوم قبيل الظهر سمع التنوخي صوت جلال الدين يبشِّرُه بقدوم بعض الأصحاب، فأطلَّ من النافذة المُشرفة على ميدان قصر الإمارة، فإذا بجِمالٍ تُناخ، فهرول إلى الميدان، فرأى الأمير عارف الشِّهابي؛ الشقيق الأكبر لصديقه مصطفى الشهابي[2]، وعبد الغني العُرَيِّسي؛ صاحب جريدة المُفيد[3]، وتوفيق البساط؛ أحد ضباط الاحتياط، وعمر حَمَد؛ شاعر العروبة ببيروت، ففرح بهم الفرح كله[4]، وبعد العناق والتقبيل قادهم التنوخي إلى الغرفة التي أعدَّها له الأمير نوَّاف، وحين أطمأن بهم المجلس تطارحوا ما لقوه من متاعب في طريق هروبهم[5].

فنصح لهم التنوخي ورفيقُه جلال أن يكتموا حقيقة أمرهم عن الأمير نواف، وألَّا يذكروا له أنهم محكومون بالإعدام، وليقولوا له كما قالا: إنهم جنود بسطاء، لم يحتملوا مشاقَّ الجُنْدية، فلاذوا بالفرار، ذلك أن الأمير نوافًا يخشى جواسيس ابن

(١) الرحلة التنوخية: ٤٩ - ٥٠
(٢) مجلة المجمع: مج٤٣ / ٦٥٨
(٣) الأعلام:٤/ ٣٤
(٤) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٤٨٤
(٥) الرحلة التنوخية: ٤٧

الرَّشيد أن يُخبروا بأمرهم حكومة دمشق، فتضطرب العلاقات بينه وبين الأتراك، وهو لا يقوى وحده على محاربتهم.

وقابل الأمير نواف الضيوف بالترحاب، بيد أن عبد الغني العُرَيِّسي لم يعمل بوصية التنوخي، اجتهادًا منه أن التصريح أصلح، وأطلع الأمير في اليوم التالي على حقيقة إخوانه، وأنهم فارُّون من جمال باشا، فأوجس في نفسه خِيفَة نواف[1]. فبعث إلى التنوخي رسولًا لمقابلته، وقال له: علمتُ من صاحب العباءة المطرَّزة – يريد عبد الغني العريسي – أنه صاحب جريدة المفيد، ومحكوم عليه كسائر صحبه بالإعدام، فمصلحتي تقضي عليَّ أن يغادروا الجوف، وأنت تعلم أن ذلك ليس بخلًا مني، إذ في كل ليلة يأكل على مائدتي خلقٌ من الضيوف كثير.

فرجع إليهم التنوخي، وأطلعهم على جلية الأمر، فاستاؤوا كثيرًا، وشكوا نفاد دراهمهم، فعاود التنوخي استعطاف الأمير عليهم، قائلًا له:إنهم قصدوه، فلا يليق أن يضاموا، وقد قلَّت دراهمهم، وكلَّت رواحلهم، والطريق مَخُوف، بعيد الشُّقَّة، وهم بلا دليل، فكيف يسافرون؟ فأجابه الأمير نواف بأنه سيعطيهم من الدراهم ما يسدُّ عوزهم، ويبدل برواحلهم الضعيفة رواحل قوية، ويزودهم بالزَّاد الكافي، ويرسل معهم دليلًا، فليكونوا مطمئنين. وكتب لهم كتاب توصية إلى شهاب؛ شيخ عرب الفقير، الذي قلَّدته الحكومة العثمانية خَفارة السِّكَّة الحجازية[2].

عندئذ هدأ روعهم، وعزموا أن يرحلوا إلى الحجاز، فأشار عليهم التنوخي أن يسيروا إلى العراق، ويلبسوا الألبسة الرَّثَّة، وأن يتفرَّقوا؛ لأن اجتماعهم سيلفت أنظار

---

(١) مجلة المجمع: مج٣٥/ ٤٨٤

(٢) مجلة المجمع: مج٣٥/ ٤٨٤

البدو إليهم، ويُغريهم بهم، ويثير أطماعهم، وقد عرَّفته تجربته بالبادية أن الوحدة في البادية أنجح للقصد وأنجى. فقال له عبد الغني العُرَيِّسي: قد اتفقنا في دمشق مع الأمير فيصل على الذهاب إليه، ولذلك وجهتنا الحجاز، ومقصدنا الأمير فيصل. وكان الأمير عارف الشهابي يخالفه في بعض هذا الرأي[1].

ولم يتمُّوا نحو أسبوع في الجوف[2] حتى سافروا مع الدليل، وحين بلغوا مضارب عرب الفقير على مقربة من مدائن صالح، نزلوا على الشيخ شهاب، وأعطوه كتاب الأمير نواف الشَّعلان - والشعلان والفقير يرجعان إلى عَنَزة، فهم أقرباء - فوعدهم بتدبير أمرهم، ولطمعه بركائبهم، زيَّن لهم السفر بالسكة الحجازية، قائلًا لهم: وأرسل معكم من حاشيتي من يركبكم القطار إلى المدينة، فتنجون من وعثاء الأسفار. فوافقوه[3].

وكان ممن فرَّ إلى الجوف كذلك أحمد مُرَيْود؛ شيخ جبَّاتا الخشب؛ من قرى جبل الشيخ، مع خاله محمد، وذلك أن أحدهم وشى به إلى الحكومة التركية كذبًا وبهتانًا، بأنه يهرِّب القمح إلى الإنكليز.

ولم يمكنه الأمير نواف كذلك من البقاء في الجوف، فاقتفى طريق مَنْ سبقه إلى مدائن صالح، وسار معه جلالُ الدين البخاري.

وبكى التنوخي لفراقهم بكاء مُرًّا لم يبكه في حياته، لشعوره بخطر سفرهم إلى الحجاز.

---

(١) الرحلة التنوخية: ٤٨- ٤٩

(٢) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٤٨٥

(٣) مجلة المجمع: مج ٣٥ / ٤٨٤

أما التنوخي فقد خيره الأمير نواف بين الإقامة لديه، وبين السفر إلى العراق، فاختار السفر إلى العراق، لأن الرحلة إليه أقل تعرُّضًا للخطر من الرَّحيل إلى الحجاز، ثم إن في المدينة فيلقًا من الجيش التركي، فلا فرق بينها وبين دمشق[١].

فكتب الأمير نواف توصية به للسيد مهدي النَّجفي؛ كبير التجار في سُكاكة، وهي شمالي الجوف، كيما يرسله مع القافلة الذاهبة إلى العراق، كما أوصى به حاكمَها، وكان عنده، وهو من آل الشعلان.

ويوم السفر صباحًا ودَّع التنوخي الأمير، وأردفه حاكم سُكاكة على ذَلُوله، فبلغها قبيل العصر[٢].وهناك تعرف إلى السيد مهدي، فأكرمه، وانتقل به إلى داره، وأقام في ضيافته شهر ربيع الأول ١٣٣٤هـ/ كانون الثاني ١٩١٦م، وكأنه من أهل بيته، ومن خلاله تعرَّف إلى تجار البلدة من العرب، وعثر لدى أحدهم على نسخة من ديوان الشريف الرَّضي، فكان يقرأ لهم المُرْقصات من قصائده العصماء[٣].

ومع كلِّ صباح كان يرتشفُ القهوة العقيلية مع السيد مهدي، ويلتذُّ بها، وفي صباح من تلك الصباحات أنشده التنوخي أبياتًا نظمها في وصفها :

كـلُّ مُـرٍّ مِـنَ الـشَّرَابِ كَرِيـهٌ ... غـيرَ بنـتِ الـدِّلالِ والمِحْـماسِ[٤]

قهـوةٌ تُـوقِظُ الـسُّكارى ولا تُـسْـ ... ـكِرُ يَقْظـى كقهـوةِ الجُـلَّاسِ

---

(١) الرحلة التنوخية: ٥٠، ومجلة المجمع: مج ٣٥/ ٤٨٥

(٢) الرحلة التنوخية:٥١

(٣) الرحلة التنوخية:٥٢

(٤) الدلال في لغة البدو أباريق نحاس تغلى القهوة فيها، وتصنع في العراق والشام، والمِحْمَاس - على وزن مِفْتاح - من حمس اللحم قلاه، يحاكي المقلاة المتخذة من الحديد. الرحلة التنوخية:٥٣

تلـك بنـتُ الـدِّلال تُحيـي عقـولًا غـير بنـت الـدِّنانِ تَـرْوي بكـاسِ
فـاتْرُكوا الخَمْـرَ إنْ تكونـوا رجـالًا كي تعيشوا في النَّاس مِثْلَ النَّاسِ[1]

حتى إذا أهلَّ شهر ربيع الآخر سنة ١٣٣٤هـ/ شباط ١٩١٦م، عزم التنوخي على السفر مع ركبٍ من العرب إلى العراق، وقبيل سفره بلغه نبأ القبض على عبد الغني العُرَيِّسي وصحبه في مدائن صالح[2]، وكان طبيبها - وهو من حي الميدان بدمشق، من عرق تركي - قد تعرف إلى عبد الغني من سِنِّه الذهبية، فلما تأكد من ذلك أخبر قائد الموقع، فأحاط بهم جندُه، وأرسلهم مخفورين إلى دمشق[3]، ومنها سِيقوا إلى الدِّيوان العرفي في عاليه[4].

* * *

ويأزف وقت رحيله، ويودِّعه السيد مهدي إلى ظاهر سُكاكة، ومن هناك يمتطي التنوخي بعيره، ويسير مع الرَّكب مشرِّقًا، ولم يزل يواصل السير والسُّرى، ويغالب النَّصَب والكَرَى، حتى يصل إلى الفرات[5].

وفي طريقه يبلغه خبر من جلال الدِّين البخاري ورفيقيه أحمد مُرَيْود وخاله محمد أنهم رجعوا من مدائن صالح إلى الجوف بحالة يُرثى لها، بعد أن علموا بإلقاء القبض على عبد الغني العُرَيِّسي ورفاقه من شهاب الفقير، وأنهم ذاهبون إلى الأمير نواف، وكان قد رحل إلى أبيه النوري النازل في ظاهر ضمير[6]، وقد رجعوا إلى رأيه

(١) الرحلة التنوخية: ٥٣
(٢) الرحلة التنوخية:٥٣
(٣) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٤٨٤
(٤) ترجمته بقلمه
(٥) الرحلة التنوخية:٥٣
(٦) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٤٨٥

بالإعراق، وأن الملتقى البصرة.

ويقيم التنوخي بالبصرة الفيحاء، منتظرًا قدوم صديقه جلال كما وعده، ويجد في جريدة الأوقات التي كانت تصدر بالبصرة آنذاك[1]، متنفسًا لبثِّ ما يضطرم في قلبه من بغضٍ للأتراك، فيكتب فيها سلسلة مقالات عن مظالم الأتراك في سورية، ويوقعها باسم مستعار: نزيل الفيحاء، أو طريد حب الوطن، ومما كتبه في مقالته «الأتراك والمعارف»: إن لغة التعليم هي اللغة التركية، حتى إنهم ليعلمون أبناء لغة القرآن الكريم تجويد الكتاب العربي المجيد بالتركية، وبعد اللغة التركية يهتم الأتراك باللغة الفارسية، ثم الفرنسوية، ثم قامت الألمانية مقامها، ثم اللغة العربية، يعلمها سُويعات في أسبوع أعجميٌّ غيرُ مُبِين، ويختم مقالته بقوله:

يـا أيُّهـا العُـرْبُ الكِـرامُ تيقَّظُـوا فـالنَّوْمُ في عَـصْرِ الحيـاةِ مَعِيـبُ
والنَّاسُ قـد هبَّتْ تعيـدُ حياتَهـا بالعِلْمِ فَهْوَ علاجُنا المطلـوبُ[2]

وفي مقالةٍ ثانية له يخاطبُ الحكام الأتراك بقوله:

ولا تَحْـسَبُوا الـشَّعْبَ في هَجْعـةٍ وإنْ طـالَ جِـدًّا عليـه الأمَـدْ
فـما نـامَ إلَّا ليجمـعَ مِـنْ قـوَّ ةٍ مـا أضـاعَ بجِـدٍّ وكَـدّ
خُذوا حِذْرَكُمْ من قيامِ الشُّعُوبِ فبـالظُّلْمِ هيهـاتَ يـرضى أحَـدْ[3]

وذات يوم، وبينما كان يتصفَّح جريدة المُقَطَّم، قرأ فيها نعي الأمير عارف

(١) هي جريدة يومية أدبية سياسية مصورة، أصدرها الإنكليز عام ١٩١٥م/ ١٣٣٣هـ، بعد احتلالهم للبصرة، واستمرت حتى عام ١٩٢١م/ ١٣٣٩هـ، اطلعت على قصاصات مما نشره التنوخي فيها، ما بين ١٥ نيسان ١٩١٦م/ ١٣٣٤هـ، وحتى ٢٩ تموز ١٩١٦م/ ١٣٣٤هـ، وهي محفوظة في أوراقه لدى أسرته.

(٢) جريدة الأوقات، ١٥ نيسان ١٩١٦م/ ١٣٣٤هـ.

(٣) جريدة الأوقات، ١٢ أيار ١٩١٦م/ ١٣٣٤هـ.

الشهابي، وعبد الغني العريسي، وتوفيق البساط، وعمر الحَمَد[1]، وأنهم أعدموا في بيروت شنقًا في ٦ أيار ١٩١٦م/ ٤ رجب ١٣٣٤هـ[2].

ويبرِّح بالتنوخي الحزن والألم لإعدام رفاق الأمس، فيكتب في جريدة الأوقات ضمن مقالاته عن مظالم الأتراك مقالة بعنوان «فظائع الأتراك، المشانق في دمشق»، ثم يتبعها بمقالته «الأحكام الكيفية المسماة بالعرفية». ولما لم تذكر جريدة المقطم جميع من أعدم في ذلك اليوم، لم يدر التنوخي أن صديقه جلال الدين كان فيمن أعدموا[3].

- ٦ -

ويعلن الشريف حسين في الحجاز الثورة على الأتراك، صباح يوم الأحد ١١ حزيران ١٩١٦م/ ٩ شعبان ١٣٣٤هـ[4]، وتستسلم حامية جُدَّة التركية للثوار في ١٦ حزيران/ ١٤ شعبان، وفي ٦ تموز/ ٥ رمضان يتم الاستيلاء على ثكنتي جياد وجرول، وفي ٢٢ أيلول/ ٢٤ ذي القعدة تستسلم حامية الطائف.

ولم يصمد في القتال سوى فخري باشا؛ قائد حامية المدينة المنورة[5]، فيُكتفى بتطويقه، وتتجه قوات الثورة نحو الشمال بقيادة الأمير فيصل بن الحسين.

ويُبايع الشريف حسين ملكًا على الحجاز في ٢٩ تشرين الأول ١٩١٦م/ ٢ محرم ١٣٣٥هـ[6].

---

(١) الرحلة التنوخية: ٥٠

(٢) مرآة الشام: ٣٩٩

(٣) جريدة الأوقات، ١٤، ٢٩ تموز ١٩١٦م/ ١٣، ٢٨ رمضان ١٣٤٤هـ.

(٤) مرآة الشام: ٤١٢

(٥) قصة الأشراف: ٨٨

(٦) قصة الأشراف: ٨٩

ويغادر التنوخي العراق ملتحقًا بالثورة العربية، فيعين أولًا مرافقًا حربيًّا للأمير علي بن الحسين[1]، ثم يعينه في مكة الملك حسين وزيرًا للزِّراعة بوادٍ غير ذي زَرْع، على حدِّ تعبيره[2]، وفيها يبلغه ما جرى لصديقه ورفيق دربه جلال الدين البخاري، وأحمد مُرَيْود، وخاله محمد.

فبعد أن اجتمعوا بالأمير نواف، أشار عليهم أن يسيروا معه إلى أبيه نوري الشعلان، وعند وصولهم إلى مضاربه في قرية عدرا، وجدوا عنده الأمير طاهر الجزائري؛ حفيد الأمير عبد القادر، فارًّا من الحكومة العثمانية، وكان ينوي السفر إلى العراق[3].

ولعل هؤلاء المستجيرين ترجّوا نوري الشعلان – أو أنه هو أشار عليهم، بما له من دالَّة على جمال باشا – أن يطلب العفو منه لهم، فأبقاهم في عدرا، ونزل إلى دمشق، وقابل جمال باشا، فأقسم له جمال باشا يمينًا غَمُوسًا، وبالشرف العثماني العسكري أنه لا يمَسُّهم بسوء. وأرسل عربة، وثلة من رجال الدرك، أقلتهم من عدرا إلى دمشق.

وبرَّ جمال باشا بيمينه مدة إقامة نوري الشعلان في دمشق، وبعد سفره حكم الديوان العرفي في عاليه على الأمير طاهر الجزائري بالسجن في قلعة دمشق عشر سنين، وعلى جلال الدين البخاري بالإعدام شنقًا، بتهمة تحريضه البدو على الثورة، وخُلِّيَ سبيل أحمد مُرَيْود لعدم ثبوت الدَّعوى عليه[4].

---

(١) من قصاصة من جريدة القبلة مؤرخة في ٢١ كانون الأول سنة ١٩١٦م/ ١٣٣٥هـ، محفوظة في أوراقه لدى أسرته.

(٢) ترجمته بقلمه

(٣) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٤٨٦

(٤) الرحلة التنوخية: ٥٠ – ٥١

وهكذا أعدم جلال الدين البخاري مع من أعدم في بيروت في ٦ أيار ١٩١٦م/ ٤ رجب ١٣٣٤هـ[١].

وفجع التنوخي بما آل إليه مصير رفيقه جلال، وقد كان له نِعْمَ الصَّاحب في مطارح النوى، يواسيه ويسليه ويتوجع له، فرثاه بقلب مكلوم:

فيا عينُ جُودِي بالبُكاءِ على أخي الـ ـوفاءِ جلال الدِّينِ لا تَذْخَرِي وُسْعا
لقد كان يُرْجى في الشَّدائدِ نَفْعُه وقد قَلَّ أنْ يُجْدِي بها أحدٌ نَفْعا
وفيٌّ ذكيٌّ مُخْلِصٌ قد عَهِدْتُهُ سريعًا لدَاعي المَكْرُماتِ متى يُدْعى
سقى الله قبرًا قد رعى العَهْدَ رَبُّهُ وحيَّا الحَيَا ذاك الجلالَ الذي أنعى[٢]

ويُلِمُّ التنوخي بالقاهرة زائرًا، وهناك ينشر مقالة في جريدة الكوكب[٣] عن سورية وما تعانيه تحت حكم الأتراك الاتحاديين، يكتب فيها : ما سورية اليوم إلا وادي الشقاء، والأرض التي تفيض حزنًا وبلواء.[٤]ولعل التنوخي بقي في الحجاز حتى ربيع عام ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ، حيث يأتي إلى القاهرة، ويتابع فيها نشر مقالاته وأشعاره في جريدة الكوكب، فمما نظمه في تلك الأيام مُوَشَّحة بعنوان «قومي العرب»، افتتحها بقوله:

إنْ يَهِمْ قيسٌ بليلى زمنا والنُّواسيُّ ببنتِ العِنَبِ

(١) مرآة الشام:٣٩٩

(٢) الرحلة التنوخية: ٥١

(٣) هي جريدة سياسية أدبية أسبوعية، أصدرها أثناء وجوده بالقاهرة الشيخ محمد القلقيلي الأزهري سنة ١٩١٦م/ ١٣٣٤هـ، واستمرت حتى سنة ١٩١٩م/ ١٣٣٧هـ، وقد اطلعت على قصاصات مما نشره التنوخي فيها، وهي محفوظة في أوراقه لدى أسرته.

(٤) جريدة الكوكب، العدد ٣١، ٢٧ شباط (فبراير) سنة ١٩١٧م/ ١٣٣٥هـ.

فلقـد هِمْـتُ وذُبْـتُ شـجنا ببنـي عَمِّـي وقـومي العـربِ[1]

ولعل آخر ما نشره في جريدة الكوكب موشَّحة بعنوان «هل علمتم أن ليلى أمتي»[2]، افتتحها بقوله :

شـامَ بـرقَ الـشَّامِ نـاءٍ سَـحَرا فبكـى عهـدَ الحِمَـى والطَّـرَبِ

ذاكـرًا بـين المَغـاني وطَـرَا قـد قـضاه والقـضا في لَعِـبِ

وفيه:

كيف ينسى عهدَ ليلى الأوْثَقا واصِـلًا لـيلى ببنـتِ العِنَـبِ

راكـضًا خيـلَ المَلاهـي سَـبَقا بـين جِـسْرينَ وأعـلى النَّـيْرَبِ

فـسقى ذاك الحِمـى والأبْرَقـا من ربوع الشَّام جَـوْدُ السُّحُبِ

ثم آثر التنوخي في صيف ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ أن يلحق بجيش الأمير فيصل بن الحسين بالعقبة[3]، وكان قد استولى عليها في ٦ تموز ١٩١٧م/ ١٦ رمضان ١٣٣٥هـ[4]، وها هو الآن يستعد للزحف نحو دمشق.

- ٧ -

ويبدو أن التنوخي، وهو في الجوف، بدأ يدوِّن وقائع فراره من حلب، وما رآه في رحلته الشَّاقة من مصاعب وعقبات، مطوِّلًا النَّفَس في ذكر تفاصيل ما حدث له، إلا أن ما دوَّنه منها ضاع فيما ضاع من أوراقه[5].

(١) جريدة الكوكب، العدد ٨٩، ٩ نيسان (إبريل) سنة ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ.

(٢) جريدة الكوكب، العدد ٩٩، ١٨ حزيران (يونيه) سنة ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ.

(٣) ترجمته بقلمه

(٤) قصة الأشراف: ٨٩

(٥) الرحلة التنوخية: ٤٧

فربما آثر وهو في مكة، أن ينشر مختصرًا عنها، فأكبَّ يكتب ما تمليه عليه ذاكرتُه، وأرسل الحلقة الأولى منها إلى مجلة المقتطف في القاهرة، فنشرت في عدد أيار ١٩١٧م، ص٤٤٥- ٤٤٨، ونشر الحلقة الثانية في عدد تموز ١٩١٧م،ص٣٣-٣٨.

ثم الحلقة الثالثة في عدد آب ١٩١٧م،ص١١٩- ١٢٤، والحلقة الرابعة في عدد تشرين الأول ١٩١٧م،ص٣٣١- ٣٣٦، والحلقة الخامسة في عدد كانون الثاني١٩١٨م،ص٢٢-٢٧، والحلقة السادسة في عدد نيسان ١٩١٨م،ص٢٤٥-٢٤٦،[1]، ثم ينقطع فجأة عن إتمام نشرها، والغريب حقًّا أن التنوخي كان في القاهرة آنئذٍ، فلِمَ لم يتابع نشرها، وقد غدا قريبًا من المقتطف؟!

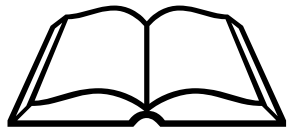

(١) جمع هذه الحلقات وحققها د.يحيى عبد الرؤوف جبر، ونشرها في عمان سنة ١٩٨٥م/ ١٤٠٥هـ، بعنوان «الرحلة التنوخية»، وعليها كانت إحالاتي.

الحكومة العربية
وإنشاء المجمع العلمي بدمشق

- ١ -

في صيف ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ كانت قوات الأمير فيصل بن الحسين تعسكر في شرقي الأردن، وتمثِّل الجناح الأيمن للقوات الإنكليزية في فلسطين بقيادة اللنبي.

فقام اللنبي في ١٩ أيلول ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ، بشنِّ هجوم كبير على القوات التركية، وخلال ثلاثة أيام استطاع أن ينزل بها ضربات ماحقة مزقتها تمزيقًا، وعندها صارت القوات العربية تتسابق مع القوات الإنكليزية في سبيل الوصول إلى دمشق[١].

وكان علي رضا باشا الرِّكابي؛ وهو ضابط سوري في الجيش التركي، قد عُيِّن قائدًا للاستحكامات التي فكر الأتراك بإقامتها حول دمشق دفاعًا عنها، بيد أنه انفصل مع بعض جنده، وانضمَّ في دير علي إلى الحملة الزَّاحفة من جبل العرب إلى دمشق، وكان فيها التنوخي، فجمع التنوخي بين الرِّكابي وبين قواد هذه الحملة؛ سلطان باشا الأطرش، وابن عمه حسين الأطرش[٢]. وانعقدت منذ ذلك الوقت

(١) قصة الأشراف: ٩٣

(٢) مجلة المجمع: مج٣٥/ ٤٨٦

أواصر الصُّحْبة بين التنوخي والرِّكابي، زادتها الأيام رسوخًا، إذ رأى التنوخي في الرِّكابي قائدًا، وإداريًّا وسياسيًّا، مثال العفة والأمانة بين الرِّجال، مخلصًا لعروبته، يضطرم قلبه بحب أمته[١].

وفي يوم الاثنين ٣٠ أيلول ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ، وصلت طلائعُ القوات العربية والقوات الإنكليزية إلى مقربة من دمشق[٢]، فاضطرَّ الأتراك للانسحاب منها في ٢٩ أيلول على عَجَل[٣]، ونسفوا قبيل انسحابهم مخازن العتاد فيها[٤]، وكانوا قد سلَّموا إدارة المدينة إلى شكري باشا الأيوبي، بيد أنه وجد الأمير محمد سعيد الجزائري؛ حفيد الأمير عبد القادر قد تولى فعليًّا إدارة المدينة، فلم يشأ أن ينازعه عليها، وكان سعيد قد رفع العلم العربي على بناية السراي، وأعلن قيام حكومة مؤقتة باسم الملك حسين، وأبرق بذلك إلى أنحاء سورية كافة[٥].

وقام، حفظًا للأمن، وخوفًا من انتشار الفوضى والنهب، بتوزيع أتباعه المغاربة في أحياء المدينة، ولاسيما في أحياء اليهود والنَّصارى، يعاونه في ذلك أخوه عبد القادر، فنشر بذلك الطمأنينة بين السكان[٦].

وفي السَّاعة السَّادسة من صباح يوم الثلاثاء الأول من تشرين الأول ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ، دخلت إلى دمشق الخيالة الاسترالية من الجهة الغربية، بينما

---

(١) مجلة المجمع: مج٤٠/ ٨٧٧

(٢) قصة الأشراف:٩٣

(٣) مرآة الشام: ٤٢٤

(٤) قصة الأشراف: ٩٣

(٥) قصة الأشراف: ٩٤

(٦) قصة الأشراف: ٩٣

دخلت إليها القوات العربية من الجهة الجنوبية، على رأسها الشريف ناصر بن علي؛ ابن عم الأمير فيصل، ومعه عودة أبو تايه؛ شيخ عشيرة الحُوَيطات، ونوري الشعلان، شيخ عشيرة الرُّوَلة، وسلطان باشا الأطرش، ونوري السعيد، ولورنس[١]، وكان التنوخي في جُمْلة الدَّاخلين[٢].

ويستقبلهم أهالي دمشق من حي المَيْدان حتى ساحة المرجة، حيث قصر الحكومة، بالتصفيق والزغاريد والأناشيد[٣].

ويقع نزاع في صباح اليوم التالي مع الأمير محمد سعيد الجزائري، يفضى إلى حلِّ الحكومة التي شَكَّلها، وتعيين حكومة جديدة برياسة رضا باشا الرِّكابي، ولم يكن حاضرًا[٤]، إذ تأخَّر قدومه إلى دمشق[٥]، فينوب عنه شكري باشا الأيوبي[٦].

وفي قصر الحكومة يقف التنوخي، ويلقي على لسان الرِّكابي كلمة حماسية، اقترح الركابي أن يكون مطلعها قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[٧].

ويصل الأمير فيصل إلى دمشق في يوم الخميس ٣ تشرين الأول[٨]، وتخرج الجماهير لاستقباله، وعلى جواد عربي مُطهَّم يطوف في شوارعها في موكب حافل، والأهالي تنثر

---

(١) قصة الأشراف ٩٣

(٢) ترجمته بقلمه.

(٣) قصة الأشراف: ٩٣- ٩٤

(٤) قصة الأشراف: ٩٥- ٩٦

(٥) الحكومة العربية في دمشق: ٥٠

(٦) قصة الأشراف: ٩٦

(٧) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٤٨٦، والآية الكريمة في سورة الإسراء برقم (٨١).

(٨) مرآة الشام: ٤٣٠

عليه الزهور والرياحين، وتُطلق الزَّغاريد، فتفيض عينا فيصل بدموع الفرح[1].

- ٢ -

ويعلن الأمير فيصل تأسيس حكومة عربية في الخامس من تشرين الأول ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ. ولما كانت دواوين الحكومة والجيش والمدارس كلها تركية اللغة[2]، أدركتِ الحكومةُ على الفور حاجتها الماسَّة إلى رهط من الأدباء والعلماء واللغويين العرب، لتعريبها، وذلك بالعمل على تصحيح لغة الموظفين، والإشراف على لغة الكتب المدرسية في المدارس العسكرية والمدنية، ووضع المصطلحات العلمية العربية، أو تحقيقها، فألفتْ في جملة ما ألفته شعبةً حكومية سمتها «شعبة الترجمة والتأليف»، وذلك في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ، أخذت على عاتقها تحقيق هذه الأغراض، مستعينة بمن كان لهم نصيبٌ من إتقان اللغة العربية، ولهم معرفة بالمصطلحات العربية لكتب التدريس التي كان يجب أن تنقل من التركية إلى العربية[3]، وكان التنوخي من أعضائها[4].

ثم رأت الحكومة في ١٢ شباط ١٩١٩م/ ١٣٣٧هـ، أن تجمع شؤون التعليم والتربية والثقافة واللغة والآثار والمكتبات العامة في ديوان واحد، سمته «ديوان المعارف»، ولذلك ضمت إليه «شعبة الترجمة والتأليف»[5]، وأسندت رياسته

(١) قصة الأشراف: ٩٩- ١٠٠

(٢) من حاضر اللغة العربية: ٥٨

(٣) مجلة المجمع: مج٤٠/ ٧

(٤) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٣٠

(٥) مجلة المجمع: مج٤٠/ ٧

للأستاذ محمد كرد علي[1]، وكان التنوخي كذلك من أعضائه الأولين[2].

وفي ٨ حزيران ١٩١٩م/ ١٣٣٧هـ، عادتِ الحكومة، ففصلت ديوان المعارف عن شعبة الترجمة والتأليف، التي استقلت باسم المجمع العلمي العربي، للعناية بأعمال اللغة والمكتبات والترجمات والآثار، وأسندت رياسته لمحمد كرد علي، وكان التنوخي، وهو في الثلاثين من عمره، أصغر أعضائه سنًّا[3]، وقد انتخب أمينًا لسره[4]. واتخذ المجمع مقرًّا له في المدرسة العادلية الكبرى بعد إصلاحها، وهي من أشهر مدارس دمشق، وتقع على مقربة من الجامع الأموي[5]، فعقد المجمع أولى جلساته فيها في ٣٠ تموز ١٩١٩م/ ١٣٣٧هـ[6].

ولم ينقطع التنوخي، وهو في المجمع، عن مساعدة ديوان المعارف[7]، فكان عضوًا في لجنة الاصطلاحات العلمية المستعملة في كتب المدارس، برياسة ساطع الحصري، وعضوية رشيد بقدونس، وعبد الرحمن شهبندر، وعبد القادر المغربي[8]. كما كان مديرًا لمجلة التربية والتعليم، وهي أول مجلة عربية في التربية[9].

وكان المجمع العلمي العربي أول معهد عُني بدمشق بآثار البلاد، وكان فاتحة

---

(١) المذكرات لمحمد كرد علي: ١/ ٢٧٧

(٢) ترجمته بقلمه.

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٧ - ٨

(٤) ترجمته بقلمه.

(٥) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٩

(٦) مجلة المجمع: مج١/ ٢ - ٣

(٧) ترجمته بقلمه.

(٨) من حاضر اللغة العربية: ٦٣،والإبدال والمعاقبة والنظائر:حاشية ص ٢٢

(٩) ترجمته بقلمه.

أعماله في هذا السبيل أن أوفد أوَّل بعثة أثرية إلى تدمر وحِمْص، وكان التنوخي من أعضائها، فحَمَل إلى دمشق كثيرًا من نفائس الآثار، منها رأسٌ حثيٌّ كبير من الصخر البركاني الأسود عثر عليه في حديقة حمص[1].

بيد أن المجمع العلمي العربي توقف نشاطه بعد نحو أربعة أشهر من إنشائه، وذلك في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩١٩م/ ١٣٣٨هـ، تخفيفًا لنفقات الحكومة، وبقي فيه عضوان فقط من أعضائه يشرفان على أعماله[2]، أحدهما التنوخي[3].

بيد أنه ينقل مجدَّدًا إلى ديوان المعارف في ١٠ كانون الثاني سنة ١٩٢٠م/ ١٣٣٨هـ[4].

(١) مجلة المجمع: مج ١٥/ ٣٨٣

(٢) مجلة المجمع: مج١/ ٥

(٣) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٤) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٨

انكسار الأحلام

- ١ -

في تلك الأيام كان الأمير فيصل يسعى جاهدًا لانتزاع اعتراف الدول الكبرى باستقلال سورية، والوقوف في وجه ادعاءات فرنسة في انتدابها، ويشعر بخيبة أمل وهو يرى حليفته بريطانية ليست مستعدة للنزاع مع فرنسة من أجل مناصرته، ويبوء مسعاه بالفشل، لأن المطامع الفرنسية وادِّعاءات بريطانية لا يمكن أن يلتقيا إلا على اقتسام البلاد العربية[١].

وتصحو دمشق في ١٤ تموز ١٩٢٠م/ ١٣٣٨هـ على إنذار غورو المشهور، ثم يتحرَّك جيشُه نحو ميسلون في ٢٤ تموز، ليتصدَّى له بقايا جيشها المقاوم، وليسقط شهيدًا وزيرُ حربيتها يوسف العظمة.

ويدخل الفرنسيون دمشق في ٢٥ تموز، والوجوه واجمة والعيون دامعة على موت حلم عاش نحو سنتين، كانتا مفعمتين بالطموح والعمل[٢].

* * *

(١) كتابي عبد القادر المبارك: ٤٩

(٢) كتابي عبد القادر المبارك: ٥٠

ويأبى التنوخي إلا أن يتشبث بأمله، الذي زرعه وسقاه في سنوات تشرده بالجوف، ثم بالعراق، ثم بالحجاز، ثم بالقاهرة، وقد كاد يرى بعض ثماره في دمشقه، وقد عاد لها لسانها العربي، فيمسك بقلمه، ليرسم لأطفالها، وهم رجال الغد، في أنشودته «إلى المدرسة» طريق الحرية، ولا طريق لها إلا بالعلم، فهو العلاج المطلوب، كما قال مرة، مما كنا نعانيه من ظلم الأتراك، والآن مما نعانيه من ظلم الفرنسيين:

بُنـــي اذهـــبْ إلى المكتـــبْ
وجِـــدَّ الـــدَّرْسَ لا تلعـــبْ
وهِـــمْ بـــالعِلْمِ والأدبِ

* * *

أجـــدْ في المكتـــبِ العَمَـــلا
وكـــنْ لرفاقـــكَ المَـــثَلا
بحُـــسْنِ الـــدَّرْسِ والطَّلَـــبِ

* * *

فـــإن قـــالوا لـــكَ فرنـــسا
فقـــل: حاشـــايَ أنْ أنـــسى
بـــلادي إننـــي عـــربي[1]

* * *

ويعود المجمع العلمي العربي إلى عمله في ظل الانتداب الفرنسي، برياسة الأستاذ محمد كرد علي، ويجري تبديلًا في أعضائه، ويزاد عليهم أعضاء شرف[2]،

(١) هي بخطه في أوراقه لدى أسرته.

(٢) المذكرات لمحمد كرد علي: ١/ ٢٨٠، وأعضاء الشرف كانوا لا يتقاضون مكافأة مالية عن عملهم في المجمع بخلاف الأعضاء العاملين فيه. وانظر مجلة المجمع: مج ١/ ٣، ٣٧٣، ٣٧٤- ٣٧٥، ٣٩٢.

ويعود التنوخي إليه في تشرين الأول سنة ١٩٢٠م/ ١٣٣٩هـ مميزًا للرسائل فيه.

غير أنه لم يلبث أن يستقيل منه بعد نحو شهر ونصف، ويعين مميزًا في مديرية الصحة بدمشق، ليستقيل منها أيضًا في نهاية شهر آذار سنة ١٩٢١م/ ١٣٣٩هـ [١]، متفرِّغًا لإدارة مجلة الرَّابطة الأدبية[٢].

- ٢ -

وكانت جمعية الرابطة الأدبية قد تألفت في دمشق، وهي أول جمعية أدبية عربية فيها[٣]، ووضعت لها قانونًا، صادقت عليه الحكومة في ١٢ آذار ١٩٢١م/ ١٣٣٩هـ[٤]، وغايتها إعلاء كلمة الأدب العربي، والتوسُّل إلى ذلك بطبع الكتب الأدبية، وتكريم المجيدين من الأدباء، وإقامة الحفلات الأدبية على اختلافها، مع إنشاء مجلة أدبية شهرية مصورة[٥].

وكانت تعقد جلساتها في بيت الشاعر خليل مردم بك، وتضم نخبة من رجالات الأدب في دمشق[٦]، منهم الأساتذة: محمد سليم الجندي، وشفيق جبري، وخليل مردم، وعز الدين التنوخي، وأحمد شاكر الكرمي، وزكي الخطيب، وعبد الله النجار، وحبيب كحالة، ومحمد الشريقي، وماري عجمي، وحليم دموس، ونسيب شهاب[٧].

---

(١) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٨

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٦٢

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٦٢

(٤) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٦١

(٥) الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام: ٤٧- ٤٨

(٦) كتاب الأعرابيات: ٦

(٧) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٦١

ومما نشرته الجمعية من كتب التراث كتاب «معاني الشعر» لأبي عثمان سعيد بن هارون الأُشْناندانى، المتوفى سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م، عن مخطوطة نفيسة من ذخائر المكتبة الظاهرية، ووكلت تحقيقه إلى فريق من أعضائها، هم الأساتذة: خليل مردم بك، وسليم الجندي، وأحمد شاكر الكرمي، وحليم دموس، وعبد الله النجار، وصدر في شباط سنة ١٩٢٢م/ ١٣٤٠هـ[1]، بيد أنهم اقتصروا فيما نشروه منه على ما أملاه الأشناندانى، وبقيت جمهرة من أبيات المعاني مما رواه أبو بكر بن دريد، وأبو حاتم السِّجِسْتاني، وغيرُهما من أئمة اللغة لم تنشر[2].

وكان التنوخي إلى جانب إدارته لمجلتها، ينشر بعض أبحاثه فيها، ولم يتسنَّ لي الوقوف إلا على عدد واحد منها، هو عدد شهر تشرين الأول ١٩٢١م/ ١٣٤٠هـ، نشر فيه بحثًا عن الشاعر مِهْيار الدَّيْلمي المتوفى سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م، ويمكننا من خلاله أن نستشف منهجه في تذوق الشعر، فما يلوبُ عليه التنوخي في شعر الشاعر، هو البوح الصادق عن مشاعره بلغة نبيلة، ولذلك طرب لنسيب مِهيار أكثر من طربه لمديحه، لأنه نظمه عن قلب أذابه الوجد والهيام، فغنى، فأثار اللواعج والأشجان، ولا بأس بمديحه تشوقًا إلى أحبابه، أو فرحًا بعودة الوفيِّ منهم، أو قُرْب إيابه، أما نَفْسُه في الرِّثاء، فهي أسمى منها في المديح وأفضل، تدل على وفاء وحِفاظ، وأنها من تلك الأنفس الطيبة التي تثمر في تربتها الأيادي البيضاء، على حدِّ تعبيره، ثم بين تأثر مِهيار بأستاذه ومربِّيه الشَّاعر الشَّريف الرَّضي، فقال: «لقد نسج مهيار من حيث بلاغة الأسلوب على منوال أستاذه، وعارضه في كثير من قصائده، كما صنع البحتري في

(١) معاني الشعر: ١١م

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٦٢

احتذاء أبي تمام، فلا يسع المنصف إلا الإقرار لِمِهْيار بجودة السَّبْك، وفتنة الأسلوب، وحُسْن البيان الذي هو من خصائص القرآن والعربية، والإيجاز حيثما يحلو الإيجاز، والإسهاب ساعة يناسب الإسهاب، ولعله اطلع على دواوين الفرس، فاقتبس كثيرًا من المعاني الظريفة اللطيفة، ثم لا يجد متصفح قصائده ذلك التفكك السائد على شعر معظم الشعراء، بل البيت وأخاه، لا البيت وابن عمه، فلا كلمة قلقة، ولا عبارة غامضة، كما يدلُّ على ذلك الشواهد المختارة»، ثم ساق أمثلة منها[١].

وكانت الجمعية والمجلة في ذلك الوقت طليعة النهضة الأدبية الحية بروحها القومية[٢]، ويبدو أن بعض مواضيع المجلة لم ترق لبعض أعضاء المجمع العلمي، إذ رأى فيها ما يمس بكرامة الدين[٣]، ولم ترق المجلة كذلك ولا الجمعية للسلطة الفرنسية، فأمرت بحلها وحجب مجلتها سنة ١٩٢٢م/ ١٣٤٠هـ[٤]، وهي لم تزل غضة طرية[٥].

ويعود التنوخي من جديد إلى عالم الوظيفة، فيعين في شهر آذار ١٩٢٢م/ ١٣٤٠هـ، مترجمًا في مديرية البرق والبريد[٦].

---

(١) مجلة الرابطة الأدبية، السنة الأولى، الجزء الثاني:١٠٥، وما بعدها.

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٦٢

(٣) مجلة المجمع: مج ١/ ٢٨٨

(٤) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٩٥٨

(٥) الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام: ٤٩، ويتحسر التنوخي بعد سنين على منع إصدار المجلة، فيقول: «ولو بقيت لأنتجت ما أنتجه أدباء الرابطة القلمية في المهجر من روائع الأدب العربي الحديث». مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٦٢

(٦) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٨

ويضيق التنوخي ذرعًا بوظيفته الجديدة، وقد أبعدته عن عالمه عالم الكلمة، بل يضيق ذرعًا ببلده، وهو يرى السلطة الفرنسية تكمُّ الأفواه، وتكسر الأقلام، وتبث في البلاد الهلع والفزع.[١]

وكان فيصل بن الحسين، بعد إخراجه من سورية، قد توِّج في بغداد سنة ١٩٢١م/ ١٣٣٩هـ ملكًا على العراق، وغدا أمل العرب الجديد، وعيَّنَ ساطع الحصري مديرًا عامًّا للمعارف.

فلم يحلّ شهر تشرين الأول سنة ١٩٢٢م/ ١٣٤١هـ حتى أقدم التنوخي على الاستقالة من وظيفته في مديرية البرق والبريد، وقد أتعبه التنقل في الوظائف[٢]، ويمَّم وجهه شطر بغداد حين دعاه ساطع الحصري إليها[٣]، وكان قد غادر قبله من رجالات العهد الفيصلي: سعيد حيدر، ومحمد رستم حيدر، والدكتور أحمد قدري، وغيرهم[٤].

وفي بغداد يتولى التنوخي التدريس في مدارسها الثانوية[٥].

* * *

(١) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٥٨

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٨ - ٢٢٩، وفيه أنه استقال سنة ١٩٢٣م، وهو خطأ، إذ كان في بغداد في تلك السنة، كما ذكر في رسالة له إلى المجمع، مؤرخة في حزيران سنة ١٩٢٣م، وهي في أوراقه لدى المجمع.

(٣) مجلة المجمع: ٤٤/ ٩٥٨.

(٤) من حاضر اللغة العربية: ٦٩

(٥) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٩

غريب في العراق

- ١ -

في وحشة غربته في بغداد، يجد مسلاته وأنسه بصحبة الشيخ كاظم الدُّجَيلي، لما عُرف عنه من علم صحيح، وحبٍّ للتجديد، ونبذ للعقائد الدَّخيلة التي مزَّقت شمل العرب، إلى كرم أخلاق، ووفاء نادر، ويختلف إلى بيت علامتها محمود شكري الآلوسي، وهو في العراق على نهج شيخ الشام جمال الدِّين القاسمي؛ شيخ التنوخي، محاربة للبدع، ونشرًا للإصلاح[1]، على ما بين التنوخي والآلوسي من رَحِمٍ علمية ماسَّة، وصلة أكيدة، إذ كان الجمال القاسمي يقرأ لتلاميذه، ومنهم التنوخي، الرَّسائل الآلوسية ليستفيدوا من أسلوب كتابتها، ولما تشتمل عليه من طرائف العلم والأدب، فتعلق قلب التنوخي بمحبته، ثم تشاء الأحوال أن يمرَّ الآلوسي بدمشق، فيتصل به التنوخي الاتصال كله، ثم ظهرت له سجاياه ومزاياه بمدينة السلام، فتغلَّب على السَّمْع البصر، وكان الخُبْر فوق الخَبر، على حد تعبيره[2]، وزادت هذه الصلة قوة

(١) كان بين الشيخين القاسمي والآلوسي رسائل متبادلة، جمعها وحققها صديقي الأثير الشيخ محمد بن ناصر العَجْمي، وصدرت عن دار البشائر الإسلامية في بيروت سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) مجلة المجمع: مج ٣٦/ ١٣٥

بانضمامها إلى المجمع العلمي العربي بالشَّام، والآلوسي عضو مراسلٌ فيه.

بيد أن التنوخي لم يمتَّع طويلًا بنعيم هذه الصحبة، فيفقد بعد مدة ليست بالطويلة صاحبيه الأثيرين: الشيخ كاظم الدُّجَيلي، والعلامة الآلوسي: الشيخ كاظم بسفره إلى لندن، وقد عُيِّن مدرسًا للعربية في دار الألسن الشرقية، والآلوسي بوفاته في ٩ أيار سنة ١٩٢٤م/ ٤ شوال ١٣٤٢هـ، عن نحو ثمان وستين سنة[١].

ويقام للآلوسي في بغداد حفل تأبين لبلوغ أربعين يومًا على وفاته، ويلحُّ على التنوخي أصدق أصحاب الآلوسي؛ العلامة محمد بهجة الأثري أن يقول كلمة في تأبينه، لما بينهما من الرَّابطة المجمعية والقاسمية. فيقف التنوخي، ويرتجل كلمة مؤثرة نيابة عن المجمع العلمي العربي وعن دمشق، يتحدَّث فيها عن الإصلاح الإسلامي، ويرسل فيها لعواطفه العنان، مظهرًا عظيم الرزية في فقد أشباه الآلوسي، ويختمها بقوله:

إنِّي أرى بغـــدادَ نوَّاحـــة ... كـــأنَّما قامـــتْ عـــلى قَـــبرِ

تقولُ من فَرْطِ الأسى والجَوَى ... مَنْ لِيَ مِنْ بعدِكَ يا شُكْري[٢]

ويعود التنوخي إلى دمشق زائرًا في صيف ١٩٢٤م/ ١٣٤٣هـ، ويقيم المجمع العلمي العربي بدمشق حفل تأبين للآلوسي، يلقي فيه التنوخي قصيدة في رثائه، يشير فيها إلى رفض الآلوسي قبول منحة عميد الحكومة الإنكليزية المنتدبة في العراق، وكان قد أرسلها إليه مع الأب أنستاس ماري الكرملي، فيقول:

تعرَّضـــتِ الـــدُّنيا لـــه مـــستميلةً ... فـــآثرَ أُخْـــراه وأعْـــرَضَ نائيـــا

وقـــال لمُعْطيـــه الـــدَّنانيرَ عُـــدْ بهـــا ... لـــصاحبها إذ عِـــزَّة الـــنَّفْسِ ماليـــا

---

(١) مجلة الزهراء: مج ٣/ ٤٧٢

(٢) من أوراق التنوخي لدى المجمع.

فهل لشيوخِ القوم يحذُونَ حَذْوَه لكيما يصُونوا أوْجُهًا ونواصيا[1]

* * *

ويعين التنوخي في سنة ١٩٢٤م/ ١٣٤٣هـ[2] أستاذًا للأدب العربي في دار المعلمين الأولى في بغداد[3].

والتنوخي وإن فصلت حوادث الدَّهر بينه وبين المجمع العلمي جسمًا بيد أن روحه ظلت مشغولة بأحواله، مهتمة بنجاحه.

وكان الأستاذ الرئيس محمد كرد علي قد رغب إليه في سنة ١٩٢٥م/ ١٣٤٣هـ أن يختار له بعد الاختبار من هو من أهل الكفاية، والاضطلاع في اللغة والبحث العلمي الصحيح، ليكون عضوًا مراسلًا في المجمع العلمي، فيختار له التنوخي الدكتور أمين المعلوف، وكان مقيمًا وقتئذٍ في بغداد، ويرأس الأمور الصحية في الجيش العراقي، وله أبحاثٌ علمية ولغوية ينشرها في مجلة المقتطف بالقاهرة، ويقوم بتأليف معجم إنكليزي - عربي، جامع للمصطلحات الفنية، والأوضاع العلمية، وقد اطلع التنوخي على نماذج منه، وكان مهتمًّا بإنشاء مجمع علمي[4] على غِرَار مجمع دمشق، غير أن الحياة لم تكتب له[5].

- ٢ -

ومن بغداد يتابع التنوخي أخبار الثورة التي اشتعلت في سورية سنة

(١) مجلة المجمع: مج ٤/ ٤٨٠

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٨- ٢٢٩

(٣) ترجمته بقلمه.

(٤) من أوراق التنوخي لدى المجمع.

(٥) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٢٣١

١٩٢٥م/ ١٣٤٤هـ ضد الاحتلال الفرنسي، ويرى فيها صفحة من أمجد صفحات التاريخ التي سطَّرها العرب، بعد الحرب العالمية الأولى[١].

فبعد الانتصارات التي حقَّقها الثوار في وقائع عديدة في الغوطة، وضعوا خُطَّة لاستعادة دمشق.

وفي يوم الأحد ١٨ تشرين الأول ١٩٢٥م/ ١٣٤٤هـ، ينفذ الثوار خطتهم، وتبدأ القوات الفرنسية بالانهيار أمام زحفهم، ويعلم الجنرال ساري؛ المفوَّض السَّامي الفرنسي بدخول الثوار المدينة، فيغادر على الفور مقرَّه في قصر العظم، ويتوجَّه إلى مركز أركان القيادة الفرنسية في بوابة الصَّالحية، وهناك يقرِّر مع مستشاريه تسليط المدفعية على دمشق، لدكِّ منازلها على رؤوس ساكنيها، تغطية للهزائم التي مُني بها الجيش الفرنسي[٢].

وفي عصر ذلك اليوم تنطلق المدافع الثقيلة من قلعة دمشق والمِزَّة، تقصف أحياء المدينة دون تمييز، فتلتهم النيران البيوت الأثرية، والأسواق التجارية[٣].

وتُثْخن دمشق بالجراح، وهي تقصف ثلاثة أيام بلياليها، وحينئذٍ يتَّفق وجهاءُ المدينة على أن ينسحب الثوار من دمشق إلى غوطتها، لتجنيب المدينة مزيدًا من الدَّمار والخراب، ولاسيما بعد احتراق حي سيدي عامود[٤]، وهو من مفاخر دمشق التاريخية[٥]. وينفذ

---

(١) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٨٧٥

(٢) صحافة وسياسة، سورية في القرن العشرين: ٥٥ – ٥٦

(٣) تاريخ الثورات السورية: ٣٤٥

(٤) وسمي بعد إعماره: الحريقة، إشارة إلى تلك الكائنة.

(٥) صحافة وسياسة، سورية في القرن العشرين: ٥٧

الثوار الانسحاب مساء الثلاثاء ٢٠ تشرين الأول، ويتوقف القصف[1].

* * *

وما كاد يدوي في بغداد صدى القذائف التي صبَّها الفرنسيون على دمشق حتى هبَّ البغداديون واجمين غاضبين، واجتمعتِ الألوف منهم في مسجد الحيدر خانة بعد صلاة الجمعة، فخطب فيهم الواعظ الشهير الشيخ نعمان الأعظمي واصفًا تلك الأعمال الفظيعة، ثم وقف التنوخي بقلبٍ يعتصره الألم، فخطب خطبة أبكت العيون والقلوب، ثم ألقى بصوته الرفيع قصيدة فاضت بها لوعته، استهلها بقوله:

قِفْ في المنازلِ نادبًا أطلالَها ... ماذا يُفيدُكَ أنْ تُطيلَ سؤالَها
قد أُحْرِقَتْ عَمْدًا دمشقُ فلم تَعُدْ ... تَصِفُ الجميلةَ للوَرَى وجمالَها
لا وَصْلُها ذاك الوِصَال وأهلُها ... في الغُوطتَيْنِ ولا الدَّلالُ دلالَها
النَّارُ تُمْطِرُها العَشِيَّةَ وابلًا ... والعِلْجُ ويلُ العِلْجِ جاسَ خلالَها
لبثتْ ثلاثًا والمَدَافع قُذَّفٌ ... الرَّعْدُ يَقْصِفُ ما حكى جَلْجَالها
ثُلُثا دمشقَ يُهَدَّمان تمدُّنًا ... ومن الدِّماءِ ترى به أسْيالَها
إنَّ الدُّخانَ إلى السَّما مُتَصاعدًا ... يشكو الحضارةَ والوحوشَ رجالَها

ثم يصفُ النِّساء كيف خرجن مذعوراتٍ من بيوتهن، والرِّجال كيف قُتِّلوا، والأطفال كيف شرِّدوا:

يا رُبَّ آمنةٍ هناك بسِرْبِها ... تَغْدو لتُصْلِحَ دارَها وعِيالَها
أمستْ وما غيرُ السَّماءِ لِحَافَها ... ظُلْمًا ولا غيرُ الطَّريقِ حِمًى لها

(١) تاريخ الثورات السورية: ٣٤٥

بـرزتْ تـصيحُ وشَـعْرُها متفـرِّقٌ سَـتَرَتْ بـه حَـذَرَ العيـونِ جَمالَهَـا
وهنـاك نائحـةٌ تنـوحُ لبَعْلِهـا الثَّـ ـاوي وتنـدُبُ بعـدَه أطفالَهَـا
اللهَ للأطفـالِ كيـف غـدتْ لَقًـى صَرْعَى القنابرِ[1] بعثرتْ أوْصَالَهَا
تُـشْجِيك أيـدي صِـبْيَةٍ بُـتِرَتْ وأرْ جُلُهـا نُثِـرْنَ يمينَهـا وشِـمالَهَا[2]

- ٣ -

وفي بغداد ينشر كتابه «دروس في صناعة الإنشاء»، سنة ١٩٢٧م/ ١٣٤٥هـ[3].

وكانت وزارة المعارف قد اقترحت عليه أن يضع كتابًا في صناعة الإنشاء، لتعليم الطلاب في المدارس الثَّانوية أصولَ إنشاء الواجبات المدرسية، فرأى التنوخي أن يستعين بما كتبه الغربيون لطلابهم في فن الكتابة[4]، فظفر بكتاب موريس غوريس، وهو من كبار الأساتذة الفرنسيين في الأدب والإنشاء، فجعله عُمْدته، واقتبس من كتاب «المثل السَّائر» لضياء الدِّين بن الأثير، وكان التنوخي معجبًا به، فهو لا يَعْرِفُ أديبًا له رأي في البيان وأساليبه إلا وللمثل السائر أثرٌ بيِّن في تقويم أسلوبه وإرشاده إلى وسائل المَلكة العربية، إذ جمع فيه ابن الأثير من أصول فن الكتابة ما يكتبه علماء الإنشاء الغربيون للشُّداة في الكتابة، ليبينوا لهم أخصر الطرق،

(١) هكذا كانت تسمى «القنابر» قبل أن يستحدث لها اسم «القنابل»، ولمحمد صالح مجدي، المتوفى سنة ١٨٨١م/ ١٢٩٨هـ ترجمة عن الفرنسية لكتاب «ميادين الحصون والقلاع ورمي القنابر باليد والمقلاع» طبع في مصر، ينظر «الأعلام» للزركلي ٦/ ١٦٥، و«هدية العارفين»: ٢/ ٣٩٢

(٢) القصيدة، وهي في تسعة وأربعين بيتًا، في مجلة الزهراء: مج ٢/ ٢٣٥ - ٢٣٧، وأورد بعضها علي الطنطاوي في ذكرياته: ج١/ ٢٣٧ - ٢٣٨

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٦٩

(٤) ترجمته بقلمه.

وأقرب الوسائل لتحصيل مَلكة الكتابة في لغاتهم[1]، واستعان التنوخي كذلك بغيره من أمهات الأدب العربي، فألف هذا الكتاب، الذي يعدُّ أول كتاب صنف في هذا الفن بلغتنا العربية في العصر الحديث، جامعًا فيه بين الطريقتين، الغربية والعربية، وقد اضطر فيه إلى وضع كلمات جديدة في لغتنا مما يتعلق بفن الإنشاء، فوضع كلمة الحرث مثلًا رِدْفًا لكلمة ثقافة الشَّائعة، وكلمة السَّليقي والسَّليقة مكان الطبعي والطبعية، أو الطبيعي والطبيعية، والانطباعات مكان الانفعالات ***impressions***، وغير ذلك، وكان للزمن سلطانه في اختيار ما هو الأليق أو الأنسب منها[2].

وصناعة الإنشاء، كما يرى التنوخي، تتبع في تهذيبها وترقِّيها سير العلوم وتكامل الصنائع، ولذا أوشكت أن تبلغ بين الغربيين تمامها، بينما نحن لم نزل على تركة أسلافنا جامدين، سادِّين أبواب الاجتهاد في الفِقْه بأنواعه: فقه اللغة، وفقه البيان والتَّبيين، وفقه الآداب الرَّفيعة، وفقه الصَّنائع المفيدة، وفقه السِّلْم، وفقه الحياة بحذافيرها، أي فقه الدِّين والدُّنيا معًا[3].

* * *

وينقل التنوخي إلى دار المعلمين العليا ببغداد[4]، مدرِّسًا للطبيعيات[5]، ويساعد في إنشاء مجلة التربية والتعليم التي يشرف عليها مدير المعارف العام ساطع الحُصَري[6].

---

(١) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٦٦٦

(٢) مجلة المجمع: مج ٨/ ٣٧٢ – ٣٧٥

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٦٩

(٤) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٩

(٥) كتب ذلك على غلاف كتاب «مبادئ الفيزياء»، ومجلة الزهراء: مج٢/ ٦٥٥

(٦) ترجمته بقلمه.

ومما نشره فيها ترجمته لفصول من كتاب «قلب الطِّفْل» من الفرنسية، لمؤلفه الإيطالي ادمون دوآمينشي[1]؛ وهو من علماء التربية في إيطالية، جعله دروسًا للأطفال يتلقَّوْن فيها حقائق تنيرُ العقل، وتكوِّن الخُلُق، وتبثُّ العلم، وتُرجم الكتاب إلى كثير من اللغات الأوربية، ولاشك أنه كتب بلغته الأصلية بأسلوب يفهمه الطفل، بيد أن التنوخي في ترجمته له مع حُسْنها أتى بشيء من عويص اللغة عند الطلبة المبتدئين، وإن كان من المألوف عند جمهور المتأدبين، إضافة أن هذا العويص لم يُفَسَّر ولم يُشْكل، فضاعت فائدة الكتاب على مَنْ يُراد استنارتهم بقبس العلم، وتلقينهم الفضائل العملية، وانحصر النفع فيمن يتلون فيفهمون، وقليلٌ ما هم[2].

وأتمَّ التنوخي فيما بعد ترجمة الكتاب كاملًا، وطبعه في دمشق في جزأين[3] سنة ١٩٢٩م/ ١٣٤٩هـ، وقدَّم له الأستاذ ساطع الحصري، وكان الأستاذ علي الطنطاوي الأديبُ البارع قد عزم، لشَغَفه بهذا الكتاب، على إعادة كتابته بأسلوبٍ أوضح وأسهل يتوافق ومدارك الطفل، ولكنه لم يفعل، وليته فعل[4].

* * *

وفي العام ١٩٢٨م/ ١٣٤٧هـ يعيد التنوخي النظر في ترجمته لكتاب «مبادئ الفيزياء» من الفرنسية، لمؤلفه فرنان مايرا؛ أستاذ الفيزياء في كلية شابتال بباريس[5].

وكان التنوخي قد ترجم جزأه الأول بإشارة من ساطع الحصري، استجابة

---

(١) ترجمته بقلمه.

(٢) مجلة المجمع: مج ١٠/ ٥٧٤، والمذكرات لمحمد كرد علي: ج٤/ ١١٠٤

(٣) ترجمته بقلمه.

(٤) ذكريات علي الطنطاوي: ٢/ ٢٥٩، ٤/ ٢٩٨

(٥) مجلة الزهراء: مج ٢/ ٦٥٥

لحاجة المدارس العراقية الثانوية لكتاب في العلوم،[1] وصدر عن مطبعة الفرات ببغداد سنة ١٩٢٦م/ ١٣٤٤هـ[2]، فقام قبل إعادة طبعه بزيادة تحسينه، وذلك بتسهيل عباراته، وتزيينه بما أضافه إليه من الرسوم الموضحة الجميلة، وحذف فيه وزاد من الموادّ العلمية بما يتوافق مع مناهج التدريس في العراق والشَّام[3].

وفي أثناء ترجمته واجهته معضلة تعريب المصطلحات العلمية، وفي الصَّدارة منها تعريب اسم هذا العلم، إذ كان يسمى «الحكمة الطبيعية»[4]، وهو اسمٌ غير دقيق لموضوع هذا العلم، فاهتدى التنوخي بحسِّه اللغوي المرهف إلى تعريب كلمة ***physique*** التي رجعت إليها الأمم بعد استقلال العلوم، إلى كلمة «فيزياء»، مقتديًا بأسلافنا عندما وضعوا «كيمياء» على وزن سيمياء، فهي أدق علميًّا من كلمة «الطبيعة» التي تشمل علوم الأرض والسماء، وأخص من الحكمة أو الفلسفة الطبيعية[5]، ونحا نحو الاشتقاق في بعضها الآخر، كتسمية المانومتر باسم «مضغاط»، والترمومتر باسم «محراق»، والكالوريمتر باسم «مسعار»، وآثر أن تكون الكلمات الإفرنجية المنتهية بلفظ متر على وزن «مِفعال» لتصبغ بصبغة علمية، ويعترف التنوخي بأن بلبلة الاصطلاح لا يزيلها إلا مؤتمر لغوي عام، يتألف من أعضاء جمعوا مزيتين، وهما: التضلع بعلوم العربية تضلعًا نظاميًّا، والوقوف على حاجة العصر وقوفًا ناشئًا عن تجربة وممارسة، وإلى أن يتم ذلك، وعد بأن يبعث بما اختاره أو وضعه من

---

(١) ترجمته بقلمه.

(٢) مجلة الزهراء: مج ٢/ ٦٥٥

(٣) من مقدمة «مبادئ الفيزياء»، الطبعة الثانية.

(٤) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٢٧

(٥) ترجمته بقلمه.

المصطلحات إلى المجلات والجمعيات اللغوية لتمحصها المناظرة الصحيحة[1].

وأقرَّت لجنة الاصطلاحات العلمية ببغداد ما جاء في الكتاب من مصطلحات معرَّبة، ودُرِّس في العراق والبحرين ومدارس الشام وشرقي الأردن[2]، وشاع معه مصطلح «الفيزياء» على ألسنة النَّاطقين بالعربية في مشرق العالم العربي ومغربه[3].

* * *

ويغتنم التنوخي إقامته بالكَرْخ مجاورًا للأسرة السُّويدية النَّبيلة؛ وهي من أقدم الأُسر ببغداد عِلْمًا وشَرَفًا، إذ يرتفع نسبُها إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن حِبْر الأُمَّة عبد الله بن عبَّاس، فيكتب شيئًا عن كتب علمائها المخطوطة الباقية، وقد تفرَّق كثيرٌ من نفائسها في بلاد الغرب[4].

(١) مجلة الزهراء: مج ٢/ ٦٥٦

(٢) من مقدمة «مبادئ الفيزياء»، الطبعة الثانية.

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٧٥

(٤) مجلة المجمع: مج ٨/ ٤٤٩

في رحاب
المجمع العلمي العربي
بدمشق

- ١ -

حتى إذا كان عام ١٩٣١م/ ١٣٤٩هـ[١]، وقد مرَّ على إقامة التنوخي في العراق نحو عشر سنين، غالبه الحنين إلى دمشق؛ مدينته التي يحب، واتفق ذلك مع إغلاق دار المعلمين العالية ببغداد[٢]، وتوقُّفِ صدور مجلة التربية والتعليم التي يشارك في تحريرها[٣]، فيستقيل من المعارف العراقية، ويرجع إلى دمشق، وإلى مجمعها العلمي العربي، ويشرع في مؤازرة مجلته العلمية[٤].

وفي العام نفسه، يكتب التنوخي بأسلوب سهل رشيق تقديمًا لكتاب «الصُّبْح المُنْبي عن حيثية المتنبِّي» تأليف الشيخ يوسف البديعي، المتوفى سنة ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م،

(١) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٩.

(٢) وديع فلسطين يتحدث عن أدباء عصره: ١/ ٥٣، ٢٦٥

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٢٩

(٤) ترجمته بقلمه.

وقد استوقفني تقديمه له، إذ يدل على بَصَرٍ نافذ في شعر المتنبي، وإحاطة تامة بموضوعات الكتاب، فهو لم يكتف، كشأن جمهور المقدِّمين، بتقريظ الكتاب، بل أورد أولًا مآخذه عليه، منها أن البديعي لم يستوف جميع أخبار المتنبي الأدبية وأحوال حياته، وقد يذكر بعض هذه الأخبار مقتضبة لا تشفي الغليل، ويستطرد في بعضها بما لا علاقة له بالمتنبي، وإن كانت لا تخلو من فائدة، أما حسنات الكتاب فأجلُّ من أن تُحصى، يذكر منها صدق كثير من أحكامه على المتنبي، وإلمامه بكثير من حوادث الأبيات التي يستعين بها الدارس على فهمها، ومفاضلته بين كثير من القصائد التي هي في نوع واحد من أنواع الشعر، وأصحابها في طبقة واحدة من البلاغة وبُعْد الذكر، ثم يورد هفوات المتنبي كالمكررات من معانيه وقبح المطالع واستكراه اللفظ، ويذكر حسناته في بعض مطالعه، وحسن تصرفه في الغزل وحسن التشبيه، ولهذا كله يرى التنوخي أن هذا الكتاب لا يستغني عنه طالب لمعرفة حيثية المتنبي، ولا كاتبٌ يبحث عن عبقريته[1].

وفي سنة ١٩٣٢م/ ١٣٥١هـ يقام في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق حفلة تأبين لأمير الشُّعراء أحمد شوقي، يلقي فيها التنوخي كلمة ضافية عن لغة شوقي[2].

ويشارك في سنة ١٩٣٣م/ ١٣٥٢هـ في الكتابة لمجلة الرِّسالة المِصْرية في السنة الأولى لإصدارها بترجمة قطعتين شعريتين، الأولى للشَّاعر الفرنسي سوللي برودوم بعنوان «الزهرية المصدوعة»[3]، والثانية للشَّاعر البلجيكي موريس ماترلنك بعنوان «وإذا

(١) انظر تقديمه لكتاب «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» عنيت بنشره مكتبة عرفة بدمشق، وطبع بمطبعة الاعتدال سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م

(٢) مجلة المجمع: مج ١٣/ ٨٦ – ١٠٠

(٣) مجلة الرسالة: العدد ١٤، السنة الأولى،ص ٣١

أتى يومًا»[1]، وقد حرص في ترجمته للقصيدتين أن تكون على الأوزان العربية للشعر.

- ٢ -

ومع مطلع شهر تشرين الثاني لعام ١٩٣٤م/ ١٣٥٣هـ يكلف التنوخي أمانة سرِّ المجمع العلمي العربي، فيشرف على جهازه الإداري، وعلى مجلته[2].

وتسري الحياة في المجمع من جديد في أوصاله[3]، وينكبُّ التنوخي على تحقيق ثلاثة كتب في اللغة، هي من ذخائر دار الكتب الظاهرية، بأسلوبٍ علمي، فيشرع في أولاها بتحقيق ما وصل إلينا من كتاب «المنتقى من أخبار الأصمعي» للإمام أبي محمد عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن سليمان الرَّبَعي، المتوفى سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م، وهو نحو نصفه، بانتخاب الحافظ ضياء الدِّين محمد بن عبد الواحد المقدسي، المتوفى سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م، وبخطه وإسماعه[4]، فينشره في مجلة المجمع[5]، ثم يصدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٣٦م/ ١٣٥٤هـ[6].

ثم يلفت الأنظار إليه بقوة حين ينزل بعُدَّته اللغوية إلى حياة الناس، ليعرِّب لهم

---

(١) مجلة الرسالة: العدد ١٦، السنة الأولى، ص ٢٧- ٢٨

(٢) ترجمته بقلمه، ومجلة المجمع:مج ١٣/ ٢٥٧ - ٢٥٨، مج ٤٤/ ٩٩

(٣) من حاضر اللغة العربية: ١٠١

(٤) مجلة المجمع: مج ١٣/ ٣٢٢، ٤٧٥

(٥) مجلة المجمع: مج ١٣/ ٣٢١ - ٣٣٠، ٤١٣ - ٤٢٠، ٤٧٥ - ٤٨٨، مج ١٤/ ٤١ - ٥٣، ٨٣ - ١١٠

(٦) ثم أعاد المجمع نشره بمراجعة الدكتور محمد مكي الحسني؛ أمين المجمع، وصدر عن دار البينة بدمشق سنة ٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ، بيد أنه خالف صنيع التنوخي في غلاف الكتاب، إذ نسبه فيه إلى ضياء الدِّين المقدسي، وكان عليه أن يبقي نسبة الكتاب للرَّبَعي، ويذكر أنه بانتخاب الضِّياء، كيلا يقوِّل التنوخي ما لم يقل.

أسماء الآلات التي لا يستغنون عنها في معاشهم، ومنها ما كان يسمَّى (البسكليت)، فيضع لها اسم (الدَّرَّاجة)، ويذهب إلى دكان مصلحها، وصانع عجلاتها، فيسألهما عن أجزائها، لاعتقاده أن هذا العاميَّ العربي كثيرًا ما يضع للمسمَّيات الأجنبية أسماء عربية على سبيل التشبيه أو الاشتقاق إذا عرف أعمالها، ولا يحسب للجامدين من علماء اللغة حسابًا، وقد استفاد التنوخي يومذاك منهما كثيرًا في تسمية كل جزء منها باسمٍ سهلٍ أليف يوحي بعمله، ثم نشر ذلك على النَّاس في مجلة المعلمين والمعلمات الدِّمشقية، ثم في مجلة المجمع[1]، وقد غدا هذا مِنْ بعدُ منهجه فيما وضع من مصطلحات جديدة، إذ كان يرى أن الألفاظ العامية الصحيحة، أو التي لها وجهٌ صحيح، هي ألفاظٌ عربية حيَّة باستعمالها، والألفاظ الجديدة على فصاحتها ميتة إن لم ينفخ فيها الاستعمال من روحه[2]. وللاستفادة من لغتنا العامية في هذا السبيل فحسب، سيدعو التنوخي من بعد إلى دراستها دراسة علمية[3].

ويخرج في عام ١٩٣٦م/ ١٣٥٥هـ تحقيقه لثاني الكتب اللغوية؛ «تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة» للإمام أبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، المتوفى سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م[4]، وكتاب الجواليقي هذا هو تتمة لكتاب «دُرَّة الغواص في أوهام الخواص» للحريري، فينشره التنوخي أولًا في مجلة المجمع[5]، ثم يصدر ضمن

(١) مجلة المجمع مج: ١٣/ ٣٦٣ – ٣٦٨، ومن حاضر اللغة العربية: ١٠٢

(٢) مجلة المجمع: مج ١٣/ ٣٦٥

(٣) كتاب الإتباع: ١٥

(٤) ذكر التنوخي وفاته سنة ٥٣٩هـ، كما قال بعض من ترجم له، والصواب ما أثبتُّه، نصَّ عليه الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٩٠

(٥) مجلة المجمع: مج ١٤/ ١٦٤– ٢٢٦

مطبوعات المجمع العلمي العربي[1]، ويكتب في تقديمه له عن رسالة المجمع، فيقول: «لا جرم أن رسالته التي من أجلها تمَّ إنشاؤه هي المحافظة على سلامة اللغة العربية، وتوفير شرائط الحياة والنماء لها، وإنما يتمُّ ذلك بمعالجة أمراضها من الألفاظ والتعابير الفاسدة في الكتاب والخطاب بالتنبيه إليها، وإلى ما يقابلها ويقوم مقامها من الألفاظ الصَّحيحة، وقد توسَّل المجمع إلى ذلك بذرائع جمَّة، منها ما نشره في المجلة والصحف من عثرات الأقلام، ومنها نشر رسالة «التنبيه على غلط الجاهل والنبيه» لابن كمال باشا، بتحقيق الأستاذ المغربي، ونشر هذا الكتاب النادر أخيرًا»[2].

ووفاءً لرسالة المجمع هذه ينثر التنوخي في حواشي تحقيقه له ما تغلط فيه العامة في الشَّام في عصرنا مقابل ما كانت تغلط فيه العامة في عصر الجواليقي، حفظًا لتاريخ اللحن، ولتنبيه العامة في بلاد الشام على ما تغلط فيه، لترجع عنه إلى الفصحى المحبوبة المحمودة، لأنها مِلاكُ الوحدة القومية المنشودة، على حدِّ تعبيره[3]، راجيًا أن يكون بنشره هذا الكتاب وتحقيقه قد قام ببعض ما يجب عليه نحو لغته وأمته[4].

والعامية في دمشق وقتئذٍ كان فيها كثيرٌ من الألفاظ الأعجمية من تركية وإيطالية وغيرها، وكان التنوخي قد اطلع في مكتبة صديقه الشيخ الطبيب محمد أبي اليُسْر عابدين على رسالة في عدة دفاتر للفقيه علاء الدين عابدين، تشتمل على جرائد من ألفاظ العامة بدمشق، لم يعمد مؤلفها إلى إرجاعها إلى الفصحى[5].

---

(١) أعاد المجمع نشره بمراجعة الدكتور محمد مكي الحسني؛ أمين المجمع، وصدر عن دار البينة بدمشق سنة ٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ.

(٢) كتاب تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة: ٢

(٣) المصدر السالف: ٦٣ – ٦٤

(٤) المصدر السالف: ٤

(٥) مجلة المجمع: مج ١٥/ ٩٤

واعتمد التنوخي في تحقيقه لهذا الكتاب على نسخة قديمة جليلة من ذخائر المكتبة الظاهرية، برواية الإمام علي بن عبد الرحيم السُّلمي المعروف بابن العصَّار، المتوفى سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م[١]؛ تلميذ الجواليقي، وهي منقولة عن نسخة قرئت على العلامة اللغوي المحقق ابن برِّي، وذلك في المحرَّم سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م، وله فيها زيادات.

وكان الكتاب قد نشر من قبل في ليبسيك سنة ١٨٧٥م/ ١٢٩٢هـ في مجلة ***Morgenland Forseh***[٢] الألمانية.

- ٣ -

واتفق في عام ١٩٣٥م/ ١٣٥٤هـ مرور ألف عام على وفاة شاعر العربية الكبير أبي الطَّيِّب المتنبِّي، فدعا المجمع العلمي العربي لهذه المناسبة نخبةً من علماء دمشق وأدبائها للاجتماع في ردهته بالمدرسة العادلية الكبرى، للتحضير لإقامة مهرجان يحيي هذه الذكرى.

وانتخب في هذا الاجتماع لجنة كان التنوخي من أعضائها، ثم انبثقت عنها لجنة تنظيمية كان التنوخي كاتب سرِّها[٣].

وتمَّ افتتاح مهرجان المتنبي الألفي في مدرَّج الجامعة السُّورية يوم الخميس ٢٣ تموز ١٩٣٦م/ ١٣٥٥هـ[٤].

وكان للتنوخي مشاركة فيه بقصيدة تغنى فيها بعروبة المتنبي، وجزالة شعره،

---

(١) جاء اسمه في طرة الكتاب: علي بن عبد الرحمن، وهو ما أثبته التنوخي، وهو وهم، والصواب ما جاء في مصادر ترجمته، ينظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٧٨ - ٥٧٩

(٢) كتاب تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة: ٢ - ٤

(٣) مجلة المجمع: مج ١٤/ ٢٩٨ - ٢٩٩

(٤) مجلة المجمع: مج ١٤/ ٣٠٠

وعشقه للمجد، سماها «صوت دمشق»، ودعا من خلالها شباب الأمة إلى العودة إلى مواطن الحروب، لنيل استقلالهم المغصوب، افتتحها بقوله:

عاش فوق الثَّرى وتحتَ التُّرْبِ ... خالـــدًا في قلوبِنـــا المُتَنَبِّـــي
ظلَّ ألفًا من السِّنين يُسَمَّى ... شاعِرَ اللَّفْظِ والعُلى والحَرْبِ

ومنها:

لستُ أنسى رُؤياه وهو مَليكٌ ... فوق عرشٍ من القَنا والكُتْبِ
وحَوَالَيْه دولةُ الشِّعْرِ قامتْ ... تَسْلُبُ اللُّبَّ بالبيانِ وتَسْبي
مِنْ رعاياه سيفُ حَمْدانَ مَنْ كا ... ن إذا ما ذكرتُهُ قلتَ حَسْبي
والسَّرِيُّ الرَّفَّاءُ أنْدَاهُمُ لفْـ ... ـظًا وأدْناهُمُ لمعنى القلبِ
وابنُ جنِّي رأيتُه يشرحُ الدِّيـ ... ـوانَ شَرْحًا له يروقُ ويُصْبي
لو حَسِبْناهُمُ من الطَّيْرِ كان الـ ... ـمُتَنَبِّي أميرَ ذاك السِّرْبِ

ومنها:

مادِحَ السَّيْفِ كان يُدْعى فأمْسى الـ ... ـسَّيْفُ يُدْعى أُمْدُوحةَ المُتَنَبِّي
ضامَهُ أنْ يَرَى بني العُرْبِ في ضَيْـ ... ـمِ عُلوجٍ بغيرِ عَهْدٍ ولُبِّ
وبنو العُرْبِ ليس تُفْلِحُ إلَّا ... بملوكٍ منهم أُباةٍ عُرْبِ

ومنها:

أيَّ يومٍ أرى الطَّلائعَ منَّا ... غائراتٍ على الجِيادِ القُبِّ
يَهْجُرُ الطِّرْسَ واليَرَاعَ فتانا ... ليَرَاعٍ من القَنا والقُضْبِ
لا يرى المَجْدَ غيرَ فَتْكَتِهِ البِكْـ ... ـرِ ونَيْلِ اسْتِقْلالِهِ بالغَصْبِ

ذاك يـــومٌ مُحَجَّـــلٌ فيـــه تحطيـــ ـــمُ قيـــودٍ وفيـــه تهتيـــكُ حُجْـــبِ
ذاك يـــومٌ يَقِـــرُّ عـــينَ أبي الطَّيِّـــ ـــبِ بـــالعُرْبِ وَهْـــوَ تحـــتَ الـــتُّرْبِ[1]

وفي ذلك العام ١٩٣٦م/ ١٣٥٥هـ يزور دمشق علامة الهند الجليل، المستهام بالعربية ومخطوطاتها عبد العزيز الميمني الراجكوتي[2]، وله بالمجمع العلمي العربي صلة قديمة، وهو عضو مراسل فيه[3]، فيلتقيه التنوخي، ويصحبه لزيارة الشاعر أحمد الصَّافي النَّجَفي، ليطلعا على النسخة المخطوطة التي بحوزته من كتاب الورقة لمحمد بن داود الجراح، فألفياها بخط جميل على ورق صقيل، وتشتمل على ترجمة خمسة وستين شاعرًا[4]، وفي المكتبة الظاهرية يطلع الميمني على السِّفْر الثاني من كتاب غريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، تأليف القاسم بن ثابت، فيكتب الميمني على الورقة الأولى فيه: هذا الكتاب يعرف بالدلائل، لقاسم بن ثابت، كتبه عبد العزيز الميمني بخطه سنة ١٩٣٦م[5]، ويحث التنوخي على نشره[6].

ثم أزاره صديقَه الطبيب الشيخ محمد أبا اليُسْر عابدين، في منزله بحي سوق ساروجة، فيطلعهما الشيخ على نوادر مخطوطات مكتبته، ومن بينها مجموعة لغوية،

(١) نشرت القصيدة، وهي في ستة وخمسين بيتًا، في مجلة المجمع: مج ١٤/ ٣٠٦ – ٣٠٨، ثم أعيد نشرها في مجلة الرسالة في العدد ١٦٤، السنة الرابعة، ص ١٣٩١ – ١٣٩٢، وأثبتُّها بتمامها في ملحق الكتاب.

(٢) مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٦٣

(٣) مجلة المجمع: مج ٥٤ / ٢٥٤

(٤) مجلة المجمع: مج ١٥/ ٣٣٧

(٥) مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٦٣ – ٢٦٤

(٦) مجلة المجمع: مج ٣٧/ ٣٦٥

كتب على صفحة الطرة منها: «كتاب المثنَّى» لحجة العرب أبي الطيب اللغوي، فيحرص الميمني على اشترائه، ويسأل عن ثمنه، فيجيبه الشيخ أبو اليسر: وزنه ذهبًا ! ويحرص التنوخي على نسخه لينتفع بعلمه، فيجيبه الشيخ إلى طلبته لما بينهما من المحبة، فينسخه، ولم يدر التنوخي يومئذ أنه قد وقع على أثر لغوي نفيس[1]، سيكتشفه بعد سنين[2].

- ٤ -

وفي عام ١٩٣٧م/ ١٣٥٦هـ يُخْرِجُ التنوخي ثالث كتبه اللغوية، وهو تحقيقه لكتاب «بحر العوَّام فيما أصاب فيه العوام»، للإمام أبي عبد الله رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف، المعروف بابن الحنبلي الحلبي، المتوفى سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م، فينشره في مجلة المجمع أولًا[3]، ثم يصدر ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي[4]، وبذلك يكتمل بحثه فيما أصاب فيه العوام، بما تغلط فيه العوام، وهو موضوع الكتاب الذي حققه في العام الفائت.

وبعيدًا عن اللغة ينكبُّ التنوخي مع العلامة الشيخ عبد القادر المبارك على تصحيح كتاب «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّيَر» لابن سيِّد النَّاس،

---

(١) كتاب الإبدال: ج١/ ٥٧ - ٥٨

(٢) ينظر ص ٩٦-١٠٠ من هذا الكتاب.

(٣) مجلة المجمع: مج ١٥/ ٨٥ - ١٣٩، ١٦٥ - ٢٠٥

(٤) ثم أعاد المجمع نشره بمراجعة الدكتور محمد مكي الحسني؛ أمين المجمع، وصدر عن دار البينة بدمشق سنة ٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ، وقد كتب الدكتور مازن المبارك نقدًا لهذه الطبعة، موازنًا بينها وبين طبعته الأولى، نشر في مجلة المجمع: مج ٨٦/ ١١٢٧- ١١٣٤

المتوفى سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م، وذلك بمقابلة نسخة الأمير طاهر الجزائري[١]، التي كانت في مكتبته، بنسخة دار الكتب الظاهرية، يساعدهما في ذلك السيد عبد المجيد الحسني؛ أمين دار الكتب الظاهرية وقتئذ[٢]، وكان الشيخ المبارك سِيريًّا؛ حسب تسمية السلف، أي من علماء السِّيرة، ولقلما كان يجاريه فيها أحدٌ من علماء الشام.[٣]

ويقوم الأستاذ حسام الدِّين القُدْسي بنشره في القاهرة سنة ١٩٣٧م/ ١٣٥٦هـ، بعد مراجعته المُشْكل منه في نسخ دار الكتب المِصْرية[٤].

* * *

وفي مساء الثلاثاء ٤ تشرين الأول ١٩٣٧م/ ١٣٥٦هـ يلقي الأمير شكيب أرسلان في المجمع محاضرة نفيسة بعنوان «نهضة العرب العلمية في القرن الأخير»[٥]، ويقدِّم التنوخي لها بقصيدةٍ في أمير البيان شكيب أرسلان تصفُ مزايا نثره وشِعْره، وجهاده في خدمة العروبة والإسلام، يستهلُّها بقوله:

إنْ صُغْتَ شِعْرًا فانحُ نحوَ حبيبِ ... أو رُمْتَ نَثْرًا فاحْذُ حَذْوَ شكيبِ

هذا إذا غنَّى سَمِعْتَ بشِعْرِه الأ ... لحانَ مِنْ شبَّابةِ التَّشْبيبِ

وشكيبُ يُسْمِعُكَ البيانَ وسِحْرَه ... فيريكَ بالنَّفثاتِ كلَّ عجيبِ

سُرُحٌ يُخالُ من السَّلاسة سَلْسَلًا ... مِنْ رِقَّةِ الإنشاءِ والأسلوبِ

---

(١) سلف ذكره ص٣٩ من هذا الكتاب.

(٢) عيون الأثر: ١/ ٢

(٣) مجلة المجمع: مج ٣٧/ ٣٤٣، وكتابي عبد القادر المبارك: ١٢٠

(٤) عيون الأثر: ١/ ١ - ٢

(٥) مجلة المجمع: مج ١٥/ ٤١٥ - ٤٤٣

ومنها:

تَخِــذَ اليَرَاعــةَ في المعــاركِ رُمْحَــه ... ليـذودَ عـن حـقِّ الحِمَـى المغـصوبِ
لا عيــبَ فيــهِ غــيرَ أنَّ سِــنانَهُ ... كَلِــفٌ بــدَقِّ أضــالعٍ وتَرِيــبِ
ناضَـلْتَ عـن أَحْسَابِ قومِـكَ نَجْـدةً ... لا قَــصْدَ شُــكْرٍ أو جــزاءَ مُثيــبِ
وردَدْتَ كَيْــدَ عُــداتِهِمْ لنُحُــورِهِمْ ... فــافْتَرَّ ثَغْــرُ الحــقِّ بعــدَ قُطُــوبِ
فــالعُرْبُ أنــتَ أمــيرُهُمْ ومُجِــيرُهُمْ ... في كَــشْفِ عادِيَــةٍ ودَفْــعِ كُــرُوبِ

ومنها:

خاصَــمْتَ في الإسـلامِ كـلَّ مُخاصِـمٍ ... وجَفَــوْتَ في الإسـلامِ كـلَّ مُريــبِ
لم يبــقَ في شَرْقِ الــدِّيارِ وغَرْبِهــا ... مَـنْ لـيس يَلْهَـجُ باسْـمِكَ المحبوبِ[1]

* * *

وفي أواخر شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٧م/ ١٣٥٦هـ ينقطع التنوخي عن نشاطه في المجمع العلمي العربي[2]، ليعيَّن في ١٨ كانون الأول أستاذًا للعربية وآدابها في المدارس الثانوية بحمص، ثم ينقل بعد ثلاث سنوات إلى دمشق[3]، ثم يُعيَّن مفتشًا للعربية في وزارة التربية[4].

وعن سنواته في حمص، يحدثنا أحد طلابه النجباء، وهو الدكتور شاكر الفحام، العالم الأديب، ورئيس مجمع اللغة العربية فيما بعد، فقد درس عليه ثلاث سنوات

(١) القصيدة، وهي في تسعة وعشرين بيتًا، في مجلة المجمع: مج ١٥/ ٣٩٤ - ٣٩٥

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٣١

(٣) مجلة المجمع: مج٤٤/ ٢٣٠، وترجمته بقلمه.

(٤) مجلة المجمع: مج ٤١/ ٣٩٧

دراسية ما بين كانون الأول سنة ١٩٣٧م/ ١٣٥٦هـ حتى أيار سنة ١٩٣٩م/ ١٣٥٨هـ، ويستعيد الدكتور الفحام ذكريات تلك السنين، وهو يكتب مقالته الرائعة عن صديق التنوخي الحميم العلامة عبد العزيز الميمني[1]، فيقول عنها: «كانت متعة القلب والنفس، وما تزال ذكراها غضة ناضرة، فقد شحذ منا العزم، وحرَّك الهمم، وابتعث فينا الحميَّة، وأخذ بيدنا يفتح لنا مغاليق التراث، ويدور بنا في رياض الكتب، يدلنا على ما فيها من النفائس والتحف، وكان الفرنسيون قد حرموا مدينة حمص من مكتبة عامة نأنس إليها، ونقطف من أزاهيرها، ولم يكن لنا إلا المكتبة الصغيرة في الثانوية (تجهيز حمص)، فكنا نعبُّ من معينها، ونتفيأ ظلالها نحتمي بها من هجير الجهل، ولفحة الحرمان. وما أنس لا أنس تلك التعليقات المفيدة التي كان يزين بها أستاذنا التنوخي حواشي الكتب، يصحِّح بها التحريف والتصحيف في تلك الطبعات السقيمة المحرَّفة كطبعة «الحيوان» للجاحظ، أو ينبه إلى فوائد ولآلٍ لا يعرفها إلا الدليل الخرِّيت. ومما أذكره منها أني كنت أطالع في الطبعة القديمة لوفيات الأعيان، وأتأمل تعليقات أستاذنا، ثم قلبت فهارسها، أريد أن أقرأ ترجمة عبد الله بن المُقَفَّع، وما أشد فرحتي حين وجدت في الفهرس حاشية لأستاذنا التنوخي في المكان المتوقع لورود اسم عبد الله بن المُقَفَّع، يذكر فيها أن ابن خلِّكان لم يفرد ترجمة لابن المقفع خاصة، وإنما أورد ترجمة له في ختام ترجمة الحلاج أبي مغيث الحسين بن منصور، فخفف عني عناء البحث دون طائل، وما يصاحبه من تخبط الحيرة، واستقام بي على الطريق دون مشقة.

وكان أستاذنا - رحمه الله، وأجزل مثوبته - لا ينى يحدثنا حديث العلماء والكتّاب والأدباء، ومنه سمعت أول ما سمعت أخبار صديقه الأستاذ العلامة عبد

(١) توفي العلامة الميمني سنة ١٩٧٨م/ ١٣٩٨هـ عن نحو تسعين سنة، وترجم له الدكتور شاكر الفحام ترجمة تمتاز بالدقة والإتقان، نشرها في مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٣٦ - ٢٧٩

العزيز الميمني، وما أوتي من المقدرة في العلم، والبسطة في التحقيق. ولقد حبب إلينا بكلماته الحلوة، وإعجابه الذي لا ينتهي، الأستاذ الميمني وكتابه الفذ: «أبو العلاء وما إليه»، وتحقيقاته الغالية في «سمط اللآلي»، حتى أصبحنا وكأننا نعرف الميمني من قرب، ونتوق للاستزادة عنه»[1].

(١) مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٦٦ - ٢٦٧

بعيداً عن التدريس

- ١ -

كان التنوخي في سالف الأعوام دائبَ البحث عن قبر الصَّحابي معاوية بن أبي سُفْيان؛ مؤسِّس الدولة الأموية، لما يمثِّله له ولجيله من قيمة كبيرة من الوجهة القومية - وإن كان يعتقد كما يعتقد أهل السُّنَّة أنَّ أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب أحقُّ بالخلافة منه، وأن عليًّا في خصومته معه هو المُصيب - وكان يصحبه في جولاتِ بحثه صديقُه الشَّاعر الأستاذ خليل مردم بك، حتى أعياهما التنقيب عنه[1].

وكان من عادة التنوخي كلما زار مقبُرة الباب الصَّغير بدمشق، وفيها قبور بعض الصحابة، أن يسأل الحفَّارين عن قبره. وبينما كان عصر يوم الجمعة ١٠ كانون الأول سنة ١٩٣٧م/ ٧ شوال ١٣٥٦هـ، في طريقه إلى بُستان صديقٍ له، يقع قِبْلي مقبرة الباب الصَّغير، اختصر طريقه بالمرور بالمقبُرة، وكعادته سأل الحفَّارين عن قبره، فصادف في ذلك اليوم حفارًا يعرف قبره، فدلَّه عليه، فإذا هو في حجرة من اللَّبِن، مسقوفة بأعمدة من شجر الحور، بابها إلى الغرب، وتحقَّق التنوخي من صحة موقعه بأدلة تاريخية أثرية، كان قد جمعها أثناء بحثه، فخفَّ في اليوم التالي إلى صديقه

(١) مجلة المجمع: مج ١٥/ ٤٦٧، ٤٧٣

الأمير جعفر الحسني؛ مدير الآثار في دمشق يزف إليه خبر اهتدائه إلى قبر معاوية، فسر الحسني لهذا النبأ الأثري التاريخي العظيم، ثم نهض معه لزيارته، وهناك أوقفه التنوخي على الآثار التي تثبت صحة اكتشافه، فقال الأمير جعفر: الآن حصحص الحق. وفي اليوم الثالث خف مع التنوخي لزيارته وزير المعارف وقتئذٍ الدكتور عبد الرحمن الكيالي، وفي اليوم الرابع صحب لزيارته صديقه الشاعر خليل مردم بك؛ رفيق رحلته في التنقيب عنه.

وتوثيقًا لما توصل إليه كتب التنوخي مقالة، نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي، عنوانها «الاهتداء إلى قبر معاوية بن أبي سفيان بدمشق» [(١)]، دلَّلَ فيها بالوقائع التاريخية على صحة اكتشافه.

ثم أيَّد الأمير جعفر الحسني؛ مدير الآثار بدمشق، بأدلة ضافية صحة ما انتهى إليه التنوخي، في مقالةٍ نشرها كذلك في مجلة المجمع العلمي العربي، بعنوان «قبر معاوية بن أبي سفيان»، ودعا فيها إلى صيانة هذا القبر بما يليق بمنزلة مؤسس أول دولة عربية عرفها التاريخ، على حد تعبيره[(٢)]، وبذلك أصبح موقع قبر معاوية ثابتًا عند الباحثين المهتمين بتاريخ دمشق وآثارها، بيد أنهم يحيلون في أبحاثهم على مقالة الأمير جعفر الحسني، ويجهلون أو يتناسون مكتشفه الأول التنوخي![(٣)]

- ٢ -

وفي أيام الصَّيف كان التنوخي، وهو الشَّاعر، يختلسُ أويقاتًا، يقضيها في أحضان

(١) مجلة المجمع: مج ١٥/ ٤٦٦ - ٤٧٣

(٢) مجلة المجمع: مج ١٩/ ٤٣٤ - ٤٤١

(٣) ينظر على سبيل المثال كتاب «خطط دمشق» للدكتور صلاح الدين المنجد: ١٢٠

الطبيعة الجميلة، ممتِّعًا عينيه بنضرة أشجارها، متنسِّمًا هواءها، متخفِّفًا من أعباء التدريس، وعناء البحث، وذات صيف فاض قلمُه بسحر ما رأى، فتركه يسيل على الورق، مصوِّرًا أيامًا من عام ١٩٣٨م/ ١٣٥٧هـ قضاها في مَصِيف الزَّبداني[١]، فقال:

«كلُّ ما في وادي الزبداني بهيجٌ جميل، بهيج لعَمْري مقهى أبي زاد ومنظره السَّاحر الجميل، ومقهى بقَّين وعينها التي يحق أن تسمَّى السَّلسبيل، وجميلٌ كل الجمال قصر الجرجانية الأندلسي بشلالاته وفوَّاراته، وفخمٌ كل الفخامة فندق بلودان بمقصوراته وحماماته، ورائعة – شهد الله – قرية مضايا بصفاء سمائها وصحَّة هوائها، وماذا عسى أن يقول قائلٌ في محاسن الزبداني ومفاتنها؟».

«إن من ينكر السِّحر من أهل هذا العصر يؤمن به مثلي، بعد أن يرى ما رأيتُ من جمال إشراق الشمس على سلسلة الجبال الغربية، ثم يزداد استيلاء الضِّياء حتى يغمر ما تحت الشَّناخيب والذرى، فتزداد بهجة النفس، فإذا ما بلغتِ الشمس أشجار الرَّوابي المغروسة، راعك مشهدُ سواد الأشجار مع بياض الأنوار، فتخيَّلت التقاء الليل بالنهار، عندما يتنفَّس الصُّبْح في الأسحار».

ومأخوذًا بهذا السِّحْر راح يردِّد أبياتًا كان قد قالها في وصف دمشق وغوطتها:

هـذه الغُوْطـةُ مـا أبْهَجَهـا ... وَهْـيَ في نيـسانَ قيـدُ المُجْـتَلي

قـال سُـبْحانَ الـذي دَبَّجَهـا ... مَـنْ رآهـا فِتْنَـةً للمُقَـلِ

إنَّـه قـد شـاءَ أنْ يُخْرِجَهـا ... جَنَّـةً في الأرْضِ للمُـسْتَعْجِلِ[٢]

---

(١) نشر تلك المقالة في مجلة الرسالة، في العدد ٢٧٤، السنة السادسة، ص ١٦٢٠ – ١٦٢٢، بعنوان «لبنان الشرقي، مصطاف الزبداني»، وأثبتُّها بتمامها في ملحق الكتاب.

(٢) من موشَّحة نظمها التنوخي صباح الجمعة في ٢١ نيسان ١٩٢١م/ ١٣ شعبان ١٣٣٩هـ، هي بخطه في أوراقه لدى أسرته، أثبتُّها بتمامها في ملحق الكتاب.

ويحدِّثنا التنوخي فيما يحدِّثنا عن تلك العشية التي زار فيها مغارة النَّابوع: «تلك العين التي لا يكاد يرتوي واردها لشِدَّة بَرْدِ مائها، وفَرْطِ عذوبته، وكان رفيقي الوفيق في ارتياد هذه العين العجيبة الشيخ حسن بو عياد المغربي؛ من زعماء الإصلاح في المغرب الأقصى، وهو على رأيي في إصلاح المرأة بإصلاح تربيتها وبيئتها. ثم خرجنا من المغارة والشمس في صفرة وجه العاشق الوامق، فانتقلنا من لذة إلى لذة؛ من نشوة الارتواء إلى نشوة الإصغاء».

ولا ينسى في حضرة هذا الجمال أن يعلن رأيه الصَّريح في سفور المرأة في تلك الأيام، فيقول: «إن تطور المرأة من الحجاب إلى السفور فالحسور كان سريعًا جدًّا في مصر، ولكنه بطيءٌ في ديار الشَّام، ولا تزال الدِّمشقية مع تعلُّمها وولعها بالنهضة الاجتماعية تؤثر التدين الصَّادق على التمدُّن الكاذب، والكمال والعفاف على الابتذال والإسفاف».

وهذا الرأي لا يثنيه عن وصف ما شاهده في وادي الزَّبداني من سفور الفتيات، معتمرات البرانيط تقليدًا للغربيات، ويمشين مع أمهاتهن، وقد غَطَّيْنَ رؤوسَهُنَّ بالقمطات، ويَرْتَدْنَ السينما والقهوات، وغدًا يَرْتدْن البالات[1] والحانات، فتأخذه الشفقة عليهن خوفًا من إيغالهن في هذا المنحدر الوعر، فيخاطبهن:

يـــا صـــبايا الزَّبـــداني رأفـــةً ... بهُـــواةِ الحُـــسْنِ مِنَّـــا يـــا صـــبايا
قَنِّعُـــوا عمَّـــنْ يـــراكُمْ أوْجُهًـــا ... صُـــقِلَتْ حتَّـــى حَـــسِبْناها مَرَايـــا
واسْـــتُروا عنَّـــا عُيونًـــا خُلِقَـــتْ ... لقلـــوبِ المُـــسْتهامِينَ بلايـــا

(١) كذا في الأصل، ولعلها "البارات".

ومنها:

يـــا ســـقى اللهُ المنادِيـــلَ التـــي صُـــنْتُمُ الأعـــراضَ فيهـــا والمَلايـــا
ولحـــــى اللهُ البَرَانِـــــيطَ التـــــي أَخْذَتِ الأَحْسَابَ منكُمْ والسَّجَايا

ومنها:

مـــسرحَ الآلامِ قـــد هِجْـــتَ لنـــا مـــن رَسِيسِ الوَجْـدِ والحُـبِّ بقايـا
أنـــــا إنْ لم أَكُ أنـــــسى زمَنًـــــا مِـــنْ حيـاتي فَهْـوَ هاتِيـك العَـشَايا
يـــا رعـــاكَ اللهُ لـــولا سُرْبَـــةٌ كُـــنَّ يَنْثُـرْنَ عـلى النَّـاسِ الخَطايـا
رائِحـــاتٍ غادِيـــاتٍ ضَـــلَّةً بـــين «بُقَّـــين» مـــساءً و«مـــضايا»
ســـافِرَاتٍ حـــاسِرَاتٍ وغـــدًا هُـــنَّ أنـــصافُ عَرَايـــا فعَرَايـــا

- ٣ -

وتفقد دمشق في ٦ تموز سنة ١٩٤٠م/ ١٣٥٩هـ[١] لأول مرة اغتيالًا زعيمًا من كبار زعمائها السياسيين، وخطيبًا من خطبائها المفوَّهين، هو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر[٢].

وكان للتنوخي صلة قديمة به، تعمقت مع الأيام، ومن طريف ما حدَّثنا عن علاقته به، أنه رافقه مرة في بعض جولاته الوطنية إلى جبل العرب، حيث ألقى الشهبندر خُطَبًا بركانية كثيرة، فما كان من التنوخي إلا أن جمع المعاني التي اشتملت عليها هذه الخُطَب الشهبندرية، ونظم منها قصيدة ميمية، ألقاها في ختام تلك الجولة[٣].

ويقام للشهبندر حفل تأبين على مدرَّج جامعة دمشق، ويشارك التنوخي فيه[٤].

(١) صحافة وسياسة، سورية في القرن العشرين: ١٣٨
(٢) المذكرات لمحمد كرد علي: ٢/ ٤٤٤، ٤٤٦
(٣) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٨٧٧
(٤) صحافة وسياسة، سورية في القرن العشرين: ١٤٢

وفي سنة ١٩٤٢م/ ١٣٦١هـ أنشئت في دمشق دار المعلمين العليا[١]، فكان التنوخي أحد مدرسيها للأدب العربي[٢].

ثم يُسْند إليه في الفاتح من تشرين الأول سنة ١٩٤٣م/ ١٣٦٢هـ منصب مدير معارف محافظة السويداء[٣]، فيعمل على إزالة القيود التي حاول الانتداب الفرنسي فرضها على جبل العرب، لعزله عن الوطن الأم، ويبادر إلى فتح كثير من المدارس الابتدائية في قراه.

فقد كان في تجواله في تلك القرى، يُدْعى فيها إلى مأدبة طعام تكريمًا له، فلا يقبل إجابة دعوة الداعي حتى يقول لمن يلتفُّ حوله من فلاحي الجبل: يا بني معروف، أنا ابن عمكم، لا أتناول طعامكم إلا إذا أجبتموني إلى ما أريد. ويسألونه باهتمام: ماذا تريد؟ فيقول بحماسة: أريد مدرسة، قَدِّمُوا لي البناء، وعليَّ تأمين المعلم. فإذا أجيب إلى طلبه أقبل على طعامهم بيديه، شأنه في ذلك شأن الفلاحين البسطاء، وكانوا يستعجبون حقًّا من أول مدير للمعارف، يرونه تاركًا مكتبه ليزورهم في بيوتهم، ويؤخذون ببساطته وحلاوة حديثه[٤].

ولم يقتصر التنوخي على حضِّ أبناء جبل العرب وحدَهم على بناء المدارس، بل راح يحضُّ أكابر أبناء الأمة كلَّهم على بنائها، ففي قصيدته «أكابرنا»، يخاطبهم بقوله:

أكابِرَنـا مـا المَجْـدُ مـا تَطْعَمُونَـهُ وجـارُكُمُ مِـنْ جُوعـه الـبطنُ يـابسُ

(١) كتابي عبد القادر المبارك: ٩٥

(٢) ترجمته بقلمه.

(٣) مجلة المجمع:مج ٤٤/ ٢٣٠

(٤) جريدة الثورة، مقالة للأستاذ فريد جحا، العدد ٧٤٥٧، سنة ١٩٨٧م

أكابِرَنـا مـا المَجْـدُ مـا تَكْتَـسُونَهُ ... وهـذي اليتـامى أعْوَزَتْهـا الملابـسُ

أكابِرَنـا مـا المَجْـدُ إمَّـا فَطِنْـتُمُ ... تُـراثٌ أتـاكُمْ فجـأةً ومغـارِسُ

وأنْ تُبْتَنـى تلـك القُـصُورُ شـوامخًا ... وأنْ تُقْتنـى للفَخْـرِ فيهـا الملابِـسُ

وأنْ تَنْهبـوا الفـلَّاحَ أرضَ جُـدُودِهِ ... وأنْ تَـسْلُبوه غَرْسَـهُ وهْـوَ غـارِسُ

وأنْ تـأكلوا مـالَ اليتـيمِ وِصَـايةً ... كـما فَعَلَـتْ طُلْسُ الـذِّئابِ النَّـواهِسُ

وأنْ تَرْقُـدُوا والحادِثـاتُ يـواقِظٌ ... وأنْ تَـضْحَكُوا والكارثـاتُ عـوابِسُ

وأن تركَبُـوا للـسَّبْقِ خـيلًا سـوابقًا ... وخـيلكُمُ في المَكْرُمـاتِ شـوامِسُ

لعَمْـرُ العُـلى مـا المَجْـدُ زِقًّـا وقَيْنَـةً ... ولا هـو دورٌ تُقْتنـى وعـرائِسُ

فـما المَجْـدُ إلا العِلْـمُ يُحيـي مَـوَاتَكُمْ ... ولا المَجْـدُ كـلُّ المَجْـدِ إلَّا المـدارِسُ[1]

(١) الأدب العربي المعاصر في سورية : ٢٤٠

التنوخي محاضراً
في الجامعة السورية

- ١ -

بقي التنوخي مديرًا للمعارف في محافظة السويداء حتى عام ١٩٤٦م/ ١٣٦٥هـ[١]، حيث دعي مع إخوانٍ له لتأسيس كلية الآداب في الجامعة السورية، وكلف تدريسَ علومِ العربية فيها[٢].

وكانت كلية الآداب ترمي في مناهجها فيما ترمي إليه إلى تمكين طلابها من مطالعة كتب السَّلف، وفهم عباراتها التي تختلف بلغتها وأساليب بيانها عن لغة التأليف في عصرنا، وذلك كي يستطيعوا بعد تخرُّجهم بها من مراجعة مصادر أبحاثهم، والانتفاع بها في التأليف والتدريس[٣].

ومن ثَمَّ ألف التنوخي لطلابها كتابه «إحياء العَروض»[٤]، وكان باعثه إلى تأليفه

(١) من أوراق التنوخي لدى المجمع، وما ذكره عبد القادر عياش في كتابه«معجم المؤلفين السوريين»: ص ٨١ من أنه انتدب للتدريس في كلية الآداب سنة ١٩٥٠م، هو وهم محض.

(٢) ترجمته بقلمه.

(٣) تهذيب الإيضاح: ١/ ٣

(٤) ترجمته بقلمه.

طول ما عاناه من تدريس علمي العَرُوض والقافية في الشَّام والعراق، وفرط حرصه على تذليل هذا العلم الموسيقي، السهل بطبيعته، الصعب بطريقته.

فبعد أن أجال التنوخي النظر في كتب القدماء والمتأخرين في هذا الفن، ألفى الشَّبَه قويًّا بين الطريقتين المتقدمة والمتأخرة، ما خلا تداريب الشعر التي تزيد في الكتب الحديثة عن القديمة، وبها وحدها لا تكون حديثة، وكان قد وقف في أثناء ذلك على عيوب كتب العروض، فحاول جاهدًا تجنبها، وذلك بابتداعه طريقة جديدة، هي الطريقة الصوتية الحديثة، التي تقوي موسيقية الأذن، بتدريب الطالب على التقطيع الصوتي، المعين على التقطيع العروضي، وعزَّز كل بحر بتداريب من عيون الشعر، راجيًا من وراء ذلك أن لا يقابل الطالب الرَّيِّض في كتابه مجهولًا، ولا غامضًا مملولًا، وإنما يرى في هذا العلم متعة لنفسه، تشوِّقُه إلى ساعاتِ أنسه بدرسه[1].

وبدأ كتابه، على خلاف كتب العروض، بالبحور التي يسهل تقطيعها، المتدارك، فالمتقارب، فالهزج، فالوافر، وهي ذوات الأجزاء المتشابهة، ثم قفَّاها بالبحور المختلفة الأجزاء كالطويل والمديد، وختمها بالمنسرح، لأن تقطيعها أصعب، والشعور بأوزانها أضعف، محافظًا في كلِّ بحر على مُصْطلح الخليل، ذاكرًا فيه ما يعرض له من علل وزحافات، ولعل كتابه هو أول كتاب بُدئ فيه بتعلم الأبحر الخفيفة الأوزان، والمؤتلفة الأجزاء، ليسهل تقطيعها، ولعله كذلك أول كتاب لم يُبدأ فيه بتعليم العلل والزِّحافات، لكيلا يُبنى فيها معلومٌ على مجهول، إذ أيسر على الطالب أن يتعلم في دراسة كل بحر ما يعرض له من عِلَّة وزِحاف، وذلك لرؤيته ما يطرأ على مقياسه الأصلي من اختلاف، أو نقص عارض[2]. وفي ختام عرض كل

(١) إحياء العروض: ٣

(٢) إحياء العروض: ١٢- ١٣

بابٍ من أبواب العَرُوض كان التنوخي يشرح آراءه تحت عنوان «نظرات»، يناجي بها المعلم المستقل بفهمه، والمتعلم الذي يريد أن ينتفع بعلمه[1]، وهي نظراتٌ تحليلية تكشف عن مدى تمكنه من هذا العلم وأصالته، حتى إنه ليعدُّ بحق رائدًا من رُوَّاد هذا العلم الجليل.

أما محاضراته في البلاغة، وكان التنوخي في علومها من أبرع مدرسيها، ومن أقدرهم على تبين خصائصها ونقائصها[2]، فكان يحاول أن يلمَّ الطلابُ بأصولها العامة، وأن يتمرَّسوا بتداريبها وأساليبها[3].

- ٢ -

فلما كانت السنة الثانية لتأسيس كلية الآداب، وهي سنة ١٩٤٧م/ ١٣٦٦هـ، رأى التنوخي أن يضع بين أيدي الطلاب كتابًا يحرِّر فيه مسائل البلاغة، ويلخص لهم قواعدها أحسن تلخيص[4]، فاختار لذلك كتاب «الإيضاح»، تأليف إمام البلغاء، قاضي دمشق، وخطيب جامعها، الشيخ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القَزْويني، ثم الدِّمَشْقي، المتوفى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م.

ووراء اختيار التنوخي له أن دمشق العربية، بل قلب العروبة الخفَّاق، لأحقُّ البلاد في نهضتها بإحياء آثار من ضمتهم تربتها الزَّكية من علماء العرب وأدبائهم، والجلال القزويني خدم دمشق بالقضاء والتعليم دهرًا طويلًا، فهو أحق الناس بأن يفيد أبناء الشَّام، بل أبناء الجامعة العربية بعلمه وأدبه، كما أفاد منه في القرن الثامن

(١) إحياء العروض: ٤٠

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٦٣

(٣) تهذيب الإيضاح: ١/ ٣

(٤) تهذيب الإيضاح: ١/ ٣

آباؤهم الذين كانوا هم الأحياء والبلغاء.[1]

وكان الجلال القزويني قد شرح في إيضاحه «تلخيص المفتاح»، وجمع فيه خلاصة «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة»، و«المثل السَّائر»، وغيرها من كتب البلاغة[2].

فعمد التنوخي إلى شرح «الإيضاح» شرحًا يلائم التدريس الجامعي[3]، وذلك ببسط ما فيه من العبارات الباعثة على تعقيده وتبعيده، وبتيسير فهمه بتعليقات واضحة، وأقوال شارحة، وبإتمام مباحثه بتحقيقات مستقاة من «كتاب الصِّناعتين» لأبي هلال العسكري، وكتاب «الطِّرَاز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» للإمام يحيى بن حمزة العلوي، وغيرهما من كتب البلاغة.

ثم أكمل ذلك، لتقوية ملكة البيان عند الطالب، بتدريبات كثيرة النصوص والشواهد، وبعضها من نظمه، صدَّرها بقوله: قال الغوَّاص، ويعني نفسه[4]، وآثر الابتداء بفن البديع، فالبيان، فالمعاني، مجاراة لكلية اللغة العربية في الجامعة الأزهرية، ولأن فيه انتقالًا بالطالب من اليسير إلى العسير، على حدِّ تعبيره[5]، وسمَّاه «تهذيب الإيضاح».

ومن ثَمَّ يسَّر التنوخي بهذا الكتاب علوم البلاغة وأضاء مجاهلها، بمُرْهف ذوقه، ودقة فهمه، وسَعَة حفظه، وسلاسة شرحه، وليس لنا أن نقتضي التنوخي وضع أسس جديدة لعلوم البلاغة، واستكمال ما فات القزويني وغيره منها، لأنه في هذا المقام هو شارحٌ للكتاب لا مؤلف له، ويبدو أنه كان يوَدُّ أن يصنع شيئًا من

---

(١) تهذيب الإيضاح: ١/ ٦- ٧

(٢) تهذيب الإيضاح: ١/ ٤

(٣) ترجمته بقلمه.

(٤) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٥) تهذيب الإيضاح: ١/ ٤

ذلك، ولكن لم يقيض له قصر الزمن بلوغ غرضه[1]، فقد قال في تقديمه له: «إن البلاغة العربية التي تشتمل على هذه الفنون الثلاثة - المعاني والبيان والبديع - إنما تبحث عن الجملة والصُّورة، وهما شطرٌ من الأسلوب الذي أغفلته بلاغتنا، والأسلوب لا تخلد الكتابة ولغة الأمة إلا به، ولم تبحث معه عن الفكرة والعاطفة والخيال، وعن قواها وأنواعها، ولئن كانت الجملة والصورة قِوَام جسم البلاغة، فالفكرة والعاطفة والخيال روح ذلك الجسم السويِّ الجميل، والتعبير المستوفي لشرائط الحُسْن إذا ما خلا من روحه أشبه التمثال الذي استوفى نحته شرائط الإتقان، ولكنه يظل معها جامدًا باردًا لفقده الرُّوح والحياة.

ثم إن لهذه الفنون أو الفصول الثلاثة من البلاغة «أنواعًا أدبية»[2] أخرى، لها بها اتصالٌ وثيق، وبجملتها يتم بيان الإنسان كالوصف والخطابة والقصة والرِّسالة والبحث والمناظرة، فلها بلاغاتٌ فنية خاصة، وعسى أن نوفق يومًا لإتمام البحث عنها في رسائل أو كتب مستقلة، تدل طالب البلاغة الإنسانية على أصولها وأساليبها، وشرائط الإتقان والإحسان فيها»[3].

* * *

وفي صيف سنة ١٩٤٩م/١٣٦٨هـ، يسافر التنوخي إلى تركية في رحلة مع تلاميذه من طلاب كلية الآداب، كان فيهم: مازن المبارك، ومحمد خير أبو حرب،

---

(١) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٦٤

(٢) ***Les genres littéraires***، قال التنوخي: وقد جعل صاحب الصناعتين الخطب والرسائل من أجناس الكلام، فلنا أن نسميها «الأجناس الأدبية». قلت: وقد كتب الشيوع فيما بعد لهذا المصطلح الذي اقترحه التنوخي في الدراسات الأدبية.

(٣) تهذيب الإيضاح: ج١/ ٥

وعزة حسن، وعبد القادر الرِّيحاوي، وعبد الكريم الأشتر، وعاصم البيطار، ومن أساتذتها: سعيد الأفغاني، وعبد الكريم اليافي[1]، ويزور فيما يزور دار الكتب السُّليمانية في الآستانة، ويطلع فيها على السِّفْر الأول من كتاب «مُنتهى الطلب من أشعار العرب» للإمام الأديب محمد بن المبارك ابن محمد بن ميمون البغدادي، المتوفى ظنًّا بعد سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م[2]، فيقدِّرُه حقَّ قدره، لما يرى فيه من شعر جاهلي خلت منه دواوين الشِّعْر المطبوعة، أو من شعراء لا تذكر لهم كتبُ اللغة والأدب غير القليل من الشواهد، ويقع في قلبه وقتئذٍ أن يحقِّقَ هذا السِّفْر منه، خدمة للأدب والشعر، كيما يتسنى لمحققي التراث العربي أن يمحصوا الشعر القديم، بيد أن وقته يضيق به عن تصوير هذه المخطوطة النادرة، فيشكو بثَّه وحُزْنه إلى أصحابه لفواتها منه[3].

- ٣ -

ومع بداية العام الدِّراسي ١٩٤٩ - ١٩٥٠م/ ١٣٦٨- ١٣٦٩هـ يُخْرَجُ التنوخي مع ثُلَّة من الأساتذة من سِلْك التدريس في كلية الآداب بالجامعة.

فالتنوخي، وهو في تدريسه يمثل الجيل القديم، كثيرًا ما كان يقطع الدرس ليرتجل أبياتًا من الشعر اقتضتها المناسبة، أو يلقي نكتة يبدِّد فيها صرامة الموضوع، وأحيانًا لغزارة معلوماته يستفيض في الشرح، فيخرج عما هو مقرَّر، وقد ترك ذلك أثرًا طيبًا في نفوس بعض طلابه، منهم الأستاذ فريد جحا، إذ كتب فيه: «عز الدين التنوخي هو واحدٌ من أفضل أساتذتي في كلية الآداب من الجامعة السورية، تتلمذنا

(١) مقابلة مع الدكتور مازن المبارك.

(٢) ذكر ناشره أن نسخة استانبول كتبت بخطه في تلك السنة، انظر طبعة دار صادر: ١/ ٧٠ - ٧١

(٣) مجلة المجمع: مج ٣٧/ ٣٦٦ - ٣٦٩

عليه، وأخذنا منه في علوم النحو والصرف والبلاغة والعروض فوائد لا تقدَّر بثمن، لأنه فيها المعلم الممتاز، والموسوعي الجليل، والشاعر الفذ، الذي كان يعزز دروسه دائمًا بما يرتجل من شعر فيه النكتة البارعة، التي كانت تصيب دائمًا كبد الشاهد النَّحْوي أو البلاغي أو العَرُوضي، الذي كان ذلكم الشاهد يعوزه»[1].

ويصفه بإعجابٍ شديد تلميذه الدكتور مازن المبارك بقوله: كان التنوخي مَرْبوع القامة، أقرب إلى النَّحافة، خفيف الظل، ذا صوت رفيع حاد، درَّسنا البلاغة، وكان يتقنها إتقانًا عجيبًا، وألف فيها كتابه «تهذيب الإيضاح»، وهو من أحسن كتب البلاغة، وكان التنوخي على غزارة معلوماته يفتقر إلى المنهج الحديث في إلقاء دروسه، فيفيض في الموضوع الذي يتحدث فيه بحيث لا يستطيع متابعته إلا الطلبة المجدُّون، وقليلٌ ما هم، ومن ثَمَّ نقم عليه بعض الطلاب طريقته هذه في التدريس، كما نقموا على غيره من الأساتذة، وسعوا إلى إخراجهم من الجامعة، وكان لهم ويا للأسف ما أرادوا.

وهكذا يجد التنوخي نفسه من جديد مدرِّسًا للعربية في ثانويات دمشق، والغريب حقًّا أنه لم يتأثر لنقله من الجامعة، شأنه في ذلك شأن أصحاب النفوس النبيلة، فقد قابله ذات يوم في الطريق الأستاذ سعيد الأفغاني - وكان زميله في الجامعة - فتقدم نحوه متحرِّجًا يسلم عليه، فما كان من التنوخي إلا أن بادره قائلًا بلهجته المحببة: يا با، الحمد لله، هل تعرف؟ وجدت صديقنا عاصم البخاري مدرسًا معي في المدرسة، فاستعدنا معًا ذكريات جميلة مضت، أنا مسرورٌ جدًّا... ويتمتم الأفغاني وهو يودِّعه: سبحان الله، ما رأيت أصفى من قلب هذا الإنسان![2]

---

(١) جريدة الثورة، مقالة للأستاذ فريد جحا، العدد ٧٤٥٧، سنة ١٩٨٧م

(٢) مقابلة مع الدكتور مازن المبارك.

أعوام الخصب

- ١ -

ويبلغ التنوخي الستين من عمره، في عام ١٩٥٣م/ ١٣٧٢هـ، حسب القيود الرَّسمية، فيحال إلى التقاعد من التدريس[١]، متخففًا من أعبائه، ويعود إلى المجمع العلمي العربي متفرغًا لأعماله[٢].

ويغدو في المجمع موئلًا لأعضائه وموظفيه وزوَّاره، يرجعون إلى ذاكرته فيما يستعصي عليهم معرفته من كلمة غريبة، أو نادرة نحوية، أو قضية فقهية، أو مشكلة تفسيرية، وكان أسرع في الإجابة إلى ذلك كله من الكتاب نفسه.

وكان كريمًا بعلمه وإفادته، ويحدِّثنا عن بعض مظاهر هذا الكرم، الشَّاعر المحقِّق أحمد الجندي، وقد عايشه تلك السنوات في المجمع، فيقول: «ربما اعترف لك بالجميل إذا أنتَ سألته سؤالًا، ولو أنهكه هذا السؤال وأضناه بحثًا وتنقيبًا، وكنت أرى فيه مرجعًا يغنيني عن حمل الكتب وتقليب الصفحات، والتحديق في المراجع، فآتي إليه في الصَّباح - في غرفته المجاورة لغرفتي في دار المجمع - وقد سجلت ما أريد السؤال عنه

(١) ترجمته بقلمه.

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٣٠

في ورقة، وما أكاد أطل عليه حتى يقول: أهلًا وسهلًا، هل أتيت بالبضاعة؟ فإذا أمسك بالورقة قام لتوِّه إلى أجزاء المعاجم والكتب، ينثرها أمامه على المنصة، وكأنه يحفظها عن ظهر قلب، فيجيب عن أسئلتي الواحد تلو الآخر، وما يمضي وقت قصير حتى أكون قد أخذت الأجوبة من منبعها، وأعود مستغنيًا عن كل هاتيك الكتب إلى غرفتي، لأسجل ما أجابني عنه واثقًا مطمئنًا، فإذا مرَّ بي بعد أيام من الانقطاع عنه أطل عليَّ من باب الغرفة يقول لي: لم نرك منذ أيام؟ وكأنه يذكِّرني بضرورة تكليفه العمل، فقد كان العمل اللغوي أحبَّ شيء إليه في هذا العالم.

وكان كل عالم عنده معرَّضًا للخطأ، لأنه إنسان يخطئ ويُصيب، كما كان كل كتاب في رأيه غير خال من العيب، لأن الكمال لله وحده، وأذكر شاهدًا على هذا أنني شاهدتُه يراجع الجزء الأول من المعجم الكبير «تاج العروس» للزَّبيدي، وقد ملأ حواشيه بملاحظاته القيمة، وتعليقاته الرَّائعة، وبعد أن قرأ عليَّ شيئًا من هذا، قال: إن الزَّبيدي ذاته لم يسلم من الخطأ في هذا المعجم الرائع، ودلني على خطيئة تاريخية تورَّط بها هذا العالم الكبير، ثم التفت إليَّ يقول: لا تستغرب أن يقع الزَّبيدي في الخطأ، فقبله وقع في الأخطاء ابنُ منظور، وابن سِيده، والفَيْرُوزآبادي، والجَوْهري، والفيُّومي، إلى آخر هذه الأسماء التي خُلِّدت بمجهودها اللغوي، وبحثها العلمي والنَّحْوي»[1].

- ٢ -

ولم تشغل التنوخي همومه العلمية عما يقع في البلاد من أحداث، فكان يشارك فيها ولو بالكلمة، وهو الشاعر.

ففي ٢٢ نيسان عام ١٩٥٥م/ ١٣٧٤هـ اغتيل العقيد عدنان المالكي؛ نائب

(١) مجلة المعرفة، مقالة للأستاذ أحمد الجندي، العدد ٥٤، ص: ١٢٣ - ١٢٤

رئيس أركان الجيش السوري، في أثناء حضوره مباراة لكرة القدم في الملعب البلدي، وكان المالكي من أقوى ضباطه، وله فيه نفوذ كبير.

وقد كشفت التحقيقات عن دوافع عديدة لاغتياله، والصِّراع على سورية على أشدِّه وقتئذٍ، أهمُّها أن المالكي كان من الدَّاعين إلى الوحدة العربية، والمعارضين لخطط الدفاع الغربي، وساعد بما له من نفوذ في الجيش على إنقاذ سورية من حلف بغداد، ومهد الطريق لاتفاق الدفاع المشترك مع مصر في آذار ١٩٥٥م/ ١٣٧٤هـ، أي قبيل شهر من مصرعه، ومن ثم كان اغتياله صدمة كبرى للوطنيين[1].

وكحاله دائمًا في مثل هذه المُلِمَّات، يقف التنوخي الشاعر، ليعبر عن حزنه وفجيعته بهذا المصاب الجلل، وهو الثائر القديم، ويرثي المالكي بقصيدة يقول في مطلعها:

عَزِّ الشَّآمَ ونُحْ على عدنانِ ... فالمالكيُّ بها فتى الفِتْيانِ

لَهْفي عليه مُضَرَّجًا بدِمائِهِ ... بيدِ الرَّقيبِ الحارسِ الخَوَّانِ

ومنها:

هذا العقيدُ الرُّكْنُ هَدَّ بنَعْيِهِ ... رُكْني وهاجَ كوامِنَ الأشْجَانِ

لا عيبَ فيه سوى تمرُّدِهِ على الـ ... ـمُسْتعمرينَ بعَدْوَةِ الذُّؤْبانِ

ثَكِلَتْكَ أرْضٌ لم تلدْ لكَ ثانيًا ... ما كلُّ سيفٍ يُنْتضى بيَمَانِ

إنَّ اغتيالكَ حِطَّةٌ وخِيانةٌ ... وذريعةُ الأوْغادِ والذُّلَّانِ

إنَّ المشاريعَ التي أنْجَزْتَها ... للجيشِ باقيةٌ على الأزْمانِ

أصْلَحْتَ من فُرْسانِهِ ومُشاتِهِ ... ونَهَضْتَ بالآلاتِ والطَّيرانِ

---

(١) الصراع على سورية: ٣١٢ - ٣١٣

بِئْــسَتْ عُروبتُنــا إذا لم ننــتقِمْ من ذلكَ العُـدْوانِ بالعُـدْوانِ[1]

- ٣ -

وفي جلسة للمجمع العلمي العربي في ١١ كانون الأول سنة ١٩٥٧م/ ١٣٧٧هـ يعين التنوخي والشيخ محمد بهجة البيطار عضوين في لجنة المجلة والمطبوعات مدة أربع سنوات[2].

وفي شباط من عام ١٩٥٨م/ ١٣٧٧هـ تتم الوحدة بين مصر وسورية، فيرى المجمع العلمي العربي في دمشق، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، دمج المجمعين في مجمع واحد، على أن يكون له فرعان: فرع دمشق، وفرع القاهرة، وعلى أن تظل أعمال كل من الفرعين تسير كما كانت في السابق، وبذلك صار اسم المجمع العلمي العربي مجمع اللغة العربية بدمشق، ولكن مجلته ظلت محتفظة باسمها السابق لشهرته[3].

وفي نحو سنة ١٩٥٩م/ ١٣٧٨هـ يؤلِّف الجيش العربي الأول بدمشق لجنة علمية، لترجمة «المعجم الكندي العسكري»، يرأسها الأمير مصطفى الشهابي؛ رئيس مجمع اللغة العربية وقتئذ، وتضم في عضويتها التنوخي، وثلاثة من الضُّبَّاط العلماء.

ويشتمل المعجم في كلِّ قسمٍ من قسميه: (الفرنسي - العربي، والإنكليزي - العربي) على نحو خمسين ألف كلمة.

وتكمل اللجنة عملها، ويطبع المعجم بدمشق سنة ١٩٦١م/ ١٣٨٠هـ بتصدير المشير عبد الحكيم عامر، مقرونًا بأمره العسكري لجيش الجمهورية العربية المتحدة؛

(١) من قصيدته «يا أسفا على عدنان»، وهي في أربعين بيتًا، وقد نشرت في كتاب «المالكي رجل وقضية»: ١٨١ - ١٨٢

(٢) من أوراق التنوخي لدى المجمع.

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٥

الجنوبي والشَّمالي، ألَّا يعتمدا على غيره في تعليم الفنون العسكرية، والمراسلات، وسائر ما تحتاج إليه لغة الجيش العربي[1].

- ٤ -

على أن الإنجاز الأبرز للتنوخي في هذه المرحلة من حياته، هو تحقيقه لثلاثة كتب لغوية هامَّة، كان قد اكتشفها، للإمام العلامة حُجَّة العرب أبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، الشَّهيد في كائنة الرُّوم بحلب سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م[2]، وهي «الإبدال» و«الإتباع»، و«المثنَّى».

وكان أولها، وهو «كتاب الإبدال»، مما تشوَّفت إليه قلوبُ علماء اللغة، وتأسَّفت على ضياعه فيما ضاع من مؤلفات أبي الطيب، في النكبة الحلبية[3].

ويحدثنا التنوخي بشغف عن قصة اكتشافه له في مكتبة آل عابدين بدمشق؛ تلك الأسرة الدمشقية العريقة بالعلم والفضل، إذ ظهر منها مؤلفون ومفتون، كأبي حنيفة الأصغر الشيخ محمد أمين عابدين، الشهير بحاشيته «رد المحتار على الدر المختار»، وهي المرجع في المذهب الحنفي، وابنه محمد علاء الدِّين، مؤلف «قرة عيون الأخيار»، التي أكمل بها حاشية والده، ومحمد أبي الخير عابدين؛ مفتي الشَّام، وابنه الشيخ الطبيب محمد أبي اليُسْر عابدين؛ مفتي الجمهورية، وإليه آلت كتبُ آبائه، وفيها مخطوطاتٌ نادرة.

ففي زيارة للتنوخي للشيخ الطبيب محمد أبي اليُسْر عابدين ذات يوم من عام

---

(١) ترجمته بقلمه، ومجلة المجمع: مج٤٤/ ٢٣٦

(٢) انظر إن شئت عن تفاصيلها كتاب الكامل لابن الأثير: ٨/ ٥٤٠ - ٥٤٢

(٣) كتاب الإبدال: ١/ ٣

١٩٣٦م/ ١٣٥٥هـ، في منزله بحي سوق ساروجة، بصحبة عالم الهند العلامة الجليل الشيخ عبد العزيز الميمني الرَّاجكوتي؛ المُسْتهام بالعربية ومخطوطاتها، وكان في زيارته الأولى لدمشق، أطلعهما الشيخ على نوادر مخطوطات مكتبته، ومن بينها مجموعة لغوية، كُتِبَ على صفحة الطُّرَّة منها: «كتاب المُثَنَّى» لحُجَّة العرب أبي الطَّيِّب اللغوي[1].

وتاقت نفس التنوخي يومئذٍ إلى نسخه للاستفادة منه، وأجابه الشيخ محمد أبو اليُسْر إلى طَلِبته، لما كان بينهما من المحبة، وللمودة الموروثة من الآباء، على أن ينسخه في منزله، ولم يكن التنوخي يعلم أن في هذه المجموعة النفيسة «كتاب الإبدال»، لأبي الطيب كذلك، فشرع في نسخه مع الحواشي، وهو على الظن بأن هذه المجموعة لا تشتمل إلا على «كتاب المثنَّى»، ثم عارض نسخته بالأصل لتصحيحها.

وفي المجمع رجع التنوخي إلى فهارس المكتبات في العالم، عله يعثر على نسخة ثانية له، تسهِّل له معارضته وتصحيحه، فلم يجد له فيها ذكرًا، فنشر في مجلة المجمع خبر عثوره على نسخة من «كتاب المثنَّى» لأبي الطيب اللغوي[2]، لعل أحدًا يبشره بوجود نسخة ثانية له، ومرَّتِ الأيام وما من مُجيب، ومع عناء التدريس لم يستطع التفرغ لتحقيقه، فلبث الكتاب في مرقده من مكتبته سنين، حتى عام ١٩٥٣م/ ١٣٧٢هـ حين نعم براحة البال، ببلوغه سن التقاعد، فألح عليه المجمع بالشروع في تحقيقه، بعد أن قرَّر نشره ضمن مطبوعاته، فلبَّى التنوخي الرَّجاء، وهو أمنيته، وشرع في إعادة نسخه، تمهيدًا لتحقيقه، وتيسيرًا لطبعه، وما إن أتم منه أربعًا وعشرين صفحة، حتى وجد أربع أوراق بيض، والكلام بعدها في الإبدال، وهو يختلف عما في المثنَّى،

(١) تنظر ص ٧٢ من هذا الكتاب.

(٢) مجلة المجمع: مج ١٥/ ٤١٢

فخامره الظن بأنه إبدال أبي الطيب اللغوي، فرجع إلى باب الإبدال من «كتاب المُزْهر» للسُّيوطي، فألفاه ينقل أمثلة للإبدال من كتاب ابن السِّكِّيت وحده، ويذكر إبدال أبي الطيب، ونُتْفة من مقدمته، ولو أنه عكس الأمر لزال اللبس، وشفى ما في النفس، إذ النسخة التي بين يدي التنوخي فيها خروم، واحدها من أولها، أتى على مقدمته، فبقي التنوخي على ظنه الغالب بأنه إبدال أبي الطيب، لوجوده في مجموعة بخط واحد، وأولها «كتاب المثنَّى» له.

وبرغم ذلك جازف التنوخي، فنشر ترجمة لأبي الطيب في مجلة المجمع[1]، ثم نشر بابين منه: باب الغين والخاء، وباب الباء والفاء، وقابلهما بمثلهما من كتاب «القلب والإبدال» لابن السِّكِّيت، مدللًا بذلك على اطلاع أبي الطيب على كتاب ابن السكيت[2].

ثم شرع في تحقيقه، وهو في شك مريبٍ منه، إلى أن فرغ من جزئه الأول، وأخذ في كتابة التوطئة له، وفي ترجمة مفصلة لأبي الطيب، إذ لم يتوافر لديه من أدلة الإثبات، على ما بذل من جهد، ما يطمئنه إلى صحة نسبته إليه، وكيف لا يشك وفي الكتاب بتران من أوله وآخره، وخَرْمٌ في وسطه؟ ثم لاح له خاطر: لِمَ لا ينظر فيما نشر من حواشي الكتاب؟ فإن من عادة المحشِّين أن يناقشوا المؤلفين في بعض آرائهم. وعلى الفور رجع إلى تلك الحواشي يتقرَّاها، وبعضها بخط ابن الشِّحْنة، وبعضها الآخر بخطِّ ابن مَكْتوم القيسي؛ تلميذ أبي حيان، وكثيرٌ منها منقول من يواقيت أبي عمر الزَّاهد، ومن أمالي ثعلب، ومن العُباب والمحكم وغيره، مما يدلُّ على مبلغ اهتمام

(١) مجلة المجمع: مج ٢٩/ ١٧٥ – ١٨٣

(٢) مجلة المجمع: مج ٣٢/ ٤٤٥ – ٤٥٢

العلماء الثقات به، فما لبث أن صرَّح له الحق عن محضه، وتيقن أن الكتاب لأبي الطيب، إذ كان اسمه فاشيًا فيها، وزال من نفسه ذلك الارتياب كله[1].

ويشفق عليه أحد أصحابه مما يلقاه من العناء في تحقيقه، قائلًا له: «يا ليتك عُنيت بكتاب غير الإبدال المملوء بالغريب». ويجيبه التنوخي بثقة العالم: «إن الإبدال منه الغريب الوحشي كما تقول، ومنه المستعمل الإنسي المتفق على فصاحته باستعماله، وأنه لم يستعمل إلا لمكانه من الحُسْن، ثم إن الغريب كما قال أحد علمائنا: إن لم يُنفق الكاتب منه، فإنه يجب أن يُتعلم، ويُتطلَّع إليه ويستشرف، فربَّ لفظة في خلال شعر أو خطبة، أو مَثَل نادر أو حكاية، فإن بقيت مقفلة دون أن تفتح لك، بقي في الصدر منها حزازة تحوج إلى السؤال»[2].

ويفرغ التنوخي من تحقيق «كتاب الإبدال» في جزأيه، ويصدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦٠ - ١٩٦١م/ ١٣٧٩ - ١٣٨٠هـ، ويقدِّمُه هدية لغوية إلى فقهاء لغتنا العربية[3]، فهو أوسع ما ألف في الإبدال بعد كتاب ابن السِّكِّيت[4].

وإتمامًا للفائدة تحدَّث التنوخي في التوطئة له بحديثٍ ضافٍ عن الإبدال اللغوي والنَّحْوي وحدودهما، وبَسَط قواعد الإبدال اللغوي، وضرب الأمثلة عليها، ثم انتقل إلى الكلام على القلب الشعري، وعلى تعاقب الفصحى والعامية، وعلى التعاقب بين العربية واللغات السَّامية، وعلى تولد اللغات من اللثغات، وشرح

---

(١) كتاب الإبدال: ١/ ٥٧ - ٦٠، ٦٤، ٦٥

(٢) كتاب الإبدال: ١/ ٣٩ - ٤٠

(٣) كتاب الإبدال: ١/ ٣

(٤) كتاب الإبدال: ١/ ٥٤، مجلة المجمع: مج ٢٩/ ١٨٠

ذلك كله شرحًا علميًّا لا تكاد تقع على مثله عند المعنيين المتفرِّغين لمثل هذه البحوث، وانتقل بعد ذلك إلى بيان أثر قلة الإعجام في التصحيف، وإلى مباحث شتى تتصل بالترادف والتعاقب، ثم أخذ يقارن بين المتقدِّمين والمُحْدَثين في هذا العلم، ويرجِّح المُحْدَثين، وهو في خلال ذلك يسوق آراء في هذه الظاهرة اللغوية الصوتية: ظاهرة الإبدال، يحاول فيها أن يفيد من العلم الوضعي المستحدث اليوم في تعليل ما رواه العرب سماعًا، ولم يحكموا تعليله[1]، ثم شرع يبين مزايا الإبدال وفوائده، ولا سيما بما ينتفع به في المصطلحات العلمية[2].

وقد أعثره البحثُ على حروف بدلية، تنوب مناب ما نقص من حروف البترين الأول والثاني، فوضعهما في آخر الجزء الثاني، تحت عنوان: إكمال الإبدال، مرتبًا لها حسب الترتيب الهجائي الذي اتخذه أبو الطيب اللغوي في إبداله[3]، أما الخرم الأوسط، فقد أنزل حروفه منزلها من الجزء الثاني، واستعان بحواصر وفواصل للتفريق بين الكلامين الأصيل والدَّخيل[4]. ثم إنه استدرك من حروف الإبدال كثيرًا من الفوائت، حذا فيها حذو أبي الطيب، وميزها في الحواشي بنجم مع (ع)[5].

ويبدو أن التنوخي كان يَوَدُّ المُضي في العناية بالكتاب فوق ما فعل، فقال: «ولوددت مُهْلة من العمر لأشرح إبدال أبي الطيب اللغوي، أو فائت إبداله مما جمعتُه من كتب اللغة على طريقته، ممحِّصًا لها، وباحثًا عن أصولها وفروعها، وذاكرًا

(١) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٦١- ٩٦٢

(٢) كتاب الإبدال: ١/ ٤٠ - ٤٢

(٣) الإبدال: ٢/ ٥٤٣، ٥٨٥

(٤) الإبدال: ٢/ ٥٤٢

(٥) الإبدال: ٢/ ٧٠٧

آراء فقهاء اللغة فيها من المتقدِّمين والمُحْدَثين»[1].

* * *

واتفق صدور الجزء الأول من كتاب الإبدال سنة ١٩٦٠م/ ١٣٧٩هـ مع زيارة العلامة عبد العزيز الميمني؛ صديق التنوخي الحميم، لدمشق للمرة الرابعة[2]، بدعوة من وزارة الثقافة، وهي زيارتُه الأخيرة لها.[3]

وكان الميمني قد زارها للمرة الثانية سنة ١٩٥٦م/ ١٣٧٦هـ[4]، ويومها أنشد للتنوخي:

هنا قبلَ عشرينَ كُنَّا التقينا فهل نلتقي بعد عشرين عاما[5]

وقُدِّر للصديقين أن يلتقيا بعد سنتين، في زيارة الميمني الثالثة لدمشق سنة ١٩٥٨م/ ١٣٧٧هـ، وكان قلب الميمني يخفق بحبِّ دمشق وأهلها، وبادلته دمشق المحبة والوفاء[6]، ففي غوطتها الغنَّاء كانا يتنزهان، وعلى ضفاف برداها يجلسان، وأمام ناظريهما الرَّبوة التي هام الميمني بحبها، فكان لا يذكرها إلا بصفتها التي وصفها الله تعالى بها: ﴿رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[7]، يتجاذبان أطراف الحديث عن الشِّعْر والأدب والمخطوطات، ويتفكهان بروح أخوية صافية، وكان الميمني، وهو يستمتع بهذا المنظر

(١) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٦٢

(٢) وفي هذه الزيارة أجاز لأستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ، برواية ما يرويه عن شيوخه، تنظر الإجازة بخط الميمني في مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٣٤٠

(٣) مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٧٢

(٤) مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٧٠

(٥) إشارة إلى لقائه التنوخي سنة ١٩٣٦م، ينظر ص ٧٢ من هذا الكتاب، وأوراق التنوخي لدى المجمع.

(٦) مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٧١، ٢٥٧

(٧) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠

الجميل، يترنَّم ببيتٍ من الشِّعْر مع تغيير يسير في ألفاظه ليلائم معناه:

شـــيوخُ دمـــشقَ وشُـــبَّانُها أحـــبُّ إليَّ مـــن الغاليـــه[1]

وكان التنوخي كعادته يرتجل الشِّعْر في أحاديثه، فارتجل للميمني في إحدى هذه الجلسات:

اللهُ يَعْلَـــمُ يـــا عبـــدَ العزيـــزِ بـــما لكُـــمْ بقلبـــيَ مِـــنْ وُدٍّ وإجـــلالِ

أُحِـسُّ بالفَـضْلِ في غـيري فأَعْرِفُـهُ مـا يُنْكِـرُ الفَـضْلَ إلا كـلُّ خَتَّـالِ

إنَّ الـسَّنابلَ حـين الحَـبُّ يملؤهـا تَخْنِي الرُّؤوسَ ويعلو الفارغُ الخالي[2]

وفي تلك الزيارة سَطَّر التنوخي أطرافًا من حديث الميمني عن المخطوطات المغربية[3].

* * *

لا شك أن هذا اللقاء الأخير بين الصديقين أثار ذكرياتِهما عن تلك الزيارة الميمونة للشيخ محمد أبي اليُسْر عابدين، قبل أربعٍ وعشرين سنة، ووقوفهما معًا على «كتاب المثنَّى» لأبي الطيب اللغوي، وطوال تلك الأعوام كان الميمني يتتبَّعُ أخبار صديقه التنوخي، وبحثه الدائب عن نسخ أخرى له، ثم اكتشافه من بعد لما تضمه هذه المجموعة من كتب لأبي الطيب، كان يُعتقد أنها ضاعت فيما ضاع من آثاره، فيحثُّ التنوخي على نشرها، قائلًا له: ليس لنشر هذه المجموعة وتحقيقها أحد غيرك ممن توافرت له شرائط النشر العلمي. وها هو الآن يقرأ بشغفٍ في «كتاب الإبدال» ما

(١) مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٧٧ – ٢٧٨

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٣٣

(٣) مجلة المجمع: مج ٣٣/ ٦٨٣ – ٦٨٦

خطته أنامل أخيه العز التنوخي، المفتون باللغة وفنونها وشواردها، كما وصفه، فيمسك بالقلم، ويكتب لمجلة المجمع تقريظًا له، يقول فيه: «كتاب الإبدال من خير ما نُشِرَ في هذه العصور المتأخرة التي قلَّت فيها الرغبة الصادقة في درس اللغة، والبحث عن فرائدها وشواردها، ذلك أنه ليس لها مغانم مادية من ورائها، ولكم بحث الأستاذ التنوخي في الكتاب عن شواهد الإبدال التي بلغت نحو ست مئة شاهد من كلام العرب، ولا يوجد كثيرٌ منها في المصادر المعروفة، وتمكن بعد صدق البحث والتنقيب من عزوها إلى قائلها، واهتم بتفسير غوامض التعبير، واستدرك من حروف الإبدال كثيرًا من الفوائت التي عثر عليها في أمهات كتب اللغة مما زادت به فائدة الكتاب، ثم نشر بأمانة جميع حواشيه وطرره اللغوية المروية عن أئمة اللغة، أو المنقولة عن كتبهم بخطوطهم، وقد ضاع أكثرها. أجل ما كان ليطلعنا على ذلك إلا مَنْ ذاق لذة العلم، وألِفَ الصَّبْرَ على مشاقِّه، لذلك أهنئ العز التنوخي على عمله المبرور، وعلى ما كابده في تحرير كتابه وتصحيحه، والنَّشْرُ العلمي لا يضطلع به إلا من رزقه الله فهمًا في اللغة دقيقًا، وطبعًا عربيًّا صحيحًا، وكان له عناية فائقة بتمحيص المسائل، وتحقيق نصوصها، ثم أوتي صبرًا كصبر أيوب مما اجتمع للعز التنوخي[1]».

- ٥ -

وثاني الكتب اللغوية الهامة التي اكتشفها التنوخي لأبي الطيب؛ هو «كتابُ المثنَّى»، والمراد به ما دلَّ على اثنين مما تكلم به عربُ الجاهلية، أو نزل به القرآن المبين، أو رواه الحديث، أو ورد في كلام صدر الإسلام، ويعدُّ هذا المثنَّى من لطائف

(١) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٦٧٩ - ٦٨٠

العربية، وحُسْن بيانها[1].

وكان التنوخي قد نشر في مجلة المجمع - كما ذكرنا - خبر ظفره بهذا الكتاب[2]، ورغب يومئذٍ إلى أصدقائه العلماء أن يبحثوا معه عن نسخة أخرى له في خزائن المكتبات في العالم، فكانت الأجوبة تأتيه أن النسخة الدمشقية التي عثر عليها، هي النسخة اليتيمة الفريدة للكتاب في العالم[3]، فتوفر على تحقيقه، مستدركًا فيه على المؤلف ما فاته من المثنَّيات التي ذكرها ابن السكيت في «المثنَّى والمكنى»، ونقل أكثرها الإمام السيوطي في «المُزْهر»، أو التي ذكرها ابن سِيدَه في «المُخَصَّص»، والتي أوردها المحبِّي في «جنى الجنَّتين»، أو ما التقطه من دواوين اللغة والمجلات، ورمز لها بحرف(ع). ويكون التنوخي بذلك قد يسَّر لعلماء اللغة الاطلاع على أكبر عدد مما تفرَّق من المثنيات التي لا نظائر لها في سائر اللغات[4]. ولما فرغ منه نشره في مجلة المجمع[5]، ثم صدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦٠م/ ١٣٨٠هـ.

* * *

وكان «كتاب الإتباع» هو ثالث هذه الكتب، ويعيب نسخته التي عثر عليها خَرْمٌ في أولها، ذهب بمطلع خطبته، ولم يبق منها إلا الثلث الأخير، وقد حاول التنوخي جاهدًا أن يحصل على نسخة ثانية له تكمل الخرم، فلم يظفر بها، فآثر تحقيقه على ما به حتى فرغ منه.

---

(١) كتاب المثنى: ٨

(٢) مجلة المجمع: مج ١٥/ ٤١٢

(٣) كتاب المثنى: ٤ - ٥

(٤) كتاب المثنى: ٦

(٥) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٤٢١- ٤٦٥، ٦٠٩- ٦٤٦

ووطَّأ له، كعادته في تحقيقاته، بمقدِّمة ضافية تحدَّث فيها عن تعريف الإتباع عند علماء العربية وتقسيمه، ولعل من أوجز ما عرفوه به، وإن لم يكن جامعًا، قول ابن فارس في كتابه«فقه اللغة»: «هو أن تتبع الكلمةُ الكلمة على وزنها وروِيِّها إشباعًا وتوكيدًا». أي أن يتبع الثاني الأول على وزنه وروِيِّه، كقولهم: حَسَنْ بَسَنْ، فهما على وزن واحد، وروِيُّهما نون مقيَّدة. ثم بيَّن بتفصيلٍ مذهب أبي الطيب اللغوي في تقسيم الإتباع في الأسماء وفي الأفعال، والفرق بين الإتباع والتوكيد، والإتباع والترادف، والإتباع والازدواج، ثم ذكر في كلمة لطيفة الإتباع في العامية الشامية، كقولهم في الدار الفسيحة: سيَّاح نيَّاح، فكأن أهله يسيحون فيه لسعته، وتنيح لذلك أغصان شجره، والنَّيَحان تمايُل الأغصان، ثم يضيف انسجامًا مع منهجه في الاستفادة من العامية، قائلًا: «ولو أنَّا تتبَّعنا كلام العوام لوجدنا كثيرًا من الكلمات الإتباعية، ولقد آن لنا أن ندرس لغتنا العامية دراسة علمية»، ويختم هذه المقدمة النفيسة بذكر ما وقف عليه من شوارد زوائد من حروف الإتباع[1].

وينشر الكتاب أولًا في مجلة المجمع[2]، ثم يصدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦١م/ ١٣٨٠هـ.

وبتحقيق هذا الكتاب ونشره، يكون التنوخي قد أتم تحقيق ما اشتملت عليه هذه المجموعة اللغوية النادرة الفريدة لأبي الطيب اللغوي، التي عثر عليها في مكتبة آل عابدين، ولحبِّه له، وأخذه العلم من كتبه هذه السِّنين الطوال، وتحمُّلها بالوِجَادة منه، عدَّ التنوخي نفسه من تلاميذه، على ما يباعد بينهما من قرون[3].

---

(١) كتاب الإتباع: ٣ – ١٨، وانظر ص ٦٨ من هذا الكتاب.

(٢) مجلة المجمع: مج ٣٦/ ٦٨ – ١٠٢، ٢٤٨ – ٢٨٢، ٤٤٤ – ٤٦٨ ٦٢٩ – ٦٦٢

(٣) كتاب الإبدال: ج١/ ٤٦

وتشاء المصادفة الطيبة بعد سنين أن يُعثر على نسخة أخرى من «كتاب الإتباع»، محفوظة بمدينة الرباط في خزائن كتبها العامرة، ويقوم معهد المخطوطات العربية بالقاهرة بتصويرها، ويرسل نسخة من صورتها إلى مجمع اللغة العربية بدمشق، ويقف التنوخي على هذه النسخة، فإذا بها تمتاز بكمال خطبتها، فيبادر إلى نشر مطلع خطبة الكتاب منها في مجلة المجمع[1]، مكملًا بذلك الخرم الذي وقع في النسخة الدمشقية[2].

* * *

وكان صدق تحقيقه «كتاب الإبدال»، قد اقتضاه أن يطلع على جميع ما أُلِّف أو كُتِبَ في الإبدال، وفي جملتها «كتاب الإبدال والمعاقبة والنظائر» للإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزَّجَّاجي، المتوفى سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٩م، ومنه نسخة نادرة في الآستانة، منسوخة عن أصل عليه سماع أبي محمد عبد الله بن محمد بن حَرْب الخطَّابي النَّحْوي الكوفي من مؤلفها، وكان معهد المخطوطات العربية بالقاهرة قد صوَّرها، وأرسل نسخة عنها للمجمع، إلا أن فيها على نُدْرتها من الأخطاء اللغوية والنحوية ما يدلُّ على أن ناسخها كان ضعيفًا في علمه ولغته.

فعكف التنوخي على تحقيقه، وقد عانى ما عاناه في قراءته وتقويم عبارته، استكمالًا للموضوع، إذ فيه على إيجازه من حروف الإبدال ما ليس في غيره، ولقلَّما أغنى كتاب عن كتاب[3]. ولما كان الزجاجي ألَّفه للمبتدئين، حرص فيه كل الحرص

---

(١) مجلة المجمع: مج ٤١/ ٣٧٤ - ٣٧٦

(٢) ثم يعيد المجمع نشر الكتاب مصورًا، ومضمنًا مطلع خطبة الكتاب المنشورة في مجلة المجمع، مع تصحيحات وملاحظات أبداها أستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ، فاسْتُدركت جملة منها في متن الكتاب، وأُثبت في ختامه ما لم يُستطع إنفاذه منها.

(٣) الإبدال والمعاقبة والنظائر: ٣، ٦، ١٢، ١٤

على الإيجاز ليسهِّل على طالب اللغة المبتدئ حفظه، ومن أجل ذلك حذف كثيرًا من الشواهد، واقتصر على حروف الإبدال[1]، ولما فرغ التنوخي منه نشره في مجلة المجمع[2]، ثم صدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦٢م/ ١٣٨٢هـ[3].

* * *

وفي سنة ١٩٦١م/ ١٣٨١هـ انتخب التنوخي عضوًا في المجمع العلمي العراقي[4]، وكان قد أنشئ سنة ١٩٤٧م/ ١٣٦٦هـ[5].

وكان قد نَعِمَ بعضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة، بعد توحيد المجمعين سنة ١٩٦٠م/ ١٣٧٩هـ[6].

- ٦ -

وكانت وزارة الثقافة قد دعت الميمني لزيارة دمشق سنة ١٩٦٠م/ ١٣٨٠هـ[7]، لتستأنس برأيه، وتفيد من خبرته في معرفة المخطوطات العربية، وأي المخطوطات أولى بالنَّشْر[8]، فكتب لمديرية إحياء التراث القديم فيها قائمة بأسماء ما في خزائن استانبول من المخطوطات النفيسة، ومنها نسخة فريدة من كتاب «مقدِّمة في النحو»،

(١) الإبدال والمعاقبة والنظائر: ٧، ١٠، ١٣

(٢) مجلة المجمع: مج ٣٧/ ٢٤٠- ٢٧٥، ٤٢٨- ٤٧٥، ٦٠٢- ٦٣٨

(٣) ثم أعادت نشره دار صادر في بيروت سنة ١٩٩٣م/ ١٤١٢هـ.

(٤) ترجمته بقلمه.

(٥) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٣١

(٦) ترجمته بقلمه، ومجلة المجمع: مج ٤٢/ ١٩٠

(٧) مجلة المجمع: مج ٣٢/ ٦٨٣، ومج: ٣٥/ ٥١٥، ومقدمة في النحو: ٣

(٨) مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٧٢

لخلف بن حيَّان الأحمر البصري، المتوفى سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م، وهو من أقدم ما أُلِّفَ من مختصرات النحو، جمع فيه خلف الأحمر للمبتدئين أصول النحو؛ أي مبادئه كلها، وأصلها محفوظ في جملة رسائل في مكتبة شهيد علي بمتحف الآستانة، نسخت سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م.

وقد رغب الميمني أن يعهد بتحقيقها إلى صديقه التنوخي، فصورت مديرية إحياء التراث القديم صورة عنها، وأعطتها للتنوخي قبيل سفره إلى القاهرة لحضور المؤتمر الأول لمجمع اللغة العربية سنة ١٩٦١م/ ١٣٨١هـ.

وفي القاهرة شرع التنوخي في قراءتها، وإنعام النظر في عباراتها، وفي شرح ما غَمُضَ منها، وإصلاح ما فسد على حين غفلة من الناسخ؛ إذ ضبطُها كخطها غير صحيح بجملته، وهو يدلُّ على أن ناسخها كان في العربية ضعيفًا، وقد حاول التنوخي أن يؤيد ما فيها من مسائل النحو البصرية بما نقلته عن نحاتهم.

وواجهت التنوخي مشكلة التثبت من صحة نسبتها إلى خلف الأحمر، إذ هي نسخة فريدة يتيمة، ليس لها أختٌ في مكتبات العالم، وليس لها من أدلة العزو ما يُعتمد عليه، فيكون مُسَلَّم الثبوت.

بيد أن التنوخي وإن فاته السَّند الصَّاعد إلى مؤلفها، لم يفته النظر إلى متنها، فإن لغتها على الظن الغالب هي لغة عصر خلف الأحمر وسيبويه والخليل، واصطلاحاتها بصرية، ومسائلها النَّحْوية على مذهب البصريين، وبعضها على مذهب يونس بن حبيب؛ شيخ خلف الأحمر، أو مما ذهب خلف إليه، كلُّ أولئك مما يُستأنس به في عَزْوِ هذه المقدِّمة لخلف الأحمر.

ورأى التنوخي أن من تمام التحقيق وطمأنينة العلم، أن يعرض هذه المقدمة على

بعض أصدقائه بالقاهرة، ممن قضى حياته في درس النحو وتدريسه، فمحَّص حقائقه، ووقف على أغراضه، ومن هؤلاء الأستاذ الدكتور محمد الفحَّام، والأديب البارع أحمد حسن الزيات، والنَّحْوي الكبير الشيخ محمد علي النجار، والعلامة المحقق محمد محيي الدِّين عبد الحميد، وكلهم وافقه القول بأن ليس ما يمنع أن تكون هذه المقدِّمة النَّحْوية لخلف الأحمر، كما جاء في صفحة العنوان من النسخة الخطية، ولا ينفي هذا أن يكون بعض ألفاظها مما يستعمله الكوفيون، فإن شيوخ البصرة والكوفة في عصر خلف الأحمر قد استقوا جميعًا من منهل القرن الأول.

ومن ثَمَّ شرع التنوخي في تتمَّة تحقيقها، وشرحها شَرْحًا وجيزًا، سهل العبارة، واضح الإشارة للشُّدَاة المبتدئين، وبتواضع العالم قال في خاتمتها: «ولا أدعي لمثل هذا العمل الذي لا يبلغ إلا بشِقِّ الأنفس أني بلغت منه ما أريد، ولا أني قاربت فيه الكمال، ولكني أقول مع ذلك إني قد بذلت له ما أمكن من جُهْد ووُجد، وقلَّبْتُ فيه ما استطعت من وجوه الرأي بعد أن استأنست بآراء النحاة المعاصرين» [1].

وصدرت هذه المقدمة عن وزارة الثقافة، مديرية إحياء التراث القديم بدمشق، سنة ١٩٦١م/ ١٣٨١هـ.

وممن أثنى على عمله في هذا الكتاب العلامة الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في مقالته «نظرة في كتاب مقدمة في النحو»، قال فيها: «نشره وعلق عليه الأستاذ المحقق عز الدين التنوخي؛ عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، ذو المباحث الجمة القيمة، وإنه كتاب نادرٌ في عصره، ومثالٌ لطور من أطوار التآليف النَّحْوية، فشكرًا للأستاذ التنوخي على ما أحيا، وعلى ما غذَّى وأغنى، كدأبه المشهور

(١) مقدمة في النحو: ٣ - ٩، ١٠٠

في كل علمه المشكور»، وقد وافق التنوخي في صحة نسبته إلى خلف الأحمر، ثم ذكر ما لاح له من معانٍ عند مطالعته له[1].

وتعقب التنوخي ما أورده العلامة ابن عاشور بمقالة بعنوان «نظرة على نظرة»، صدَّرَها بقوله: «وأشهد أن بحث الأستاذ لجليل، وأني ما رأيت من أمثاله في المشرق والمغرب إلا القليل، وقد مضى على نشري لهذه المقدمة النحوية نحو سنتين لم أسمع فيها عنها إلا الثناء، ولم أر من اهتم بها، أو شاركني في تقويم نصوصها إلا الناقد الجِهْبِذ ابن عاشور، ولولا اهتمامه هذا لما وجدت بَرْد السرور وثلج الصدور، ولكان حزني طويلًا لخلوِّ أبناء عصرنا من العرب ممن يهتم من تراث السَّلف بأمثال هذه المقدمة الخطيرة. ولقد كان سروري عظيمًا بتأييده لنسبة هذه المقدمة إلى خلف الأحمر». ثم ذكر التنوخي ما يخالف فيه العلامة ابن عاشور، مع اعترافه أن له نظرات مصيبة أثلجت صدر الحقيقة، متمنيًا أن يرسل الله من يلقي نظره الثاقب على هذه المقدمة كما فعل الأستاذ العلامة ابن عاشور، فإن كثرة التأمل والنظر مما يحل المُشْكل، وينير الغامض، ويبعث الطمأنينة في القلوب، على حدِّ تعبيره[2].

- ٧ -

وكان التنوخي في ربيع حياته، قد اطلع على «كتاب وصف المطر والسَّحاب وما نعتتْه العربُ الرُّوَّاد من البقاع» لإمام البصريين في زمانه، الشيخ أبي بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْد الأزْدي، المتوفى سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م، وهو من ذخائر المكتبة الظاهرية، ويضم ثلاثين خبرًا، منها سبع وعشرون في المطر والسحاب، الأول منها

(١) مجلة المجمع: مج ٣٨/ ٥٧٦- ٥٩٠

(٢) مجلة المجمع: مج ٣٩/ ٢٤٠ - ٢٥٣

في نعت النبي ﷺ المبين للسحاب، وثلاثة أخبار في الرُّوَّاد، وتمنى يومئذ أن يوفق إلى نشره، ولكن عاقت دون ذلك عوائق[1]، وقد حمله تقديره للكتاب، ولما يتضمن من وصف بارع للسَّحاب، على التعريف به من بعد في مجلة المجمع[2].

ففي وصف الأعراب للسحاب بيانٌ وإتقان - كما لاحظ التنوخي - ولم يكن ذلك عسيرًا عليهم، ففي مظامئهم، وليس بينهم وبين السماء حجاب، كانوا يكثرون بطبيعتهم وحاجتهم إلى الغيث من التحديق في السماء، فأمسوا بطول الملاحظة والتجريب يميزون بين البرق الخُلَّب والبرق الصادق المغيث، وبين العارض الممطر الذي يُتْرِع الغُدران والكهام الذي لا يبلُّ القيعان، وكان التنوخي قد رأى أيام إقامته بالجوف هاربًا من الأتراك الاتحاديين، أن صبيان الأعراب لكثرة ما يسمعون من آبائهم من أوصاف السحب قد حفظوا عن ظهر قلب تلك العبارات الوصَّافة، بل إن أعراب بوادي الشام ونجد والعراق واليمن وعُمان في زماننا، لا يزالون من أبرع الناس في معرفة أنواع السحاب [3].

فلما رغب إليه المجمع بتحقيق هذا الكتاب، شرع فيه التنوخي، معتمدًا على نسخة الظاهرية، وهي من أجَلِّ نسخه صحة وضبطًا وإتقانًا، فقد نسخها الحسين بن علي بن محمد بن علي الكاتب سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، عن نسخة مقروءة على الإمام أبي سعيد الحسن بن عبد الله السِّيرافي، المتوفى سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م؛ تلميذِ ابن دريد، وفيها خطه، وخبر قراءتها عليه، والظن الغالب أن ابن السِّيرافي قرأ هذا الكتاب على

(١) كتاب وصف المطر والسحاب: ٧ - ٨

(٢) مجلة المجمع: مج ٣٧/ ٣٥٧ - ٣٥٩

(٣) كتاب وصف المطر والسحاب: ٦

شيخه ابن دريد مع ما قرأه عليه من كتبه.

ومما يدل على جلالة هذه النسخة أن على صفحة العنوان إجازة بخط الإمام علي بن عبد الرحيم السُّلَمي؛ المعروف بابن العصَّار، المتوفى سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م، وكانت قد انتهت إليه في زمانه رياسة معرفة اللغة والعربية، وبه تخرَّج أمثال الإمام أبي البقاء العُكْبَري؛ النَّحْوي المشهور، المتوفى سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م.

ويبدو أن ابن العَصَّار قرأ هذا الكتاب بهذه النسخة على شيخه أبي منصور موهوب بن أحمد الجَوَاليقي، فإن كثيرًا من التصحيح والتوضيح في هوامش هذه النسخة مبدوءة بعبارة: قال موهوب، وبخط وحبر واحد.

ومن الكتاب نسخة ثانية في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، لم يتسنَّ للتنوخي الاطلاع عليها، لتبدل الأحوال بين سورية ومصر بالانفصال، الذي لا شك ساء التنوخي مساءة بالغة، إذ كان يعدُّ جمال عبد الناصر رائد العروبة الأكبر في هذا العصر[١].

وكان التنوخي قد جمع في آخر الكتاب، إتمامًا للفائدة، مختاراتٍ من أخبار الأعراب وأقوالهم في وصف الغيث والسحاب، ثم شرح ما غفل المصنف أو الناسخ عن شرحه من غريب اللغة.[٢]

ونشر الكتاب في مجلة المجمع[٣]، ثم صدر ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٣م/ ١٣٨٢هـ.

---

(١) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٤٨٣

(٢) كتاب وصف المطر والسحاب: ٦ – ٩

(٣) مجلة المجمع: مج ٣٨/ ٨٨– ١١٩، ٢٧٨– ٣٠٩، ٤٢٧– ٤٥١، ٦١٠– ٦٣٨

وفي خطوة لم يمهد لها التنوخي ينعطف إلى الاهتمام بتراث سلطنة عُمان، ويتصدَّى لتحقيق الجزء الثالث من «شرح الجامع الصَّحيح مُسْند الإمام الرَّبيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي الأزْدي».

ومع أن التنوخي لم يقف للفراهيدي على ترجمة، فقد استظهر أنه بدأ بجمع مسنده في صدر المئة الثانية، وأنه أطلع شيخه أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، المتوفى سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م، على مسنده، وقد أدرك الفراهيدي أبا الشَّعثاء جابر بن زيد الجوفي، المتوفى سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م؛ وهو من أشهر تلاميذ الصحابي الجليل عبد الله بن عباس، وجابر هذا أخذ عنه عبد الله بن إباض المرِّي التميمي، فهو أصل المذهب الإباضي في عُمان والمغرب.

وشارح هذا المسند هو الشيخ نور الدين أبو محمد عبد الله بن حُمَيِّد بن سلُّوم السَّالمي الضَّبِّي، المتوفى سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، وإليه انتهت في عصره رياسة العلم في عُمان، ظهر ذلك في تآليفه الجمَّة في مختلف الفنون الشَّرْعية والعربية، مع التحقيق في مسائلها، والإجادة في تأليف كتبها ورسائلها، ومات ولما يبلغ الخمسين من عمره.

وهو في شرحه هذا - كما ذكر التنوخي - واسع الاطلاع، وأبحاثه فيه تدل على اعتدال في التحقيق، وبعد عن التعصب، فكثيرًا ما ينقل عن العلماء المخالفين: كالحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة، ويستشهد بأحاديث الشيخين، وأئمة الحديث كأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وغيرهم من أهل السنة والجماعة[1].

(١) انظر مقدمة تحقيق التنوخي لهذا الكتاب.

وطبع الكتاب في دمشق بالمطبعة العمومية سنة ١٩٦٣م/ ١٣٨٣هـ.

* * *

وأشرف التنوخي على طبع رسالة للسالمي أيضًا، هي «تلقين الصبيان لمدارس عُمان»، وطبعت في دمشق بالمطبعة العمومية سنة ١٩٦٣م/ ١٣٨٣هـ[١].

- ٩ -

وفي أواخر سنة ١٩٦٣م/ ١٣٨٣هـ يُقعد التنوخي مرضٌ عارض، يحول بينه وبين حضور جلسة انتخاب الأمير مصطفى الشهابي لرياسة مجمع اللغة العربية بدمشق لدورة ثانية، فيرسل من مستشفى المواساة كتابًا يقول فيه:

«يسوءني أن لا أحضر جلسة انتخاب الأمير مصطفى الشهابي لرياسة المجمع العلمي، لأضم صوتي إلى أصوات إخواني الأعضاء الكرام في انتخاب رئيس رفع رأس المجمع العلمي في القاهرة وغيرها من أقطار العروبة.

فأرجو الرَّجاء كله أن تقبلوا بصوتي هذا إذا نقصت الأصوات، أو نقص النصاب، وقد كان هذا مما جرى عليه المجمع العلمي في ظروف مماثلة. تحياتي لإخواني الأعضاء، وتهنئتي المقدمة للمجمع العلمي بانتخاب رأسه العالم العامل، وللأمير الفاضل بثقة إخوانه به، وتقديرهم لفضائله ومزاياه»[٢].

* * *

وفي الأول من شهر تشرين الثاني ١٩٦٤م/ ١٣٨٤هـ، يعقد مجلس المجمع اجتماعًا برياسة الرئيس الأمير مصطفى الشهابي، ويحضرها من أعضائه، الدكاترة:

(١) ذكر ذلك التنوخي في مقدمة تحقيقه لشرح الجامع الصحيح.

(٢) من أوراق التنوخي لدى المجمع.

أسعد الحكيم، وحسني سبح، وصلاح الدين الكواكبي، وشكري فيصل، وعدنان الخطيب، والأساتذة: عز الدين التنوخي، ومحمد بهجة البيطار، ومحمد المبارك، وجعفر الحسني؛ أمين المجمع، ويتم في هذا الاجتماع انتخاب الأستاذ عز الدين التنوخي بالأكثرية المطلقة نائبًا لرئيس المجمع لأربع سنوات[1].

- ١٠ -

واستكمالًا لاهتمام التنوخي بتراث سلطنة عُمان، يصحِّح ويعلق على كتاب «جلاء العمى شرح ميمية الدِّما» للشيخ خلفان بن جميّل السّيابي السمائلي العُماني؛ من علماء عُمان المعاصرين، ويطبع في دمشق سنة ١٩٦٤م/ ١٣٨٣هـ، ثم يحقق ديوان شاعرها أبي بكر أحمد بن سعيد الستالي، ويطبع بدمشق،[2] ثم يثني بديوان السلطان سليمان بن سليمان النبهاني، المتوفى نحو سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٥م، ويطبع بدمشق سنة ١٩٦٥م/ ١٣٨٤هـ[3]، ويحقق أخيرًا فتاوى فقيهها الشيخ عيسى بن صالح الحارثي، المتوفى سنة ١٩٤٦م/ ١٣٦٥هـ، وقد جمعها ورتبها الشيخ حمد ابن الشيخ نور الدين عبد الله بن حُمَيِّد السَّالمي بعنوان «خلاصة الوسائل في ترتيب المسائل»، ويطبعها في دمشق سنة ١٩٦٥م/ ١٣٨٤هـ.

* * *

وكانت جمعية الرابطة الأدبية قد نشرت ما أملاه الأشنانداني من معاني الشعر

(١) من أوراق التنوخي لدى المجمع، ومجلة المجمع: مج ٤٢/ ١٨٩

(٢) أعيد طبع ديوان الستالي في سلطنة عُمان سنة ١٩٩٢م/ ١٤١٢هـ، وهي الطبعة التي تسنى لي الوقوف عليها، ولم تذكر فيها سنة وفاته.

(٣) عرف به الأستاذ أحمد الجندي في مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٦٦٧ - ٦٦٨.

فحسب، كما أسلفنا[1]، وظلت الحاجة إلى الكتاب حاقة لفهم أبيات المعاني، وقد سأل التنوخيَّ كثيرٌ من الأدباء العلماء، ومنهم العلامة عبد العزيز الميمني، إعادة نشر الجزء الأول الذي نشرته الرابطة مع الجزء الثاني الباقي، فعزم المجمع على نشره تامًّا نشرة علمية[2]، وعكف التنوخي على تتمة تحقيقه، وإعادة النظر في أصله.

ووجد التنوخي في آخر المخطوطة الدِّمَشْقية لمعاني الشعر أوراقًا لعلها من كتاب «الترجمان» لأبي عبد الله المفجع، وهو في معاني الشعر كذلك، فنشر التنوخي منه هذه الأوراق التي تتضمن «في باب أنواع من الإعراب، أبيات معان مما غلَّط الأعراب فيها الأصمعي، أبيات خطَّأ فيها أبو نصر صاحب الأصمعي ابن الأعرابي» في مجلة المجمع، عسى أن يظفر به كاملًا، ويحققه[3].

وبقي التنوخي يعمل في تحقيق «معاني الشعر» إلى ما قبيل وفاته، ولم يقدر له أن يتمه، فقامت مديرية إحياء التراث القديم في وزارة الثقافة بدمشق باستكمال العمل ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، فخرَّجت شواهد، وشرحت مفردات، وأضافت تراجم فاتت التنوخي، واستكملت فهارس الكتاب، وأشرفت على طباعته، وحتى لا يختلط عملها بصنيع غيرها ذيلت كل ما كتبه التنوخي بحرف (ت)، وما جاء في طبعة أعضاء «الرابطة الأدبية» بحرف (ر)، وما أضافته المديرية بحرف (ع)[4]، وصدر ضمن مطبوعاتها سنة ١٩٦٩م/ ١٣٨٩هـ، وكتب على غلافه: حقق اللحق والذيل، وأعاد

---

(١) انظر ص ٥٢ من هذا الكتاب، وأعادت نشره سنة ١٩٦٤م/ ١٣٨٣هـ، دار الكتاب الجديد ببيروت، ووطَّأت له بمقدمة كتبها الدكتور صلاح الدين المنجد.

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٦٢

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٠/ ٦٢ – ٨٢

(٤) معاني الشعر: ١٤م

النظر في تحقيق الأصل عز الدين التنوخي، عضو المجمع العلمي العربي.

* * *

والكتاب الآخر الذي لم يُقدَّر للتنوخي أن يتمَّ تحقيقه، هو «الدَّلائل في غريب الحديث» لقاسم بن ثابت السَّرَقُسْطي،المتوفى سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٥م[١]، فقد عرَّف به التنوخي في مجلة المجمع في مقالته «من ذخائر قبة الملك الظاهر» التي تحدَّث فيها عن ثلاث مخطوطات نوادر، كان الدلائل إحداها، وفيها السِّفْر الثاني منه، ويبتدئ بأحاديث الإمام علي بن أبي طالب، وكان العلامة الميمني قد حثه على نشره[٢]، حين أتيح له أن يطالع في الكتاب في زيارته لدمشق سنة ١٩٣٦م/ ١٣٥٥هـ[٣]، ثم عاد التنوخي، والعود أحمد، فأفرد للحديث عنه مقالة ضافية، نشرها في مجلة المجمع في مطلع عام ١٩٦٦م/ ١٣٨٥هـ[٤]، وكان قد حفزه إلى الكتابة عنه مرة أخرى عثوره على نسخة خطية ثانية للسفر الثاني من كتاب الدلائل في الخزانة العامة في الرباط، وكان سروره بها عظيمًا، فقد وجد فيها سدًّا لنقص المفقود أو جلّه من نسخة الظاهرية، أما سِفْره الأول، وهو يشتمل على أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى آثار أبي بكر وعمر وعثمان من الراشدين، فقد أخبره صديقه الحميم العلامة

(١) اختلف قديمًا فيمن ألف كتاب «الدلائل في غريب الحديث»، هل هو قاسم بن ثابت بن حزم السَّرَقُسْطي أم ابنه ثابت بن قاسم، أم الجد ثابت بن حزم؟ وقد رجح التنوخي أنه قاسم بن ثابت، على ما قال الإمام ابن حزم، وهو ما أثبته الدكتور شاكر الفحام في وصفه النفيس لمخطوطات الدلائل، وقد نشره في مجلة المجمع: مج ٥١/ ٢٣٢ – ٢٩٤، ٤٨١ – ٥١٧

(٢) مجلة المجمع: مج ٣٧/ ٣٦٢ – ٣٦٦

(٣) مجلة المجمع: مج ٥١/ ٢٦٣، مج ٥٤/ ٢٦٣ – ٢٦٤

(٤) مجلة المجمع: مج ٤١/ ٣ – ٢٠

عبد العزيز الميمني ألا وجود له في خزائن الأرض، ولا يعلم مستقره إلا الله. ويبدو أن التنوخي كان ينتظر العثور على نسخة ثالثة، لعلها تكون النسخة الكاملة له، قبل الشروع في تحقيقه، فقد قال: «الإبطاء مع التمام خير من العجلة مع النقصان»[1]. ولكن العلامة الميمني كان على خلاف رأيه في الانتظار، فما فتئ يحثُّه على نشره، ومن أحق بنشره من المجمع العلمي، حتى استجاب له، فشرع التنوخي فيه، وقد أصبح بحوزته نسختان من الكتاب، ناقصتا السفر الأول منه، متخذًا من النسخة الرِّباطية أمًّا، لأنها أكمل من النسخة الدمشقية[2]،وقطع في تحقيقه شوطًا بعيدًا، فقد ذكر الدكتور شاكر الفحام أن أستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ قد اطلع على كراريس من عمله، ولكن المنية لم تمهل التنوخي حتى يحقق أمنيته، وفُقِدَ ما صنع، ولم يقع إلى أحدٍ علمُ ما قام به في هذا الباب[3].

أما ثالث الكتب التي شرع التنوخي في تحقيقها، ولم يقدَّر له أن يتمَّها، فهو كتاب «مُنتهى الطلب من أشعار العرب» للإمام الأديب محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون البغدادي، وكان قد اطلع على السِّفْر الأول منه، في المكتبة السليمانية في الآستانة، حين زارها في صيف سنة ١٩٤٩م/١٣٦٨هـ، ووقع في قلبه وقتئذ أن يحققه، وكم حزن حين ضاق به الوقت عن تصويره[4]، ثم علم تلميذه الدكتور عزة حسن برغبته تلك، وكان في ملكه نسخة منه، فقدَّمها له، كيما يسارع إلى تحقيقه، وإخراجه للناس، وكان سرور التنوخي بذلك كِفاء حزنه يومذاك، فعكف على

(١) مجلة المجمع: مج ٤١/ ١٧

(٢) مجلة المجمع: مج٤١/ ١٨

(٣) مجلة المجمع: مج ٥١/ ٢٦٤

(٤) انظر ص ٩٠ من هذا الكتاب.

نسخه، ثم شرع في تحقيقه، وظل يعمل فيه إلى ما قبيل وفاته، وكان صديقه العلامة عبد العزيز الميمني على علم بذلك[1]، وما ندري الآن مستقرَّ الأوراق التي حققها منه، فهل فُقِدَت كما فُقِدَ من قبل ما حققه من الدلائل؟[2]

وآخر ما خطَّتْه أناملُ التنوخي مقالة بعنوان «دعوى الصُّعوبة في تعلُّم العربية»، نُشرت في مجلة المجمع بعيد وفاته[3].

(١) مجلة المجمع: مج: ٣٧/ ٣٦٦ – ٣٦٧، مج ٤٤/ ٩٦١

(٢) آلت مكتبة التنوخي بعد وفاته إلى مجمع أبو ظبي الثقافي، فهل عساها أن تكون هناك؟ ينظر كتاب «العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم»: ١٣٧

(٣) مجلة المجمع: مج ٤١/ ٣٩٣ – ٤٠٤، وأثبتُّها لأهميتها بتمامها في ملحق الكتاب.

وفاته وما قيل في رثائه

وهكذا بقي التنوخي إلى آخر يوم من حياته الحافلة يتدفق نشاطًا[1]، حتى إذا انتهى عمله يوم الخميس ٢٣ حزيران ١٩٦٦م/ ١٣٨٦هـ[2]، غادر المجمع إلى بيته في المِزَّة؛ قبالة جامع الزهراء[3]، وبات ليلته ناعم البال، قرير العين، قرب أولاده يحدثهم، ويأنس بهم، فلما طلع الفجر وأراد الصلاة، لم يستطع، فقد خار عزمه، ووهنت قواه فجأة، وأسلم الروح إلى بارئها[4] فجر يوم الجمعة ٢٤ حزيران ١٩٦٦م[5]/ ٥ ربيع الأول ١٣٨٦هـ، عن سبع وسبعين سنة، وهو آخر الأعضاء المؤسِّسين للمجمع العلمي العربي وفاة، رحمه الله[6].

وفي صباح ذلك اليوم نعته إذاعة دمشق باسم مجمع اللغة العربية، وجامعة

---

(١) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٥٥

(٢) مجلة المعرفة: العدد ٥٤/ ١٢٦

(٣) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٥٥، ومن أوراق التنوخي لدى المجمع.

(٤) مجلة المعرفة: العدد ٥٤/ ١٢٦

(٥) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٥٩

(٦) مجلة المجمع: مج ٤١/ ٥٣٩

دمشق، ووزارة التربية، ونقابة المعلمين إلى طلابه المنتشرين في سورية وفي أقطار عدة في الوطن العربي[1]. وصلي عليه بعد عصر يوم الجمعة في جامع السنانية، ودفن في مقبرة الباب الصغير[2].

وحين بلغت مجمع اللغة العربية بالقاهرة وفاته، نعاه في جريدة الأهرام المسائية، قائلًا عن فقيد المَجْمَعَيْن: «شقَّ على مجمع اللغة العربية بالقاهرة أن يتلقى من مجمع اللغة العربية بدمشق نعي عالم لغوي جليل، وباحث محقق كبير، هو الأستاذ عز الدين التنوخي؛ نائب رئيس المجمع، وقد عرف الفقيد منذ عشرات الأعوام بأصالة عروبته، وشدة غيرته على التراث العربي الثمين، فكانت حياته موصولة بجهود مضنية في تحقيق الكتب، وتدبيج البحوث في سَعَة اطلاع، ودقة نظر، وفرط رغبة في الإفادة والتوجيه»[3].

وتخليدًا لذكراه أطلق اسمه على إحدى الثانويات في دمشق[4].

* * *

(١) جريدة الثورة، العدد ٧٤٥٧، سنة ١٩٨٧م.

(٢) وخلف من الأولاد الذكور: قيس وهاني، أما ابنه الثالث معن فقد توفي في حياة والده، وكان التنوخي قد أنشد فيهم:

قـيس ومَعْـن وهـاني هــم عُـدَّتي للزمــان

ومن الإناث: ميسون، وعزة، ونجوى.

مقابلة مع الدكتور عماد قيس التنوخي، ومن أوراق التنوخي لدى المجمع.

(٣) هي في أوراق التنوخي لدى المجمع.

(٤) تقع في حي المزة، فيلات غربية.

ورثاه الشاعر الكبير محمد الفراتي[1] بقصيدةٍ عنوانُها «دمعةٌ على صديق»[2]، مطلعُها:

مَنِ الخالِدُ الباقي سِوَى الله فاسْتَقِمْ ... ولا تَجْنِ إلَّا الخَيْرَ في إبَّانِهِ
يَوَدُّ الفتى ما اسْطاعَ أنْ يَخْلُدَ اسْمُهُ ... فَيَصْرِفُ أقصى الجُهْدِ مِنْ إمْكانِهِ

ومنها:

بكى برَدَى بالأمسِ مَنْ غالَهُ الرَّدَى ... بدمعٍ بِهِ رَوَّى صَدَى غِيطانِهِ
نعى الضَّادَ للفُصْحَى امْرَأً مُنْذُ أنْ شَدَا ... شَدَا عَنْدَلِيبًا في ذُرَا أفْنَانِهِ
تَرَدَّدَ في آفاقِ يَعْرُبَ نَعْيُهُ ... إلى الدِّينِ والفُصْحى «بديع زمانِهِ»
فَلِلنَّثْرِ تَرْثِيهِ فَرَائِدُ دُرِّهِ ... وللشِّعْرِ تَرْوِيهِ عُقُودُ جُمانِهِ
فكَمْ كانَ بالذِّكْرِ الحكيمِ مُدَلَّهًا ... قضى وَهْوَ مَفْتُونٌ بسِحْرِ بيانِهِ
حَفِيٌّ بِهِ في هَدْأةِ الفَجْرِ عاكِفٌ ... على فَهْمِ ما يَتْلُوه مِنْ فُرْقانِهِ
كَرُمْتَ أبا قيسٍ فقدْ كنتَ واحِدًا ... لدى المَجْمَعِ العِلْمِيِّ مِنْ أعْيَانِهِ

* * *

وأقامت وزارة الثقافة حفلة تأبين للتنوخي إجلالًا وتقديرًا لذكراه في ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م/ ١٣٨٦هـ، على مدرج جامعة دمشق، تحدث فيها وزير التربية وقتئذ الأستاذ سليمان الخش، والأستاذ عارف النَّكَدِي، والدكتور شُكري فيصل،

(١) هو الشاعر محمد بن عطاء الله الفراتي، ولد نحو سنة ١٨٨٠م/ ١٢٩٧هـ على ضفاف الفرات في دير الزور، وتوفي فيها سنة ١٩٧٨م/ ١٣٩٨هـ، اشتهر بترجماته للأدب الفارسي، وهو واحد من ذلك الرعيل الأول من الشعراء السوريين : محمد البزم، وخير الدين الزركلي، وخليل مردم، وشفيق جبري.

(٢) هي في أوراق التنوخي لدى المجمع، وأثبتُّ القصيدة بتمامها في ملحق الكتاب.

والأستاذ عبد الهادي هاشم، والأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار.

ومما قاله فيه الأستاذ عارف النكدي: «علم راسخ، واطلاع واسع، وتحقيق وتدقيق، وقوة ذاكرة، وبديهة حاضرة، ودأب وجهد، كل ذلك مكنه من إنتاج النافع المفيد، وإخراج الطريف والتليد، من كتب المتقدمين والمتأخرين، نشرًا وشرحًا، ونقلًا ووضعًا، فأضاف إلى دور الكتب وإلى ثرواتها السابقة ثروة قيمة جديدة».

وفي حديث الدكتور شكري فيصل عن أدب التنوخي، قال: «إني حدثتكم عن التنوخي الأديب الذي يحسن الشعر، ويجيد النثر، ويتقن المحاضرة، ويزين البحث، ولكني أغفلت الأدب الآخر، أدب النفس الذي هو تتويج لأدب الدرس، فقد كان نبضة حية في صدر الأستاذ التنوخي، وكان نورًا نيرًا في وجهه، وسلوكًا واضحًا في سلوكه، وكان من أطيب الناس معشرًا، وأصفاهم خلقًا، وأبعدهم عن كثير من تعقيدات الحياة المعاصرة».

* * *

ومن رسالة كتبها الدكتور العلامة مصطفى جواد باسم المجمع العلمي العراقي، يصف فيها الخسران الذي لا يعوض بفقدان التنوخي، قال فيها: «كان الأستاذ عز الدين التنوخي من أعلام علماء العرب، ومن المتبحرين في مفردات العربية، ومن التراجمة المتقنين من اللغة الفرنسية إلى العربية...وعني كثيرًا بترجمة مصطلحات التشريح التي كانت تدرس في العراق، وبدأ بتدريسها وتدريس العلوم العربية بالشام والعراق.. ونشر من كتب الأدب واللغة ما هو معروف بين العلماء والأدباء بالتحقيق الدقيق، والإتقان والتحري».

ومن كلمة لعلامة العراق محمد بهجة الأثري، قال: «فجأني نبأ فجيعة أسرة

المجمع بنائب رئيسه، الصديق العالم المحقق الأستاذ عز الدين التنوخي، فوقع في نفسي موقعًا عظيمًا، وأحزنني فقد الراحل صديقًا حميمًا، حمدت صحبته في السنين الطوال، وعالمًا محققًا، ذا يد باسطة، وفضل غزير، وعربيًّا مؤمنًا صاحب حِفاظ على العرب والعربية والإسلام، وركنًا ركينًا في بنية المجمع منذ ساعة تأسيسه».

وقال فيه صديقه الحميم العلامة عبد العزيز الميمني: «لقد كان - رحمه الله - مغرمًا بالآداب والمعارف، سمحًا كريمًا في تقديره لجهود المعنيين بها، إذن ليس ببدع أن تعشق الأذن قبل العين من كلا الطرفين، حتى إذا التقينا راعني مخبره ومنظره، واستهوتني شمائله، وسأذكر دائمًا تلك المجالس التي كان المرحوم يهتم بعقدها على ضفاف بردى، وفي وسط داريا أثناء زياراتي لبلاد الشام، والتي كنا نتجاذب فيها الأحاديث عن الشعر والأدب، ونتفكه بروح أخوية صافية»[1].

ورثاه الإمام العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بقوله: «وفاته صدع في أركان الجانب العلمي، وثلمة ثالمة فيه، لفقدان علم كان مظهرًا لغزِّ الأعمال؛ ببحوثه الفياضة، وتحقيقاته القيمة، ونشره مطويات ذخائر العربية».

ومن ليبيا أرسل العالم البحاثة علي الفقيه حسن يقول: «لا شك أن فقده خلف ثلمة في صفوف رجال العلم في الشرق العربي، وذلك بما كان ينشره من آثار قلمية، لها منزلتها السامية بين طبقات الأمة العربية المثقفة، وقد اطلعت على الكثير من آثاره التي تدل على تضلعه في علوم اللغة العربية وآدابها، وعلى ما حققه وشرحه من مؤلفات علمائنا الأسلاف، ولا شك أن هذا الرزء الذي أصابنا نحن العرب بفقد هذا العالم الجليل، له تأثير كبير في سويداء قلوبنا جميعًا».[2]

---

(١) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٢٣١ - ٢٣٣

(٢) هي في أوراق التنوخي لدى المجمع.

آثاره

قضى التنوخي نحو ستين سنة من عمره، يؤلف ويترجم ويحقق في أنواع شتى من المعرفة، وقد خلَّف لنا ثروة من التصانيف النفيسة، والأبحاث النافعة، والمقالات الماتعة المفيدة، وهي على ترتيب أنواعها وصدورها:

أولًا - التأليف:

١- الفتح المبين في شرح عينية ابن سينا الرئيس، القاهرة، ١٩٠٦م/ ١٣٢٤هـ[1].

٢- دروس في صناعة الإنشاء، مطبعة الفرات ببغداد، ١٩٢٧م/ ١٣٤٥هـ.

٣- إحياء العَرُوض، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٩٤٧م/ ١٣٦٧هـ.

٤- تهذيب الإيضاح، في ثلاثة أجزاء، مطبعة الجامعة السورية، ١٩٤٨م/ ١٣٦٧هـ.

٥- رسالة في الكتابة الصوتية، يراعي الرسم فيها النطق، تجنبًا للخطأ في

(١) لم أقف عليه.

القراءة، نشرت في مجلة التربية والتعليم بدمشق، ثم طبعت على حدة[1].

ثانياً - الترجمة:

١- مبادئ الفيزياء، تأليف فرنان ماير، صدر جزؤه الأول في بغداد، مطبعة الفرات سنة ١٩٢٦م/ ١٣٤٤هـ، ثم أعاد التنوخي النظر فيه، وطبع في المطبعة الحديثة بدمشق، سنة ١٩٢٨م/ ١٣٤٧هـ.

٢- قلب الطفل، تأليف ادمون دوآمينشي، جزآن، المطبعة الحديثة بدمشق، ١٩٢٩م/ ١٣٤٩هـ.

ثالثاً - التحقيق:

١- كتاب المنتقى من أخبار الأصمعي، تأليف الإمام أبي محمد عبد الله بن أحمد بن سعيد الرَّبَعي، المتوفى سنة ٥٢٩هـ/ ٩٤٠م، انتخاب ضياء الدِّين محمد بن عبد الواحد المقدسي، المتوفى سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م، صدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٣٦م/ ١٣٥٤هـ[2].

٢- كتاب تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة، تأليف الإمام أبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، المتوفى سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، صدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٣٦م/ ١٣٥٥هـ[3].

٣- بحر العوَّام فيما أصاب فيه العوام، تأليف الإمام رضي الدين محمد بن إبراهيم، المعروف بابن الحنبلي الحلبي، المتوفى سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م،

---

(١) مجلة المجمع: مج ٣٦/ ١٣٩، ومج ٤١/ ٣٩٦، ولم يتسنَّ لي الوقوف عليها.

(٢) انظر الحاشية رقم ٦ ص ٦٧ من هذا الكتاب.

(٣) انظر الحاشية رقم ١ ص ٦٩ من هذا الكتاب.

صدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٣٧م/ ١٣٥٦هـ[1].

٤- عيون الأثر في فنون المغازي والشَّمائل والسِّيَر، تأليف الإمام أبي الفتح محمد بن محمد، المعروف بابن سيِّد الناس، المتوفى سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م، جزآن، نشرته مكتبة القدسي بالقاهرة سنة ١٩٣٧م/ ١٣٥٦هـ[2].

٥- كتاب الإبدال، تأليف أبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، المتوفى سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، صدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦٠- ١٩٦١م/ ١٣٧٩ - ١٣٨٠هـ.

٦- كتاب المثنَّى، تأليف أبي الطَّيب اللغوي، صدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦٠م/ ١٣٨٠هـ.

٧- كتاب الإتباع، تأليف أبي الطَّيب اللغوي، صدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦١م/ ١٣٨٠هـ.

٨- مقدمة في النحو، تأليف خلف بن حيان بن الأحمر البصري، المتوفى سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م، صدر ضمن مطبوعات وزارة الثقافة، مديرية إحياء التراث القديم بدمشق سنة ١٩٦١م/ ١٣٨١هـ.

٩- كتاب الإبدال والمعاقبة والنظائر، تأليف الإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، المتوفى سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٩م، صدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦٢م/ ١٣٨١هـ.

١٠- كتاب وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع،

---

(١) انظر الحاشية رقم ٤ ص ٧٣ من هذا الكتاب.

(٢) شاركه في تحقيقه العلامة الشيخ عبد القادر المبارك، وفاتني أن أذكره في كتابي عنه.

تأليف الإمام أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، المتوفى سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م، صدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦٣م/ ١٣٨٢هـ.

١١- الجزء الثالث من شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي الأزدي، تأليف الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، المتوفى سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، المطبعة العمومية بدمشق، ١٩٦٣م/ ١٣٨٣هـ.

١٢- تلقين الصبيان لمدارس عُمان، تأليف الشيخ نور الدين السالمي، المطبعة العمومية بدمشق، ١٩٦٣م/ ١٣٨٣هـ.

١٣- ديوان الستالي، لأبي بكر أحمد بن سعيد الخروصي العُماني، المطبعة العمومية بدمشق، ثم أعيد طبعه في سلطنة عُمان، وصدر عن وزارة التراث القومي والثقافة سنة ١٩٩٢م/ ١٤١٢هـ.

١٤- جلاء العمى شرح ميمية الدِّما، تأليف الشيخ خلفان بن جميّل السّيابي السمائلي العُماني، المطبعة العمومية بدمشق، ١٩٦٤م/ ١٣٨٣هـ.

١٥- ديوان السُّلطان سليمان بن سليمان النَّبْهاني، المتوفى نحو سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٥م، المطبعة العمومية بدمشق، ١٩٦٥م/ ١٣٨٤هـ.

١٦- خلاصة الوسائل في ترتيب المسائل، وهي فتاوى الشيخ عيسى بن صالح الحارثي، المتوفى سنة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، ترتيب الشيخ حمد بن الشيخ نور الدين عبد الله بن حُمَيِّد السَّالمي، المطبعة العمومية بدمشق، ١٩٦٥م/ ١٣٨٤هـ.

١٧- معاني الشعر، لأبي عثمان سعيد بن هارون الأُشناندانى، المتوفى سنة

٢٨٨هـ/ ٩٠١م، (الأصل واللحق والذيل)، صدر ضمن مطبوعات وزارة الثقافة، مديرية إحياء التراث القديم بدمشق سنة ١٩٦٩م/ ١٣٨٩هـ.

أما الكتب التي شرع في تحقيقها، ولم يتمَّها، ولم يُعرف مصيرُها:

١٨- الدَّلائل في غريب الحديث، لقاسم بن ثابت السَّرَقُسْطي، المتوفى سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٥م.

١٩- مُنتهى الطلب من أشعار العرب، لمحمد بن المبارك بن محمد بن ميمون البغدادي، المتوفى ظنًّا بعد سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م[1].

رابعاً - المعاجم:

شارك في وضع المعجم العسكري بقسميه: «الفرنسي - العربي، الإنكليزي - العربي»، صدر في دمشق سنة ١٩٦١م/ ١٣٨٠هـ.

شارك في اللجنة التي ألفها مجمع اللغة العربية بدمشق، للنظر في «معجم المصطلحات الأثرية»، الذي وضعه الأستاذ يحيى الشهابي، وصدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦٧م/ ١٣٨٦هـ.

خامساً - المراجعة:

١- شعر الرَّاعي النُّمَيْري وأخباره، المتوفى سنة ٩٠هـ/ ٧٠٩م، جمعه وقدَّم له وعلق عليه ناصر الحاني، وراجعه وجمع شواهده ووضع فهارسه

---

(١) ومن الطرائف أن عبد القادرعياش في كتابه «معجم المؤلفين السوريين»: ص ٨٢ نسب إليه كتاب «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» خالطًا بينه وبين مؤلفه أبي علي المحسن بن علي بن محمد التنوخي، المتوفى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م!

عز الدين التنوخي، وصدر ضمن مطبوعات المجمع سنة ١٩٦٤م/ ١٣٨٣هـ، وكل رقم في الحاشية غير محصور بقوسين، أو أوله «قوله»، أو «قلت»، فهو من تعليقات التنوخي فيه[١].

سادساً - مقالاته في جريدة الأوقات البصرية:

١- السوريون والترك، أو مظالم الأتراك في سورية، ١٥ نيسان ١٩١٦م/ ١٢ جمادى الثانية ١٣٣٤هـ.

٢- مظالم الأتراك، الأتراك والتعليم، ٤، ٥ أيار ١٩١٦م/ ٢٩، ٣٠ جمادى الثانية ١٣٣٤هـ.

٣- أبيات نشرها في ١٢، ٢٠، ٢٧ أيار ١٩١٦م/ ٩، ١٧، ٢٤ رجب الفرد ١٣٣٤هـ.

٤- مظالم الأتراك، الأتراك والزراعة في سورية، ٢٨، ٣٠ حزيران، ١ تموز ١٩١٦م/ ٢٧، ٢٩، ٣٠ شعبان ١٣٣٤هـ.

٥- سورية ولبنان وما فيهما من هموم وغموم وأحزان، ٢٩ حزيران ١٩١٦م/ ٢٨ شعبان ١٣٣٤هـ.

٦- فظائع الأتراك، المشانق في دمشق، ١٤ تموز ١٩١٦م/ ١٣ رمضان ١٣٣٤هـ.

٧- مظالم الأتراك، الأتراك والرحمة، ١٧، ١٨ تموز ١٩١٦م/ ١٦، ١٧ رمضان ١٣٣٤هـ.

---

(١) شعر الراعي النميري وأخباره: ١٧

٨- مظالم الأتراك، الأتراك والفظاعة، ٢١، ٢٢ تموز ١٩١٦م/ ٢٠، ٢١ رمضان ١٣٣٤هـ.

٩- الأحكام الكيفية المسماة بالعرفية، ٢٩ تموز ١٩١٦م/ ٢٨ رمضان ١٣٣٤هـ.

سابعاً - مقالاته وقصائده في جريدة الكوكب القاهرية:

١- فظائع الأتراك، العدد ٣٠، ٣١، شباط ١٩١٧م/ ١٣٣٥هـ.

٢- الدروز عنصر عربي كريم، العدد ٨٢، فبراير (شباط) ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ.

٣- قومي العرب (موشَّحة)، العدد ٨٩، إبريل (نيسان) ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ.

٤- إن أقل ليلى فليلى أمتي (موشَّحة)، العدد ٩٠، إبريل (نيسان) ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ.

٥- قيثارتي (موشَّحة)، العدد ٩٢، إبريل (نيسان) ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ.

٦- إن الحسين وحوله أشباله (قصيدة)، العدد ٩٣، مايو (أيار) ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ.

٧- إنما العرب استقلت بالحسين (موشَّحة)، العدد ٩٥، مايو (أيار) ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ.

٨- هل علمتم أن ليلى أمتي (موشَّحة)، العدد ٩٩، يونيه (حزيران) ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ.

٩- أجدادكم قد بنوا بيت العلى (قصيدة)، نشرت في الولايات المتحدة،

في جريدة «فتاة بوسطن» في العدد ٥٢، السنة الرابعة، ٤ كانون الثاني ١٩١٨م/ ١٣٣٦هـ، عن جريدة الكوكب.

ثامناً - مقالاته في مجلة المقتطف عن وقائع فراره من الجيش العثماني، ثم التحاقه بالثورة العربية:

١- عدد مايو (أيار) ١٩١٧م، ص: ٤٤٥ - ٤٤٨

٢- عدد يوليو (تموز) ١٩١٧م، ص: ٣٣ - ٣٨

٣- عدد أغسطس (آب) ١٩١٧م، ص: ١١٩ - ١٢٤

٤- عدد أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧م، ص: ٣٣١ - ٣٣٦

٥- عدد يناير (كانون الثاني) ١٩١٨م، ص: ٢٢ - ٢٧

٦- عدد إبريل (نيسان) ١٩١٨م، ص: ٢٤٥ - ٢٤٩

تاسعاً - موشَّحة «أغرودة الاستقلال»:

جريدة العاصمة الدمشقية، العدد ١٢٠، ٢٦ نيسان ١٩٢٠م/ ٨ شعبان ١٣٣٨هـ[1]

عاشراً - مقالاته في مجلة الرسالة:

١- الزهرية المصدوعة، للشاعر الفرنسي سوللي برودوم، (ترجمة)، العدد ١٤، السنة الأولى، ١٩٣٣م، ص: ٣١

٢- وإذا أتى يومًا، للشاعر البلجيكي موريس ماترلنك، (ترجمة)، العدد ١٦، السنة الأولى، ١٩٣٣م، ص: ٢٧ - ٢٨

---

(١) هذا ما أمكنني الوقوف عليه في جرائد : الأوقات، والكوكب، والعاصمة، ولا أدعي أنني أحطت بكل ما كتب فيها.

٣- دين البادية، للامرتين، (ترجمة)، العدد ٩٦، السنة الثالثة، ١٩٣٥م، ص: ٧٣٤ - ٧٣٥

٤- المؤتمر الثامن للجمعية الطبية المصرية بدمشق، العدد ١٠٦، السنة الثالثة، ١٩٣٥م، ص: ١١٣٩ - ١١٤٠

٥- صوت دمشق، قصيدة ألقيت في ذكرى مهرجان المتنبي، العدد ١٦٤، السنة الرابعة، ١٩٣٦م، ص: ١٣٩١ - ١٣٩٢

٦- شَدُّ الرِّحال إلى الجبال، العدد ٢٢٢، السنة الخامسة، ١٩٣٧م، ص: ١٦٢٣ - ١٦٢٤

٧- لبنان الشرقي، مصطاف الزبداني، العدد ٢٧٤، السنة السادسة، ١٩٣٨م، ص: ١٦٢٠ - ١٦٢٢

٨- حول الوحدة العربية بين الحصري بك وطه حسين، العدد ٣١٩، السنة السابعة، ١٩٣٩م، ص: ١٥٨٥ - ١٥٨٦

حادي عشر - مقالاته في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق:

١- الأدب في البحرين في فاتحة القرن الحادي عشر، (عرض فيه ديوان الشاعر أبي بحر جعفر بن محمد الخطي العبدي، المتوفى سنة ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م)، مج ٨/ ٣٨ - ٤٤، ٨٤ - ٩٠، ١٦٠ - ١٦٦

٢- خزائن الكتب العربية، (بقية مؤلفات الأسرة السويدية العباسية، وهي من أقدم الأسر العلمية ببغداد)، مج ٨/ ٤٤٩ - ٤٥٣

٣- تحقيق لغوي في ورد الإبل، (رسالة لأبي الفوز محمد أمين السويدي)، مج ٨/ ٥١٣ - ٥١٩

٤- لغة شوقي، (خطاب التنوخي في حفلة تأبين شوقي في دار المجمع)، مج ١٣/ ٨٦ - ١٠٠

٥- الأوضاع الجديدة والاصطلاحات الفنية، (تتضمن مناقشة ألفاظ البرق والبريد)، مج ١٣/ ٢٧٦ - ٢٨١

٦- كتاب المواقف، ويليه كتاب المخاطبات للنفري، عني بتصحيحه وتنقيحه آرثر يوحنا آربري، مج ١٣/ ٣١٢ - ٣١٥

٧- العربية البربرية في اللغة الصقلية الإيطالية، تأليف جوزبب بربره، مج ١٣/ ٣٤٧ - ٣٤٨

٨- التشريح اللغوي (تشريح الدراجة)، مج ١٣/ ٣٦٣ - ٣٦٨

٩- جولة أثرية في بعض البلاد السورية لوصفي زكريا، مج ١٣/ ٤١٠ - ٤١١

١٠- مجلة البحوث الإسلامية، (تعريف بها، وكان يتولى إدارتها لويس ماسينيون)، مج ١٣/ ٤٤٤

١١- الزهاوي في نظر المستشرقين، (تعريف بالبحث الذي نشر عنه في مجلة العالم الإسلامي الألمانية)، مج ١٤/ ٣٤ - ٣٥

١٢- آثار إدورد مرقص، مج ١٤/ ٧٩ - ٨٠

١٣- ترجمة الأصمعي، مج ١٤/ ٨٣ - ١١٠

١٤- امرؤ القيس، تأليف الأستاذ سليم الجندي، مج ١٤/ ١٥٩ - ١٦٠

١٥- الفوتنج والفوذنج والفودنج، مج ١٤/ ٢٨٣ - ٢٨٥،(هي كلمة وردت في كتاب إصلاح ما تغلط فيه العامة، علق عليها التنوخي

هناك تعليقًا مجملًا، ثم أفرد لها هذه المقالة، والفوتنج هو نبت الحبق، ومنه يركب دواء باسمه).

١٦- صوت دمشق (قصيدة في ذكرى مهرجان المتنبي)، مج ١٤/ ٣٠٦ - ٣٠٨

١٧- رسالة في الكتابة المنقحة للأب انستانس ماري الكرملي، مج ١٤/ ٣٩١ - ٣٩٣

١٨- الدكتور فرتز هومل ١٨٥٤ - ١٩٣٦م، (أستاذ اللغات السامية في جامعة ميونخ، وعضو مراسل في المجمع العلمي العربي)، مج ١٤/ ٤٢٧ - ٤٢٨

١٩- الدعاء في العربية للأودَّاء أو على الأعداء، (استعرض فيه التنوخي الكلمات والتعابير التي تستعمل في الدعاء بالخير للأوداء، أو بالشر على الأعداء)، مج ١٤/ ٤٢٩ - ٤٣٢

٢٠- الخزانة الشرقية (مجلة أدبية متخصصة بالشرقيات، منشئها حبيب الزيات)، مج ١٤/ ٤٦٥ - ٤٦٧

٢١- كتاب أخبار النحويين البصريين، تأليف أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، اعتنى بنشره كرنكو؛ عضو المجمع العلمي العربي، مج ١٥/ ١٥٨ - ١٦٢

٢٢- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، تأليف سعيد الأفغاني، مج ١٥/ ٢٤٤

٢٣- السيد رشيد رضا، أو إخاء أربعين سنة، تأليف الأمير شكيب

أرسلان، مج ١٥/ ٣١٦ - ٣١٩

٢٤- ابن سينا، للأستاذ جميل صليبا، مج ١٥/ ٣٢٠ - ٣٢١

٢٥- كتاب الورقة، تأليف محمد بن داود بن الجرَّاح الكاتب، (عرَّف به التنوخي، ونشر منه ترجمة الأصمعي[1])، مج ١٥/ ٣٣٥ - ٣٣٩

٢٦- كلمة التنوخي في حفلة دار الكتب الظاهرية، (ألقاها بمناسبة تنظيم الدكتور يوسف العش دار الكتب الظاهرية على النمط الأوربي الحديث، واستعرض فيها تاريخ إنشائها، وجهود المجمع العلمي العربي في تطويرها، وفي نشر العربية في سائر البلدان الشامية)، مج ١٥/ ٣٧٩ - ٣٨٧، ٣٩٨ - ٣٩٩

٢٧- لتَوَسَّلوا الله باسم شكيب،(قصيدة للتنوخي افتتح بها الحفلة التي ألقى بها الأمير شكيب أرسلان محاضرته«نهضة العرب العلمية في القرن الأخير)، مج ١٥/ ٣٩٤ - ٣٩٥

٢٨- المحجة البيضاء في صحة نعت الجموع بفَعْلاء، (استعرض فيه الحوار بين الأب انستانس ماري الكرملي والشيخ أمين ظاهر خير الله الشويري حول صحة نعت الجموع بفعلاء، فقد صوبها الشيخ الشويري، وإلى رأيه مال التنوخي، وخطأها الكرملي)، مج ١٥/ ٤٠٥ - ٤٠٨

٢٩- الحياة الزراعية، مجلة زراعية اقتصادية مصورة، تصدرها الجمعية الزراعية السورية، (تعريف بجزئها الثاني الصادر سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م)،

---

(١) ثم طبع الكتاب بتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ عبد الستار أحمد فرَّاج، وصدر عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣م، ثم طبعته الثانية سنة ١٩٨٦م.

مج ١٥/ ٤١١ – ٤١٢

٣٠- الاهتداء إلى قبر معاوية بن أبي سفيان، مج ١٥/ ٤٦٦ – ٤٧٣

٣١- الطرفة في مخطوطات دير الشرفة، تأليف الخورفسقفوس إسحق أرملة السرياني، (تعريف بهذا الفهرس المفصل لمخطوطات دير الشرفة في كسروان)، مج ١٦/ ٨١ – ٨٣

٣٢- بعث قصيدتين من مرقدهما لعَدِي بن الرِّقاع العامِلي، (كان العلامة الكرنكوي قد بعث بهاتين القصيدتين لمجلة المجمع، فشرحهما التنوخي شرحًا كافيًا لإفادة القراء)، مج ١٦/ ١٥٢ – ١٥٤

٣٣- الأدباء العشر، تأليف محمد أسعد طلس وإبراهيم الكيلاني، مج ١٦/ ١٨٩ – ١٩٠

٣٤- الثقافة العربية، بحوث في تاريخ الثقافة العربية ومراحلها وازدهارها وآثارها، تأليف أحمد مظهر العظمة، مج ٢٥/ ٢٩٤ – ٢٩٥

٣٥- تشذيب النحو، رسالة لشاكر الجودي، مج ٢٥/ ٥٩٧ – ٥٩٨

٣٦- محاضرات في الدين والتاريخ والاجتماع، لعبد الغني الدقر، مج ٢٨/ ٦٢٠

٣٧- علمتني الحياة، ترجمة محمد بكير خليل ومختار الوكيل، مع مقالات لكتاب عرب، (من سلسلة كتاب الهلال الشهرية)، مج ٢٩/ ١٢٦ – ١٢٧.

٣٨- مجموعة رسائل للشيخ حسن علي البدر القطيفي، مج ٢٩/ ١٢٧ – ١٢٨

٣٩- أبو الطيب اللغوي الحلبي، (ترجمته)، مج ٢٩/ ١٧٥ – ١٨٣

٤٠- كتاب نسب قريش، لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري، عني بنشره ليفي بروفنسال، مج ٢٩/ ٥٩٣ - ٦٠٣

٤١- هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل البغدادي، مج ٣٠/ ١٢٩ - ١٣١

٤٢- أساليب تدريس اللغة العربية في الصفوف الابتدائية، لإسحاق موسى الحسيني، مج ٣٠/ ١٣١ - ١٣٢

٤٣- المُغْرِب في حُلى المَغْرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، مج ٣٠/ ١٦٧ - ١٧٠

٤٤- الصحافة في العراق (محاضرات ألقاها الأستاذ رفائيل البطي على طلبة الدراسات الأدبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية بالقاهرة)، مج ٣٠/ ٦٥٦ - ٦٥٨

٤٥- اللسان الحديث، ليوسف سعادة، (حاول فيه تعديل الصعب من قواعد العربية، ورأى التنوخي أن تعديل قواعد العربية نحوها وصرفها من خصائص المجامع العربية، ولا يتم لها ذلك إلا بمؤازرة وزارات المعارف العربية مؤازرة صادقة)، مج ٣٠/ ٦٥٨ - ٦٦٠

٤٦- أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، نشره هلموت ريتر، مج ٣١/ ٣٣٢ - ٣٣٥

٤٧- أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين،(الأجزاء ٣٧، ٣٨، ٣٩)، مج ٣١/ ٤٨٣ - ٤٨٦

٤٨- الثائرون في التاريخ، الملك سيف بن ذي يزن، تأليف دار الحكمة

البيروتية بإشراف علي ناصر الدِّين، مج ٣١/ ٤٨٧ – ٤٨٨

٤٩- أبو الطيب اللغوي وإبداله، (نشر التنوخي منه بابين: الغين والخاء، والباء والفاء، وقابلهما بمثلهما من كتاب القلب والإبدال لابن السكيت)، مج ٣٢/ ٤٤٥ – ٤٥٢

٥٠- ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف، لعارف أبو شقرا، مج ٣٣/ ٦٧٣

٥١- من نوادر المخطوطات المغربية (في زيارة الميمني لدمشق سنة ١٩٥٨م/ ١٣٧٧هـ، سأله التنوخي عما عثر عليه من نوادر مكتبات المغرب، فوصف له ما شاهده منها بمكتبة الرباط العامة، ومكتبة جامع القرويين في فاس)، مج ٣٣/ ٦٨٣ – ٦٨٦

٥٢- أسرار العربية، للإمام أبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق الشيخ محمد بهجة البيطار، مج ٣٤/ ٦٧٠ – ٦٧١

٥٣- الإبدال اللغوي أو الاشتقاق الكبير، (مقالة للتنوخي حول الإبدال اللغوي، ويفضل تسميته بالاشتقاق الكبير، وهو إقامة حرف مقام حرف مع إبقاء سائر أحرف الكلمة، فتشترك الكلمتان بحرفين أو أكثر، ويبدل حرف منهما بحرف آخر يقاربه مخرجًا أو صفة، نحو: قضب وقضم، وقطع وقطم)، مج ٣٥/ ٣ – ١١

٥٤- فتاوى لغوية، أمطار أم مطير، وسار أم مسير، مج ٣٥/ ١٦٤ – ١٦٦

٥٥- مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، للدكتور أحمد قدري، (وهي الثورة التي قام بها الشريف حسين بن علي، وكان أحمد قدري ممن التحق بها، والتنوخي في استعراضه للكتاب يصحِّح بعض الوقائع

التي عايشها في تلك الثورة)، مج ٣٥/ ٤٨٢ - ٤٨٨.

٥٦- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، لضياء الدين بن الأثير الجزري، تحقيق الدكتورين مصطفى جواد وجميل سعد، مج ٣٥/ ٦٦٦ - ٦٦٩

٥٧- المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، للدكتور عمر فرُّوخ، مج ٣٥/ ٦٧٠

٥٨- الأمة العربية في معركة تحقيق الذات، لمحمد المبارك، (قال فيه التنوخي عن المبارك: كان يوافقني على وجوب التبشير بالإسلام الذي رفع الله به ذكر العرب ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[1]، وعلى وجوب التبشير بالعروبة المؤمنة لا الملحدة، لتجتمع عليها كلمة طلاب العرب من مسلمين ومسيحيين)، مج ٣٥/ ٦٧١ -٦٧٢

٥٩- دراسات في فقه اللغة، للدكتور صبحي الصَّالح، مج ٣٦/ ١٣٠ - ١٣٤

٦٠- محمود شكري الآلوسي وآراؤه اللغوية، (محاضرات ألقاها الأستاذ محمد بهجة الأثري على طلبة الدراسات الأدبية واللغوية بالقاهرة سنة ١٩٥٨م)، مج ٣٦/ ١٣٥- ١٣٦

٦١- ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، للإمام الحافظ ابن حزم الأندلسي، تحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني، مج ٣٦/ ١٣٧- ١٣٩

٦٢- ديوان ابن الدُّمَيْنة، صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

أحمد راتب النفاخ، مج ٣٦/ ٣٠٣ - ٣٠٥

٦٣- الأعلام، معجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستشرقين، تأليف خير الدين الزركلي، مج ٣٦/ ٤٨٦ - ٤٩٠

٦٤- الأعلام (تصحيح بعد النشر)، مج ٣٦/ ٧٠٣ - ٧٠٤

٦٥- البلاد العربية والدولة العثمانية، تأليف ساطع الحصري، مج ٣٧/ ١١٣- ١١٦

٦٦- كلمة التنوخي في حفل استقبال العضو العامل الجديد الأستاذ محمد المبارك، مج ٣٧/ ٣٤١ - ٣٤٦

٦٧- من ذخائر قبة الملك الظاهر، وصف ثلاث مخطوطات نوادر، (ثنتان منها في القبة الظاهرية، وهما: المطر والسحاب والرواد لابن دريد، وكتاب الدلائل في غريب الحديث لقاسم بن ثابت السَّرَقُسْطي، والثالثة وهي: منتهى الطلب من أشعار العرب، بالآستانة في المدرسة السُّليمانية)، مج ٣٧/ ٣٥٧ - ٣٧٢

٦٨- معجم المصطلحات الحراجية، بالإنكليزية والفرنسية والعربية، وتعريفاتها بالعربية، بقلم الأمير مصطفى الشهابي، مج ٣٧/ ٦٥٧ - ٦٦٣

٦٩- تاريخ الأدب العربي بين ٦٥٦هـ - ٩٤١هـ، للمحامي عباس العزاوي، مج ٣٨/ ٣٢٦- ٣٢٨

٧٠- نظرة على نظرة، (تعقيب التنوخي على مقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور «نظرة في كتاب مقدمة في النحو»، نشره في مجلة المجمع: مج ٣٨/ ٥٧٦- ٥٩٠)، مج ٣٩/ ٢٤٠ - ٢٥٣

٧١- مخطوطة معاني الشعر، للأُشْناندانى، (نشر فيه أوراقًا عثر عليها لعلها من كتاب «الترجمان» لأبي عبد الله المفجع البصري، وهو في معاني الشعر، تتضمن «في باب أنواع من الإعراب، أبيات معان مما غلَّط الأعراب فيها الأصمعي، أبيات خطَّأ فيها أبو نصر صاحب الأصمعي ابن الأعرابي»)، مج ٤٠/ ٦٢ - ٨٢

٧٢- فصول في اللغة والأدب، لظافر القاسمي، مج ٤٠/ ٥٠٨ - ٥١١

٧٣- وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى، ١٩٢٥م - ١٩٢٧م، لظافر القاسمي، مج ٤٠/ ٨٧٥ - ٨٨١

٧٤- قاسم بن ثابت السَّرَقُسْطي وكتابه في غريب الحديث المسمَّى بالدَّلائل، مج ٤١/ ٣ - ٢٠

٧٥- الإسلام والصحابة الكرام بين السنة والشيعة، بقلم الشيخ محمد بهجة البيطار، مج ٤١/ ١٨٩

٧٦- ظهور نسخة ثانية من كتاب الإتباع لأبي الطيب اللغوي في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية، مج ٤١/ ٣٧٤ - ٣٧٦

٧٧- دعوى الصعوبة في تعلم العربية، مج ٤١/ ٣٩٣ - ٤٠٤

* * *

وكان المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق قد دعا في سنة ١٩٦٢م/ ١٣٨١هـ، إلى مهرجان الشيخ طاهر الجزائري، وكلف التنوخي إلقاء كلمة

فيه باسم المجمع، عنوانها «أيادي الشيخ طاهر الجزائري وعمله للمخطوطات»[1].

وله مقالات أخرى لم يتسنَّ لي الوقوف عليها، لأسبابٍ لا أملكها، نشرها في مجلة الرَّابطة الأدبية، ومجلتي التربية والتعليم في بغداد والشام، والمجلة السَّلفية، ومجلة الزَّهراء، ومجلة الثقافة بمصر[2].

(١) من أوراق التنوخي لدى المجمع، ولم يتسنَّ لي الوقوف عليها.

(٢) مجلة المجمع: مج ٤٤/ ٩٦١

ملحق:

١- لبنان الشرقي، مصطاف الزبداني.

٢- دعوى الصعوبة في تعلم العربية.

٣- نيل المنى (موشَّحة نظمها التنوخي سنة ١٩٢١م/ ١٣٣٩هـ، وهي بخطِّه في أوراقه لدى أسرته)

٤- صوت دمشق (قصيدة التنوخي التي ألقاها في مهرجان المتنبي)

٥- دمعة على صديق (قصيدة الشاعر محمد الفراتي في رثاء التنوخي)[1]

(١) سقت ما في هذا الملحق بحروفه وحواشيه كما جاء في مصدره.

لبنان الشرقي
مصطاف الزبداني[1]

أنا اليوم مصطافٌ من لبنان الشرقي، في وادي الزَّبَداني، الذي لو نزله من قبل لامرتين لوصفه بما لم يصف به وادي حمَّانا في لبنان الغربي، ولا سيما بجفافِ الهواء، وصحة الماء، واعتلال النسيم، واعتدال الإقليم.

أجل، إن لبنان الشرقي ليمتاز بجفاف الهواء، لبُعْده عن رطوبة البحر، ولقُرْبه من البيداء، ولذلك وصفه مشاهير الأطباء للمصابين بأمراض الرُّطوبة كالرثية - الرومتيزم - والسُّلِ وعِرْقِ النَّسَا، ووصفوه لعين «بُقَّين» التي تكاد تكون منقطعة النظير بين عيون بلاد الشَّام كلها في صفائها وخِفَّة مائها، وما اشتملت عليه من عناصر تُذيب الرَّمْل والحصاة، وتزيد في الهضم ما تشاء، فتتعب الطهاة. ولقد أشرت إلى عجيب تأثيرها في السنة الماضية حينما وصفت في هذه «الرِّسالة» عين الصحة المنبجسة من جبال حمَّانا في لبنان الغربي[2].

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ٢٧٤، السنة السادسة، ٩ شعبان سنة ١٣٥٧هـ/ ٣ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٣٨م.

(٢) قلت: يشير التنوخي إلى مقالته «شد الرِّحال إلى الجبال»، وقد نشرها في مجلة الرسالة، العدد ٢٢٢، السنة الخامسة.

ليس مجالُ القول ذا سَعَة، فأُسهب في وصف وادي الزَّبداني الجميل، ولذلك اقتضبتُ الكلام في تحليته اقتضابًا: بذكر ما فيه من الطرق المُعَبَّدة، والمغاني والمباني، وبيان ما استوفاه من منافع وروائع تبر المصطافين، وتسرُّ الناظرين.

يمتدُّ وادي الزبداني الجميل من الجنوب إلى الشَّمال بين طودين أو سلسلتين من الجبال الشرقية والغربية، وعلى سفوح الطود الشرقي تضطجع قريتا مضايا وبُقَّين، وقصر الجُرْجانية الأندلسي، وقرية بلودان أعلى قرى الوادي، وفيها الفندق الفخم الذي يُعدُّ من أجمل قصور الفنادق الشَّامية، وفي الجانب الشَّمالي من بطن الوادي قامت قرية الزبداني أم القرى، ومهوى قلوب الورى.

إن شرايين الحياة في هذا الوادي هي طرقه الكثيرة المُعَبَّدة المُزَفَّتة، والزِّفْت شاع أنه نعت سوء في كل شيء إلا في الطرق، فإنه وصف خير، ونعت يُمْن فيها، يلبِّد غبارها، ويقي السَّالك عِثارها، منها الطريق السُّلْطانية التي تصل دمشق بالزبداني، وطريق مزفتة تصعد من الزبداني إلى بلودان، وأخرى مثلها تربط الزَّبَدَاني بالجُرْجانية وبُقَّين ومَضَايا، وطريق مخضرة أخرى تصل قريتي بقين ومضايا بطريق دمشق، على مقربة من مفرق طريق منبع نهر بردى؛ نهر دمشق الذي وصفه حسَّان بأنه «يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ»، وذكره شوقيُّنا مُحَيِّيًا دمشق بقوله:

سـلامٌ مِـنْ صَـبا بَـرَدى أرَقُّ ودَمْـعٌ لا يُنَهْنَـه يـا دِمَـشْقُ

أما أم قُرى هذا الوادي البهيج، فهي الزَّبداني مركز القضاء، وعامله القائم بشؤونه رجلٌ من أفاضل الرجال، غيور على عمرانه، وتوفير أسباب الهناء والبُلَهْنِيَة على نازليه وسُكَّانه، وفي الزبداني محكمة يرأسها قاضٍ ماض في أحكامها، ومستوصف طبيٌّ للحكومة تامُّ الأدوات، يديره طبيبٌ نشيط يداوي الأغنياء من

المُصْطافين والفقراء على السَّواء، ولا يتقاعس عن تلبية نداء المرضى في مساكنهم، يعودهم ليُضْعِف من الدَّاء الآلام، وليقوِّي في الشِّفاء الآمال، ثم هو يعطي الأدوية مجانًا للبائس والمُعْتَرِّ، حتى الغني المضطر إن لم يجد علاجه في صيدلية الزبداني العامة. وفي قرية بلودان صيدلية كبيرة، وفي مضايا أخرى صغيرة، وبذلك يجد المصطاف الصحيح في وادي الزبداني نعيمه المقيم وهناءه، والمريض لا يعدم في مغانيه طبيبه الحاذق وشفاءه.

ومما تمتاز به الزبداني على سائر قرى الوادي أنها مركز السيارات، وإن فيها محطة القِطَارات، فهي ملتقى الحاضر والبادي، ومنتدى الرَّائح والغادي، كما تمتاز برُخْص أسعار الثمار وكثرتها، وتنوع الخضراوات الغضة ووفرتها، وبسوقها الكبيرة المشتملة على جميع ما يحتاج إليه الاصطياف والانتجاع، وبمتنزهاتها المستوفية لشرائط الإبداع والإمتاع.

بعض مناظرها السَّاحرة: كل ما في وادي الزبداني بهيجٌ جميل؛ بهيج لعَمْري مقهى أبي زاد ومنظره السَّاحر الجميل، ومقهى بقين وعينها التي يحقُّ أن تُسمَّى السَّلْسَبيل، وجميلٌ كل الجمال قصر الجُرْجانية الأندلسي بشلالاته وفوَّاراته، وفخمٌ كل الفخامة فندق بلودان بمقصوراته وحمَّاماته، ورائعة - شهد الله - قرية مضايا بصفاء سمائها، وصِحَّة هوائها، وماذا عسى أن يقول قائلٌ في محاسن الزبداني ومفاتنها؟ فلعل أصدق ما يقال في جنتها قول الشاعر[1] في وصف دمشق وغوطتها:

هـذه الغُوْطَـةُ مـا أبْهَجَهـا ... وَهْـيَ في نَيْـسانَ قيـدُ المُجْـتلي

قـال سُـبْحانَ الـذي دَبَّجَهـا ... مَـنْ رآهـا فِتْنَـةً للمُقَـلِ

(١) من موشَّحة في وصف دمشق لكاتب هذا المقال. قلت: هي في ملحق هذا الكتاب.

إِنَّــه قــد شــاءَ أنْ يُخْرِجَهــا جَنَّــةً في الأرْضِ للمُــسْتَعْجِلِ

إن بطن هذا الوادي المبارك ينقسم إلى قسمين شمالي وجنوبي: أما الشَّمالي منه، فعامِرٌ يبدو بلون أشجاره أخضر نضرًا، وأما الجنوبي منه، فجُلُّه غير مغروس، ومختلفٌ ألوانُه: هذه بقعة منه محصورة تبدو صفراء فاقعة، وهذه بقعة محروثة تبدو حمراء قانية، وتلك رقعة بائرة لم تُحرث ولم تزرع، فهي نارنجية غير قرمزية، وهنالك رقعة مزروعة يضرب لون خُضْرتها القاتمة إلى السَّواد، فتجتلي عين الناظر من هذه البِقاع وهاتيك الرِّقاع مجموعة من الطَّنَافس المحروثة، والزَّرَابيِّ المبثوثة، تستهوي الأفئدة، وتقيِّدُ النَّواظر.

إن من ينكر السِّحْر من أهل هذا العصر، يؤمن به مثلي بعد أن يرى ما رأيت، من جمال إشراق الشمس على سلسلة الجبال الغربية، ثم يزداد استيلاء الضِّياء حتى يغمر ما تحت الشَّناخِيبِ والذُّرَى، فتزدادُ بهجة النفس، فإذا ما بلغتِ الشمس أشجار الرَّوابي المغروسة، راعَك مشهدُ سواد الأشجار مع بياض الأنوار، فتخيلت التقاء الليل بالنهار عندما يتنفَّس الصُّبْح في الأسحار.

وإن أنسَ لا أنس تلك العَشِيَّة التي ذهبتُ فيها إلى مغارة «النَّابوع»، تلك العين التي لا يكاد يرتوي وارِدُها، لشِدَّة برد مائها، وفرط عُذوبته، وكان رفيقي الوفيق في ارتياد هذه العين العجيبة الشيخ حسن بو عياد المغربي؛ من زعماء الإصلاح في المغرب الأقصى، وهو على رأيي في إصلاح المرأة بإصلاح تربيتها وبيئتها، ثم خرجنا من المغارة، والشمس في صُفْرة وجه العاشق الوامِق، فانتقلنا من لذَّة إلى لذة: من نشوةِ الارتواء إلى نشوة الإصغاء. ماذا رأينا من مشهد فَخْم، وماذا وجدنا من نعيم روح، وماذا سَمِعْنا من حُسْن لحن؟ مشهد لَعَمْرُ الحقِّ رائع، ونعيم روح غامر، ولحن

مِزْمار ساحر. شهدنا فوق مغارة النابوع على سفح الجبل قطيعًا من المِعْزَى، يثير من ورائه عَجَاجة منتشرة، ومن أمامه هاديه وراعيه، يطرب قطيعه بألحان مِزْماره الجبلية، كما يطرب الجيش بألحان موسيقاه الحربية، وقد امتزج أنين المزمار برنين الأجراس، وكأنَّما كان الرَّاعي يهنئ بسلامة الوصول قطيعه الطروب، ويودِّع بلسان المزمار ملكة النهار الجانحة إلى الغروب، ولا يزال القطيع الزَّاحف في هبوطه حتى يبلغ قرارة الوادي، فينقع ببرد الماء غليلَ الأحشاء، ثم يتابع سيره الهادئ إلى حظيرته، ونحن نتابِعُه بأبصارنا، ونشيعه وأجراسه وراعيه وأنفاسه، ولا نزال من خلفه مسحورين حتى يتوارى عن العيون بحجابِ الليل.

وهل أحدِّث أخي القارئ عن القمر، وكلنا يهوى القمر، وهيهات أن أنسى لياليه القمراء على شاطئ البحر صغيرًا، أو لياليه السَّواحر والفُلْك يجري بنا في بحر النيل الجميل. لا، ولا أنسى تلك الليالي البهيجة، والقمر يفضض الطبيعة من حولنا، ونحن مضطجعون على هضاب المِزَّة الفيحاء.[1] وما لي ولحديث القمر في الدَّهر الغابر، وأنا أستطيع التحدث عنه في هذا الشهر الحاضر، ذاكرًا للقارئ أن أهل دمشق مِنْ أعشقِ خَلْقِ الله للقمر، ولو أن الدِّمَشْقي كان نباتًا لكان «عبَّاد القمر»[2]، فلقد أخبرني عامل الزبداني عشية أمسِ بأن عدد المصطافين في الزبداني وحدها قد بلغ في هذا العام نحو ألف نفس، يؤلفون مئتي أسرة، ولكن هذا العدد يبلغ في الليالي القمراء أضعافًا مضاعفة، فيعجُّ وادي الزبداني بالمصطافين عجيجَ الحجيج،

(١) قرية جميلة غربي دمشق، أنبتت تربتها كثيرًا من العلماء، كالحافظ المِزِّي، وضمَّت مثل سيدنا دِحْية الكلبي، وشاعر دمشق ابن عُنَيْن، وغيرهما.

(٢) ويسمى أيضًا دوار القمر، لأن نورته الصفراء الشبيهة بالترس تدور مع القمر، ويسمى بالفرنسية دوار الشمس ***tourne-sol***.

ولكنهم من حجيج القمر، وتمتلئ الطريق السُّلْطانية بين دمشق والزبداني بالسيارات الممتلئة بعُشَّاق القمر، وتغصُّ بهم مقصورات القطار، في الليل والنهار، وأقمارُ النِّساء تشارك الرِّجال في عشق قمر السَّماء، وكأنه لا غنى للجنسين اللطيف والعنيف عن المشاركة التي ازدادت في هذا العصر تشابكًا ووشوجًا؛ فهنالك التربية المشتركة، والسِّباحة المشتركة، والسِّباقات المشتركة، وهنا في الوادي النُّزَه المشتركة ليالي القمر على طريق الجرجانية وبقين ومضايا.

إن تطور المرأة من الحِجاب إلى السُّفُور فالحُسُور كان سريعًا جدًّا في مِصْر، ولكنه بطيءٌ في دِيار الشَّام، ولا تزال الدِّمَشْقية مع تعلُّمِها وولعها بالنَّهْضة الاجتماعية، تُؤْثِرُ التديُّنَ الصَّادق على التمدُّنِ الكاذب، والكمال والعفاف على الابتذال والإسفاف، وبعبارةٍ أوجز إنها تفضل السُّفور الشَّرْعي على الحُسُور البِدْعي، فلا تخلو المرأةُ المُسْلمة ولا تسافر إلا بمَحْرَمٍ يحافظُ على عِرْضها وشرفها، ويحولُ دون ما يُؤْذِيها ويُرْدِيها.

ويزداد السُّفُور الشَّرْعي في دمشق يومًا بعد يوم، ولا يلبث أن يسود على الحجاب أخيرًا. ومن الناس من يقاوم هذا التطور الحيوي، الذي لا مناص منه، بالسَّفَاه والشتائم لا بالحُجَّة والبُرْهان، بيد أن من عقلاء رجال الدِّين من يحبُّ للغانيات سُفُور الرَّاهبات الذي لا حُسُور معه، ويسعى لإعادة الحاسرات إلى سُفُور الشَّرْع المُحْتشم، الذي يكفل للمرأة تعلُّمَها وتقدُّمَها. والتربية الإسلامية في المنزل إذا كانت صحيحة، تُعِدُّ البنات للسُّفُور الشَّرْعي الشَّريف، الذي تُصان به الكرامة، وتُوقى به الحسرة والنَّدامة. وليت رجال الدين يتعاونون تعاونًا معقولًا، يتمكنون به من المحافظة على اعتدال المرأة المُسْلمة، ويبرهنون به على إمكان تعلم المرأة وتقدُّمِها

مع ذلك الاعتدال، وإلا فإنَّا لا نأمن جانب الفوضى في السفور الحاضر، كما نشاهد من نماذجه المشوَّهة الفاسدة في وادي الزبداني من برانيط البنات وقمطات[1] الأمهات، وارتياد السينما والقهوات، وغدًا البالات[2] والحانات، ومما أوحى إليَّ بالأبيات التاليات:

يا صبايا

يـــا صَـــبايا الزَّبَـــداني رَأْفَـــةً ... بهُـــواةِ الحُـــسْنِ مِنَّـــا يـــا صَـــبايا
قَنِّعُـــوا عمَّـــنْ يَـــرَاكُمْ أوْجُهًـــا ... صُـــقِلَتْ حتَّـــى حَـــسِبْناها مَرَايـــا
واسْـــتُروا عنَّـــا عُيُونًـــا خُلِقَـــتْ ... لقلـــوبِ المُـــسْتَهامِينَ بلايـــا
فَوَّقَـــتْ ألحـــاظُهُنَّ أسْـــهُمًا ... مُـــصْمِياتٍ نحـــنُ قـــد كُنَّـــا الرَّمايـــا
لـــستُ أدري مـــا الـــذي قـــد فَعَلَـــتْ ... أسِـــهامًا رَشَـــقَتْنا أمْ مَنَايـــا
قـــد سَرَى يَغْـــزو الـــورَى مِـــنْ فِـــتَنِ الـــ ... ـــعَيْنِ - مـــا أكثـــرَ صَرْعاهـــا - سَرَايـــا

* * *

يـــا ســـقى اللهُ المَنَادِيـــلَ التـــي ... صُـــنْتُمُ الأعْـــرَاضَ فيهـــا والمَلايـــا
ولحـــى اللهُ البَرَانِـــيطَ التـــي ... أخْـــذتِ الأحْـــسَابَ مـــنكُمْ والـــسَّجَايا
كـــمْ عَرِقْنـــا خَجَـــلًا مِـــنْ شُرْبِكُـــمْ ... عَرَقًـــا يَعْـــرِقُكُمْ دِينًـــا ورَايـــا
في مَحَـــارِ الـــصَّوْنِ كُنْـــتُمْ دُرَرًا ... كُـــنَّ لـــلأزْوَاجِ لا غـــيرَ هَـــدَايا
لم نكـــنْ نَـــأْمَنُ مـــنكُمْ فِتَنًـــا ... في الزَّوايـــا كيـــف مِـــنْ بعـــدِ الزَّوايـــا

---

(١) وهي التي تسمى بونه ***bonnet***.

(٢) كذا في الأصل، ولعلها «البارات»؛ والله أعلم.

والفـــؤادُ الحـــيُّ منَّـــا هَـــدَفٌ لعيـــــونٍ وخُـــــدودٍ وثَنَايـــــا

* * *

مـــسرحَ الآلامِ قـــد هِجْـــتَ لنـــا مـــن رَسِـيسِ الوَجْـدِ والحُـبِّ بقايـا
أنـــــا إنْ لمْ أكُ أنـــــسى زَمَنًـــــا مـــن حيـــاتي فَهْـــوَ هاتيـــك العَـــشَايا
يـــا رعـــاكَ اللهُ لـــولا سُرْبـــةٌ كُـــنَّ يَنْثُـــرْنَ عـــلى النَّـــاسِ الخَطايـــا
رائحـــاتٍ غادِيـــاتٍ ضَـــلَّةً بـــين «بُقَّـــين» مـــساءً و«مـــضايا»
ســـافراتٍ حـــاسراتٍ وغَـــدًا هُـــنَّ أنـــصافُ عَرَايـــا فَعَرَايـــا

دعوى الصعوبة في تعلم العربية[1]

في الثلث الأخير من الشهر الثالث من هذا العام أَلَّف التِّلْفاز[2] اللبناني العربي ندوة أدبية من ثلاثة أعضاء، ودار البحث فيها عن صعوبة تعلم العربية، وأن الطالب الأجنبي والمستشرقين يجدون في تعلُّمِها من المشاقِّ ما لا يجدون مثله في تعلم لغة أجنبية، وكان من الأعضاء اثنان ذهبا إلى أن تلك الصعوبة من طبيعة اللغة العربية، وأكد الثالث لرفيقيه أن مردَّ تلك الصعوبة إلى سوء أساليب التأليف والتعليم، ولو أن العربية كانت تُعلَّم للمبتدئين كما تُعلم اللغة الأجنبية بالأساليب المنطقية الحديثة، لما صعبت حين خفيت عليهم مطالبها، واستعجمت مذاهبها. وذُكرت في هذه الندوة كثرة الأسماء في العربية للمسمَّى الواحد، وأنها مما يتحير له البادئ، فلا يدري بأيها يأخذ، ولا أيها هو بالاستعمال أجدر وأولى.

ونحن رأينا بعض تلك المصاعب أيام الطلب، ومنها كثرة الوجوه في الإعراب،

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الثالث، المجلد الحادي والأربعون، تموز (يوليو) سنة ١٩٦٦م/ ربيع الأول سنة ١٣٨٦هـ

(٢) التلفاز استعملها مجمع اللغة العربية بدمشق للتلفزيون، وهي على وزن تِبْيان وجِلْواز، وتشتق منها التلفزة مصدرًا.

والتعليل النحوي والصرفي، ثم عرفنا بعد ذلك أن أمثال تلك الصِّعاب إنما نشأت من سوء تأليف تلك الكتب للأحداث والمبتدئين، ومن فَقْدِ حكماء المعلمين المُحْكِمين لصناعة التعليم والتفهيم؛ فمن سوء تأليف تلك الكتب المدرسية أنها مؤلفة على الطريقة التقريرية بقواعد يكثر فيها التجريد، وتقلُّ عليها الأمثلة والشواهد، فهي بذلك فوق مستوى عقول المبتدئين، الذين يجب أن يتدرَّجوا في دروس القواعد، من المحسوس الواضح إلى المجرد الغامض، ومن السهل إلى الصعب. والمعلم البارع يبدأ بتعليم المفردات الفصيحة التي يُحتاج إليها في الكلام، ثم بتعليم تركيبها مع الأفعال تركيبًا صحيحًا، ثم يُطالب تلاميذه باستعمال هذه التراكيب في محاوراتهم ومحادثاتهم، ويعلمهم تصريف الأفعال الضرورية للمحادثة، مجنِّبًا إياهم إعراب الجُمَل الصعبة، وحفظ عباراته الطويلة التي يلوكونها، ولا يدركون لها معنى.

الشَّواذ والغوامض في اللغات الأجنبية: وقلما خلت لغة أجنبية من الشواذ، وفي اللغة الفرنسية كثيرٌ من تلك الشواذ في النحو والصرف معًا، وهي من طبيعة هذه اللغة التي اعتوروها بالإصلاح كثيرًا، ولم تتعرَّض لها كتبُ النحو عندهم، ولا يذكر المعلم الفرنسي علل التحول في تصريف فعل الكون مثلًا ***verbe être*** لكيلا يتحير عقل التلميذ في إدراك السر من تحول الفعل ***je suis*** في الحاضر إلى ***je serai*** في المستقبل، أو في تحول فعل الذهاب ***aller***، لِمَ يقول المتكلم ***je vais*** والمتكلمون ***nous allons*** وفي المستقبل ***j' irai***؟ وفي جموعهم كثير من الشواذ، وليست المفردات تنتهي بحرف ***s*** في جموعها كلها، فإن الطالب لا يدري لِمَ كان اسم الشغل ***le travail*** يجمع ***les travaux***، ولِمَ ***mal*** يجمع على ***maux*** و ***chacal*** ابن آوى لا يجمع مثلها، ويجمع على ***des chacals*** بحرف ***s*** لا بـ ***aux***؟ ولو سأل الطالب معلمه

عن سر هذه الشواذ لقال له: هكذا يتكلم الفرنسيون جوابًا على السؤال، وكفى الله المتعلمين شرور العلل والجدال.

ومن صعوبة الرسم في الفرنسية أن من الأحرف ما يكتب ولا يلفظ، كعلامة الجمع ***ent*** في جميع التصاريف، ولا يدري الطالب لِمَ يكتب اسم البنت ***la fille*** بلامين يلفظهما ياء، ولا يكتب كذلك اسم الحياة ***la vie***؟

ولو أردنا استقراء هذه الشواذ والمشاكل في اللغة الفرنسية، ولا يعرف الطالب العربي لتفسيرها وتعليلها وجهًا منيرًا، لخرجنا من موضوعنا إلى غيره.

طريقة التهجئة القديمة: لقد كان تعلم القراءة قديمًا آليًّا بصيغ يلوكها المبتدئ في التهجئة، ولا يفقه لها معنى، أيام كان شيوخ الكتاتيب لا يفكرون في تيسير القراءة على الصبيان، فكانوا يرقصون أمام شيخهم وهم يقرؤون ألواحهم، وأنا ممن تعلم على هذه الطريقة المنهكة المضحكة، ثم أخذ رجال التربية والتعليم إبَّان النهضة الفيصلية، وعلى رأسهم المربي العربي الكبير الأستاذ ساطع الحصري، الذي عالج على عهد الملك فيصل الأول مشكلة القراءة العربية، فوضع «مبادئ القراءة الخلدونية»، وهي أول رسالة عربية في القراءة الصوتية، ثم جرى المعلمون بدمشق وغيرها على طريقته هذه المثلى.

وبذلك عولجت القراءة العربية، وأصبحت بفضل الطريقة الصوتية سهلة على المبتدئ العربي سهولة الفرنسية على المبتدئ الفرنسي، وبقيت قضية الكتابة العربية والإملاء، وبالطريقة الصوتية أيضًا ذُللت صعابها، برسم مقاطع الكلمات بحسب أصواتها المسموعة، فيكتب التلميذ كما يسمع «والضحا، والليل إذا سجا» بالألف مطلقًا[1]، فلا يشغل صدره الضيق وعقله المحدود بالحالة التي يكتب فيها الاسم أو

(١) هذا رأي في التيسير للصبيان.

الفعل بالألف في آخرهما، ولا بالحالة التي يُكتب آخرهما بالألف المقصورة كالفتى والعصا؛ وقد أجاز الإمام الفرَّاء مثل هذه الكتابة تيسيرًا لها، كما أجاز الإمام مالك كتابة المصاحف بغير الرَّسم العثماني تيسيرًا على الصبيان الذين يقرؤون القرآن.

تيسير الكتابة بالطريقة الصوتية: وكنت قد وضعت لوزارة المعارف السورية رسالة في الكتابة الصوتية، نشرتُها في مجلتها التربوية، وطبعتُها رسالة على حدة، ويذهب اليوم كثيرٌ من المعلمين هذا المذهب في تعليم الكتابة. على أن في الفرنسية – كما بيناه – وفي الإنكليزية والألمانية كثيرًا من هذه المُشْكلات الكتابية، والحروف التي تكتب ولا تقرأ، ولم يقلِ المشرفون على تعليم هذه اللغات، غيرةً عليها وحرمةً لسلفهم، بوجوب حذف زوائدها، وتبديل قواعدها.

هذا، وقد تحسنت أصول تعليم القراءة والكتابة في أيامنا هذه كثيرًا، كما صلحت كتب النحو والصرف المدرسية، التي حذا مؤلفوها حذو كتب المتعلمين للغات الأجنبية، فلا نرى فيها تلك الفلسفة الإعرابية، ولا التحاويل الصرفية التي لا يرجع الطالب منها إلى محصول، ولا تُسفر له عن معنى معقول، وليس في هذه الكتب ما يتعبُ المبتدئَ حِفْظُه من المفردات الفصيحة المختارة، ولا من كثرة الأسماء للمسمَّى الواحد، كما زعمت الندوة التِّلْفازية، فهو لا يتعلم إلا اسم السيف، ويركِّبُ عليه جُمَله الكلامية؛ وأما بقية أسمائه، وهي في الواقع من صفاته، فموضعها بطون المعاجم اللغوية، والأدباءُ من الدَّارسين للأدب العربي في حاجة ماسَّة إلى البحث عنها لفهم هذا الأدب، شعرًا ونثرًا، وبما ذكرناه يتضح لنا أن تلك الصعوبة التي يعيبون بها اللغة العربية ترجع إلى سوء التأليف، وضعف صناعة التعليم.

لجنة تيسير القواعد العربية: وهذه لجنة تيسير قواعد اللغة العربية، التي ألفتها وزارة المعارف المصرية[1]، ترى من تيسير تعليم العربية حذف ذلك الإعراب الفلسفي التقديري والمحلي معًا، بل ذهبت إلى حذف كل إعراب غامض؛ كإعراب صيغ التعجب، والتحذير، والإغراء، والنُّدْبة، والاستغاثة، والمدح والذم، بل ترى أن تحذف من علم الصرف ما هو من أبحاث فقه اللغة، وأن لا تبقي منه إلا ما يحتاج المبتدئ إليه من تصريف الأفعال، وما لا يستغني عنه في البيان.

ونحن من الإصلاح اللغوي لا نريد إصلاح اللغة، بل إصلاح أساليب تعليمها، وطرق تأليف كتبها، فيبقى جوهر اللغة سليمًا. وأذكر أني – أيام كنت مفتشًا للغة العربية – شاهدتُ معلمًا في حلب كتب على اللوح الأسود صيغتي التعجب، «ما أَسْهَلَه، وأَسْهِلْ به»، وعجز عن إفهام تلاميذه إعراب الصيغتين، كما عجز طلابه عن فهم كلامه، وكان أحد الأذكياء منهم يقول لأستاذه: أنا لا أفهم كيف يكون فعل الأمر فعلًا ماضيًا في إعراب «أَسْهِلْ به»، حين نقول «أَسْهِلْ» فعل ماض جاء على صورة الأمر، ولم يدرك في إعراب «به» من هذه الصيغة كيف تكون الهاء المكسورة فاعلًا، والفاعل لا يكون إلا مرفوعًا!

ولذلك أحسنت لجنة تيسير القواعد المصرية باقتراحها أن يقال في إعراب جملة التعجب «ما أَسْهَلَ النَّحْوَ»: إنها صيغة تعجب، والاسم المتعجَّب منه بعدها منصوب، وكذلك في إعراب «أَسْهِلْ به»، يقال «أَسْهِلْ» صيغة تعجب، والاسم بعدها مكسور مع حرف الجر. واقترحتُ في إعراب عبارات التحذير والإغراء،

---

(١) بمساعي وزيرها الغيور بهي الدين بركات، ومن أعضائها طه حسين، وأحمد أمين، وإبراهيم مصطفى، وعلي الجارم.

مثل: «إياك والنارَ»، أو «النارَ النارَ»، أن يقال في كلٍّ من هاتين الجملتين إنها صيغة تحذير، والاسمان بعدهما منصوبان ليس غير، ولا حاجة إلى تقدير العامل.

من أسباب الصعوبة كثرة وجوه الإعراب: وحسبنا منها أن نذكر كثرة تلك الوجوه في إعراب مثل ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾[1]، فقد ذكر النُّحاة قديمًا أنَّ لإعرابها وجوهًا ستة، كما ذكروا في إعراب البسملة تسعة أوجه، سبعة منها جائزة الإعراب، ووجهان لا يجوزان، وهما:

إنْ يُنْصَبِ الرَّحمنُ أو يرتفعا فالجَرُّ في الرَّحيمِ قَطْعًا مُنِعا

ومثل هذا الإعراب الكثير الوجوه والإعنات، مما يقصد ببعضه الامتحان والمُعاياة، وكان كثيرٌ من الطلاب يكرهون لأجله درس النحو بالأزهر، وفرَّ بعض الأئمة من الأزهر كلِّه راجعًا إلى قريته، ولولا أن تداركه بعضُ أقربائه الذي أدرك سر فراره، وأخذ يلقنه مبادئ النحو متدرِّجًا به من المحسوس إلى المعقول، ومن السهل إلى الصعب، ففهم بذلك من معلمه القريب اللبيب ما لم يستطع فهمه في الأزهر، والتذَّ بالنحو ودروسه، فرجع إلى الأزهر، وهو أفهم وأعلم من رفقائه الذين لم يظفروا بمثل معلمه البارع في أصول التعليم، ولولاه لما أصبح من علماء الأزهر، وأئمة المسلمين المصلحين، وذلك مما يثبت أن صعوبة اللغة العربية هي من سوء التعليم، وفساد طريقة التلقين والتفهيم، وإن هنالك من اللغات ما هي أصعب من العربية، ويتعلمها الطالب لحُسْن أساليب التعليم بأسرع وقت وأيسر سبيل، والمبتدئ العربي والأجنبي في ذلك سواء.

كثرة التجريد في قواعد النحو: وقد انتبه لما في قواعد النحو من التجريد، الذي

---

(١) قلت: الآية ٦٣، سورة طه.

لا يلائم مدارك الصبيان، الأستاذُ ساطع الحصري في كتابه «دروس في أصول التدريس»[1]، كتعريف الفعل الماضي في بعض الكتب على الوجه التالي: «الفعل الماضي ما يدلُّ على معنى مستقلٍّ بالفهم، والزمن جزءٌ منه». فيقول الأستاذ: لا شك أن هذا التعريف مجرد جدًّا، فلا يلائم مدارك الأطفال، وزد على ذلك أنه غير جامع ولا مانع، لأن هنالك كثيرًا من الكلمات التي لها معنى مستقل بالفهم والزمن جزء منه، كما جاء في التعريف، مع أنها لم تعتبر من الأفعال باتفاق جميع علماء اللغة، مثل: قديم، سريع، ماضٍ، آتٍ، متأخر، ومستمر، وهلم جرا، فيجب علينا أن لا نعتمد على هذا التعريف، وأن نرجِّح عليه التعريف الذي يستند إلى المفهوم الحديث: «الفعلُ ما يدلُّ على حَدَثٍ مقترنٍ بزمن».

كذلك التعريفات المبنية على الإعراب لا على المعنى، مثل تعريف الفعل اللازم على الصورة التالية: «الفعل اللازم ما لا ينصب المفعول به، والفعل المتعدي ما ينصب المفعول به». فلا حاجة بنا إلى ذكر أن هذا التعريف بمثابة تعريف الشيء بما هو أغمض منه، وبما يحتاج إلى تعريف أكثر منه، إذ ليس من الممكن أن يعرف التلميذ ما إذا كان للفعل مفعول به أم لا، فلا يجوز أن يقال ذلك، بل يجب أن يقال: «إن المفعول به يلفظ منصوبًا، وإن الأفعال اللازمة لا يكون لها مفعول به».

ثم نرى هذا المؤلف الحاذق ينتقل إلى بحث علامات الكلمات، وإلى تعريفها وتوضيحها، فيقول ما نصه: واعتادت الكتب المدرسية أيضًا أن تذكر تلك العلامات، فتقول: علامة الماضي أن يقبل تاء الفاعل، أو تاء التأنيث الساكنة، وعلامة المضارع أن يصحَّ وقوعه بعد (لمْ)، وأن يبتدئ بحرف من حروف أنيت،

---

(١) ١٥٣/٢

وعلامة الأمر أن يقبل نون التوكيد[1].

لذلك نرى معظم المعلمين قديمًا وحديثًا يهتمون بتعليم هذه العلامات، وباستجواب الطلاب فيها، وكثيرًا ما يسألونهم عندما يجيبهم أحد التلاميذ بأنه ماض أو مضارع: كيف عرفت ذلك؟ هل يقبل تاء الفاعل، هل يصح وقوعه بعد لم؟ هل يبتدئ بأحد حروف أنيت؟ وهَلُمَّ جرًّا...

ومن المعلوم أن علامة الشيء منطقيًّا يجب أن تكون أوضح وأظهر من الشيء نفسه، فتعليم علامةٍ ما لا يكون مفيدًا إلا إذا كان فهمها وتمييزها من غيرها، أسهل بكثير من فهم الشيء نفسه وتمييزه من غيره، أما العلامات المذكورة فلم تكن من هذا القبيل.

ومن البديهيات أن تمييز فعل الأمر بحسب معناه، أسهل بكثير من معرفة ما إذا كان يقبل نون التوكيد أو لا، بل أسهل من معرفة نون التوكيد نفسها إذا كانت متصلة بالكلمة ولاحقة بها حقيقة، وكذلك تعريف الفعل الماضي بالنظر إلى معناه أسهل من معرفة ما إذا كان يقبل تاء الفاعل، أو تاء التأنيث الساكنة.

ذلك لأن هنالك كثيرًا من الكلمات التي تبتدئ بالتاء، أو تنتهي بها، وليست مضارعًا ولا ماضيًا ولا فعلًا، فكلمات «تابوت، حانوت، بنات، نبات» هي من هذا القبيل. أما القول بأن التاء في هذه الكلمات هي من المادة الأصلية، فإنها لا تبطل

---

(١) ويقول ابن هشام في كتابه «شذور الذهب في كلام العرب»، ما نصه: «والفعل إما ماض، وهو ما يقبل تاء التأنيث الساكنة، كقامت وقعدت. أو مضارع، وهو ما يقبل (لم)، كلم يقم، وافتتاحه بحرف من نأيت مضموم إن كان الماضي رباعيًّا، كأُدحرج وأجيب، ومفتوح في غيره، كأضربُ وأستخرج. أو أمر، وهو ما دل على الطلب مع قبول ياء المخاطبة، كقومي. أقول: ونرى ابن هشام يميز فعل الأمر بحسب معناه قبل العلامات، كما يريد الأستاذ الحصري.

الملاحظات الآنفة، لأن معرفة المادة الأصلية وتمييزها من مزيداتها، أصعب من معرفة الأفعال، ومن تمييز بعضها من بعض، زد على ذلك أن كثيرًا من الكلمات تبتدئ بتاء مزيدة على المادة الأصلية، وهي ليست فعلًا مضارعًا، مثل: تورَّطَ، تبارك، تكرَّر، وهَلُمَّ جرًّا.

كذلك نرى الأستاذ يذلِّل كثيرًا من صعاب تعليم القواعد بطرق صحيحة معقولة، وهو مما يدلُّ على أن مردَّ أكثر تلك الصعوبة إلى سوء التأليف والتعليم، لا إلى طبيعة اللغة العربية، فإن في اللغات الإغريقية واللاتينية والألمانية من المشاكل ما هو أعضل من مشاكل العربية، التي يقول في منطقيتها رئيس القسم العربي لطلابه في مدرسة الدراسات الشرقية بلندن[1]: «إن اللغة العربية إنما يُسلس لكم قِيادها إذا استعنتم عليها بالمنطق السليم».

طريقة التعليم بالنصوص: وذلك باختيار كتب للقراءة، مؤلفة من نصوص عربية مختلفة، يتمرَّن الطالب الإعدادي حين القراءة في الدرس على أن ينطق المفردات والمركبات نطقًا صحيحًا، ويستعين بفهم النص على معرفة مواقع الكلمات وحركات حروفها الأخيرة، فإذا لفَظَ كلمة مرفوعة سأله المعلم عن سبب الرفع، وعن سبب نصبها أو جرها إن نطق بالكلمة منصوبة أو مجرورة، كما يسأله عن العوامل، وعَمَلِ كلٍّ منها، وبذلك ترسخ القواعد التي درسها في ذهنه، وتقوى فيه مَلَكة القراءة الصحيحة، وبذلك تتوحَّد لهجات أبناء الصف إن كانوا من مناطق مختلفة، ويتعلمون كثيرًا من الألفاظ والجمل القويمة التركيب، ويحسن بالمعلم البارع

(١) ورئيس القسم العربي هذا هو السير طوماس آرنولد، كما جاء في رسالة الأستاذ إسحق موسى الحسيني: «رأي في تدريس اللغة العربية».

اتخاذ هذه الطريقة في الصفوف الإعدادية والثانوية، ولا يكلمهم فيها إلا بجمل صحيحة وألفاظ فصيحة، وأفضل طريقة لتعليم العربية للمبتدئين هي طريقة المحادثة التي سنبين مزاياها. وبما ذكرناه يتضح لنا جليًّا أن تلك الصعوبة المبالغ فيها مردُّها إلى جهل المعلم بأساليب التدريس، وإلى سوء تأليف كتب المبادئ التي يتعاور قواعدها النحوية كثير من التجريد والتعقيد، فليست تلك الصعوبة إذن من طبيعة اللسان العربي المبين.

أسباب صعوبة[1] **الإعراب**: فمن أسباب صعوبة الإعراب في لغتنا أن لا يوجب المعلم على طلابه حينما يتعرَّضون لإعراب آية من الكتاب، أو بيت من الشعر، أو قول من النثر، أن يهتموا بادئ الرأي بفهم معنى ما يعربونه فهمًا صحيحًا، ولا يسرعوا في الإعراب قبل ذلك بالعبارات التي اعتادوا أن يمضغوها ولا يفهموها، فكثيرًا ما تزلُّ قدم المعرب بهذا الإسراع، وقد نبَّه لذلك الإمام ابن هشام في «مغنيه» حين ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض بها على المعرب، فأكد أن الجهة الأولى أن يراعي المعرب ما يقتضيه ظاهر صناعة الإعراب، ولا يراعي المعنى، قال: وكثيرا ما تزلُّ الأقدام بسبب ذلك، وذكر لذلك أمثلة جمة، منها ما حكاه بعضهم أنه سمع شيخًا يعرب لتلميذه (قيمًا) من قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾[2]، فجعل (قيمًا) صفة لـ (عوجًا)، قال ابن هشام، فقلت له: يا هذا، كيف يكون العوج

---

(١) قلت: في الأصل «سهولة»، وهي سبق قلم.

(٢) من الآية الأولى والثانية من سورة الكهف، وهما: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

قيمًا ! وترَّحمت على من وقف من القُرَّاء على ألف التنوين في (عوجا) وقفة لطيفة، دفعًا لهذا التوهم، وإنما (قيِّمًا) حال من اسم محذوف هو وعامله، أي: أنزله قيمًا.

إعجاب المستشرقين بالإعراب: ومن شيوخ المستشرقين من جعل الإعراب من مزايا اللغة العربية، وهو الأستاذ ماسينيون، الذي قال في بحث له بمجلة مجمع مصر اللغوي[1]، ما نصه: «إن اختراع الإعراب ليس كما يزعم أكثر المستشرقين اختراعًا باطلًا، وإنما هو توحد صحيح، وربط بين الأسماء والأفعال المضارعة، والجمل التي لها محل من الإعراب، وهذا للغة العربية فضل عظيم لا يمكن إبقاؤه إلا بالاستمساك بالكتابة العربية، إلى أن يقول: وقد ذكرت كيف آمنتُ بعبقرية النحو، ورفضت مذهب تغيير الكتابة العربية بحروف لاتينية».

اختلاف لغة الخطاب عن لغة الكتاب: على أن من الأسباب الأساسية لصعوبة تعليم العربية اختلاف اللغة العامية عن اللغة الفصحى، والمعلمون البارعون يبذلون جُهاداهم[2] للتغلب على هذه العقبة بتمرين التلاميذ على التكلم بجمل صحيحة، وألفاظ فصيحة، بطريقة المحادثة والاستجواب، ولا يكلمهم المعلم، ولا يلقي عليهم الدرس إلا باللغة الفصحى، لأن التلميذ الذي لا يسمع من معلمه إلا التراكيب الصحيحة، والمفردات العربية، يسهل عليه التخاطب بمثل ما اعتاد سماعه، كما كان الصبي العربي في صدر الإسلام، لا يتكلم إلا بالفصحى التي يسمعها في منزله من والديه، ومن أقربائه وأترابه في بيئته ومَرْباه، فهو يعرب بالسليقة العربية، فيرفع بطبعه الفاعل الذي يفعل الفعل، وينصب المفعول، ويجرُّ

(١) المجلد التاسع، ص ٥٧

(٢) كذا في الأصل، ولعلها: جهادهم.

الأسماء بعد حروف الجر وعند الإضافة، ذلك أن الصبيان يتعلمون بآذانهم قبل ألسنتهم، وانطباعهم على لغة الأسماع يسهِّل عليهم تركيب الجمل العربية القويمة، وييسِّر عليهم فهم قواعد اللغة المستنبطة من الكلام العربي القويم، وهو ما يسرعون معه في فهم القواعد لمشابهتها لأصول كلامهم الذي به يتخاطبون.

وذلك مما يوجب علينا أن نعوِّد أبناءنا التكلم بالفصحى، وأن لا نكلمهم في منازلنا، إن استطعنا، إلا بالفصحى، ويكثر المعلم من استجوابهم بالفصحى، وهو مما يوجب علينا أن لا نشرع في تعليمهم لقواعد لغتهم إلا بعد بضع سنين من التمرين الشفهي، والمحادثة بلغة صحيحة، والطالب الأجنبي والمستشرق يجب أن يتعلم في كتب مؤلَّفة على نمط الكتب التي تعلَّم بها لغته، وأن لا يشرع في تعلم قواعد النحو والصرف إلا بعد أن تقوى لغته العربية بطريقة المحادثة، ويستطيع الإجابة بالجمل العربية الصحيحة. وطريقة المحادثة هذه، هي لتعلم اللغات، الطريقة الطبيعية والسَّليقية المثلى.

وبهذه الطريقة نرى أن الصبي العربي الذي اكتسب ملكة الإفصاح عما في قلبه، يستطيع الانتباه إلى الجمل غير القويمة، شأن ذلك الأعرابي الذي كان إذا كلَّموه في القرى بلغة غير صحيحة مجَّها فوه، وردَّها بسليقته العربية، ولسان حاله يقول للنحويِّ الذي لا يُبين:

ولستُ بنحويٍّ يلوكُ لسانَهُ ولكنْ سليقيٌّ أقولُ فأُعْرِبُ

* * *

نيل المنى[1]

بعـد أنْ جرَّبْـتُ هـذا الزَّمنـا ... وبنيـه باحثًـا عـمَّا خَفِـي
لم أجـدْ أجمـلَ مـن نَيْـلِ المُنـى ... والرَّبيـعِ الغـضِّ والخِـلِّ الـوفي

* * *

أيُّهـا الغـادِي عـلى وَجْنائِـهِ ... يَنْهَـبُ البِيـدَ إلى وادِي الغَـضَا
ضَـلَّ في التَّيْهَـاءِ مـن جَرْعائِـهِ ... واللِّـوَى لَمَّـا عليـه أرْمَـضَا
كـادَ في تَنْقِيبِـه عـن مائِـهِ ... ظمـأً يَقْـضِي وألَّا يَنْهَـضَا
فبـدا المـاءُ لـه بعـدَ الـوَنَى ... وهـو يجـري بـين رَوْضٍ أُنُـفِ
لن ترى في الكَوْنِ شيئًا أحْسَنا ... مِـنْ بَلِيـلِ غُلَّـةِ المُعْتَـسِفِ

* * *

أتـرى التَّـاجِرَ لَمَّـا أبْحَـرا ... قارِعًـا للـرِّزْقِ أبـوابَ الـبلادْ
فـارَق الأحبـابَ حتَّـى كَـوْثَرا ... عِرْسُـه تبكـي عليـه وسُـعادْ
فقـضى هـذا الغريـبُ أشْـهُرا ... سـاعِيًا بـين رَوَاجٍ وكَـسَادْ

(١) موشَّحة نظمها التنوخي صباح الجمعة ٢١ نيسان ١٩٢١م/ ١٣ شعبان ١٣٣٩هـ، وهي بخطه في أوراقه لدى أسرته، لم أقف لها على عنوان، فاخترت لها هذا العنوان

مـا الـذي غَرَّبَـهُ لـولا المُنـى وبهـا يُكْـسى بُـرُودَ الـشَّرَفِ
ودَّع الأهـــلَ لهـــا والوَطَنـــا ومريـرَ العَـيْشِ بعـدَ المَـأْلَفِ

❊ ❊ ❊

أو تـرى الوَالِـهَ يبكـي إلْفَـهُ بعـد أن ودَّع للبَـيْنِ الحُمُـولْ
راجعًا والعِيسُ سارتْ خَلْفَهُ تَتْبَـعُ الظَّعْـنَ وعنـه لا تَحُـولْ
ظـلَّ دَهْـرًا وهـو يَـشْكُو ضَـعْفَهُ يَـسْأَلُ الرُّكْبـانَ عنـه والطُّلُـولْ
يـا طبيبًـا قـال: نَبْـضِي سَـكَنا جُسَّ رِفْقًا نَبْضَ قلبي المُدْنَفِ
ليس يَـشْفِيني سـوى نَيْـلِ المُنى طبِّبُـوا قَيْـسًا ولكـنْ مـا شُـفِي

❊ ❊ ❊

وســليمُ الطَّبْــعِ لا يَــسْحَرُهُ من فُصولِ الحَوْلِ فَصْلٌ كالرَّبيعْ
راعَ في جِلِّقِنـــا مَنْظَـــرُهُ إذْ لـه مـن حُـسْنِهِ ألـفُ شـفيعْ
فخـدودَ الغِيـدِ يَحْكِـي زَهْـرُهُ والعيونَ النَّرْجِسُ الزَّاهي البديعْ
عـانق الغُـصْنُ لـذاك الغُـصنا حين مال الـورد نحـو الـضِّفَفِ
وزهـا خَـدُّ الـشَّقيقِ الـسَّوْسنا بريـاضٍ رَفَلَـتْ في زُخْـرُفِ

❊ ❊ ❊

هــذه الغوطــةُ مــا أبْهَجَهــا وهـي في نيـسانَ قيـدُ المُجْـتلي
قـال سـبحانَ الـذي دبَّجَهـا مَـــنْ رآهـــا فِتْنـــةً للمُقَـــلِ
إنَّـــه قـــد شـــاءَ أن يُخْرِجَهـــا جَنَّـــة في الأرضِ للمُـــسْتَعْجِلِ
تحتَهـا الأنهـارُ تجـري والجَنـى ذاكَ وَقْـــفُ الله للمُقْتَطِـــفِ
كـلُّ مـا فيهـا يـروقُ الأعينـا نُجْعَـةُ الرَّائِـدِ نُـزلُ المُعْتفـي

❊ ❊ ❊

غـرَّدَ الـشُّحْرُورُ قُـرْبَ الـسَّحَرِ طَرَبًـا للنُّـورِ يـأتي رائِعـا
وشـدا البُلْبُـلُ بـين الـشَّجَرِ لنَـسِيمٍ هـبَّ مِـسْكًا سـاطِعا
وأنـا غَنَّيْـتُ بـين البَـشَرِ ناشِـدًا خِـلًّا لـشَمْلي جامِعـا
لم أجـدْ خِـلًّا وفيًّـا رَهَنـا للمَعَـالي نَفْـسَه والـشَّرَفِ
غـيرَ خِـلِّي مَـنْ غـدا مُفْتِننـا بوفـاءِ الخِـلِّ والخِـلِّ الـوفي

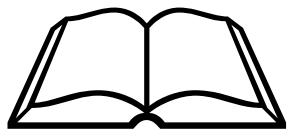

صوت دمشق[1]

عـاشَ فـوق الثَّـرى وتحـتَ الـتُّرْبِ ... خالـــدًا في قلوبِنـــا المُتَنَبِّـــي
ظـلَّ ألفًـا مـن الـسِّنينَ يُـسَمَّى ... شـاعِرَ اللَّفْـظِ والعُـلى والحَـرْبِ
رُبَّ بيـتٍ مِـنْ شِـعْرِه يتلظَّـى ... كـافِلًا أن يَـشُبَّ نـارَ الـشَّعْبِ
يـصفُ الحَـرْبَ للجبـانِ فيغـدو ... وَهْـوَ بـالطَّعْنِ هـائمٌ والـضَّرْبِ
يـا لِعَـينٍ مـن شِـعْرِه العَـذْبِ فيـهِ ... غمـزاتُ الهـوى وسِـحْرُ القلـبِ
ذابَ مِـنْ رِقَّـةِ الخلـودِ ومـن قَـسْـ ... ـوةِ قلـبٍ مـن عـاذلٍ غـيرِ صَـبِّ
غَـزِلٌ حُـسْنُ صـوغِهِ حَمَـلَ الظَّـ ... ـنَّ عـلى أنَّـهُ صريـعُ الحُـبِّ
يَـذَرُ الغافِـلَ الخَـلِيَّ شَـجِيًّا ... ويـرُدُّ الأبيَّ طوعًـا يُلبِّـي
سـاحِرُ الـشِّعْرِ فاتنًـا كهَـدِيلِ الـ ... ـوُرْقِ في الرَّوْضِ غِبَّ جَوْدِ السُّحْبِ
رائـدٌ مِـنْ مـسالكِ الـرُّوحِ مـا بَيـ ... ـنَ شَـغَافٍ مـن القلـوبِ وخِلْـبِ

* * *

يَحْتَـذِي في البـديعِ حَـذْوَ أبي تمـ ... ـامَ والبُحْـتُرِيْ بنَـسْجِ العَـصْبِ

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الرابع عشر، تموز (يوليو) سنة ١٩٣٦م/ ربيع الثاني سنة ١٣٥٥هـ.

إنْ يَعِيبُوه بالغريبِ وضَعْفِ الـ ـطَّبْعِ حِينًا وباقتعادِ الصَّعْبِ
فَهْوَ شِبْه الجَبَّارِ يأخذُ ما يلـ ـقاه بالقَهْرِ حولهُ والغَصْبِ
شِعْرُه فَيْضُ طَبْعِه لا كشِعْرٍ قدَّه العِيُّ من صخورٍ صُلْبِ
لم يُؤَوَّلْ ديوانُ شِعْرٍ كديوا نِ أبي الطَّيِّبِ المريرِ العَذْبِ
هو مُرٌّ على الأعادي وعَذْبٌ للمُحِبِّينَ في الجَفا والقُرْبِ
لستُ أنسى رُؤْياه وَهْوَ مَلِيكٌ فوق عَرْشٍ من القَنا والكُتْبِ
وحَوَالَيْه دولةُ الشِّعْرِ قامتْ تَسْلُبُ اللُّبَّ بالبيانِ وتَسْبي
من رعاياه سيفُ حمدانَ مَنْ كا نَ إذا ما ذكرتُهُ قلتَ حَسْبي
والسَّرِيُّ الرَّفَّاءُ أنْدَاهُمُ لفْـ ـظًا وأدْناهُمُ لمعنى القَلْبِ
وابنُ جنِّي رأيتُهُ يَشْرَحُ الدِّيـ ـوانَ شَرْحًا لهُ يَروقُ ويُصْبي
لو حَسِبْناهُمُ مِنَ الطَّيْرِ كان الـ ـمُتَنَبِّي أميرَ ذاكَ السِّرْبِ
يُنْشِدُ الشِّعْرَ بينهمْ فتراهُمْ كالرَّحى إذْ تدورُ حولَ القُطْبِ
كسُكارى وما هُمُ بسُكارى بل نَشَاوى خَمْرِ الهوَى والعجْبِ
سَمِعُوا لحْنَهُ فهامُوا جميعًا لا ترى غيرَ هائمٍ أو صَبِّ
برَخِيمٍ يُنْسِيكَ مِزْمارَ داو دٍ وألحانَ مَعْبَدٍ في الحُبِّ
فَهْوَ فيهمْ ذاك الطَّبيبُ المُرَجَّى مِنْ مريضٍ لروحِهِ مُسْتَطِبِّ
حَفِظَ النَّاسُ شِعْرَهُ فهْو دَرْسُ الـ ـدَّهْرِ فيهمْ والدَّهْرُ خيرُ مُرَبِّي

* * *

كم وَرَدْنا ماءً فلم يَرْوِ مِنَّا ظَمَأً غيرُ مُسْتقاه العَذْبِ
وتلوْنا من آيِهِ سُوَرَ المَجْـ ـدِ وشِمْنا بَرْقَ المُنَى ليس يُخْبي

حِكْمــةٌ يَبْهَــرُ المَعَــرِّي سَــناها ... فَهْيَ صَوْبُ النُّهَى وذَوْبُ اللُّبِّ

حالفَتْــهُ منــذُ الــشَّبيبةِ حتَّــى ... أنْ تَــوَارى فــؤادهُ في الــتُّرْبِ

لم يَـذَرْها يـومَ الـصَّريخِ ولا يـو ... مَ نـشيدِ الأحلـانِ بـين الـصَّحْبِ

يَـنْظِمُ البيـتَ غادِيًـا وَهْـوَ في الـشَّرْ ... قِ فَيُمْـسي لِـسِحْرِهِ في الغَـرْبِ

حلـبٌ قـد غـدتْ بأحمـدَ شَـهْبا ... ءَ لـشِعْرٍ[1] لـهُ خُلـودُ الـشُّهْبِ

مادِحَ السَّيْفِ كان يُدْعَى فأمسى الـ ... ـسيفُ يُـدْعى أُمْدُوحـةَ المُتَنَبِّـي

إنَّ مَجْـدًا أُوتيـه أخْلـدَهُ الدَّهـ ... ـرُ خلـودَ الآدابِ مَجْـدُ الـشَّعْبِ

ضَامَهُ أنْ يرى بني العُرْبِ في ضَيْـ ... ـمِ عُلُـوجٍ بغـيرِ عَهْـدٍ ولُـبِّ

وبنـو العُـرْبِ لـيس تُفْلِـحُ إلَّا ... بمُلـوكٍ مـنهمُ أُبـاةٍ عُـرْبِ

لا يبـالي الـشَّرْقُ المَـضِيمُ إذا مـا ... اتحـدَ العُـرْبُ سـاعةً بـالغَرْبِ

يَثِـبُ اللَّيْـثُ إنْ أُثِـيرَ وليـثُ الـ ... ـعُرْبِ في النَّاسِ رابـضٌ للوَثْـبِ

أيَّ يـومٍ أرى الطَّلائِـعَ مِنَّـا ... غـائراتٍ عـلى الجِيـادِ القُـبِّ

يَهْجُـرُ الطِّـرْسَ والـيَرَاعَ فتانـا ... لـيَرَاعٍ مـن القنـا والقُـضْبِ

لا يـرى المَجْـدَ غـيرَ فَتْكَتِـهِ البِكْـ ... ـرِ ونيـلِ اسْـتِقْلالهِ بالغَـصْبِ

ذاكَ يـومٌ مُحَجَّـلٌ فيـه تحطيـ ... ـمُ قيـودٍ وفيـه تهتيـكُ حُجْـبِ

ذاك يـومٌ يَقِـرُّ عـينَ أبي الطَّيـ ... ـبِ بـالعُرْبِ وَهْـوَ تحت الـتُّرْبِ

إنَّـما شِـعْرُه الـشُّعُورُ المُـرَوَّى ... بـسُلافٍ مـن البلاغـةِ عَـذْبِ

حُـسْنُهُ يَـسْتُرُ الـشَّوَائبَ حتـى ... لا تـرى غـيرَ سـالمٍ مـن عَيْـبِ[2]

---

(١) في مجلة الرسالة: لشعب، وإخالها تصحيفًا.

(٢) هذا البيت ليس في مجلة الرسالة.

وقَـــصِيدُ الفُحـــولِ يَهْـــرَمُ إلَّا شِـــعْرَهُ فَهْـــوَ في شـــبابٍ رَطْـــبِ
فالمبـــاني مُخْتارُهـــا مِـــلْءَ عينـــي والمعـــاني أبكارُهـــا مِـــلْءَ قلبـــي
ينتمـــي كـــلُّ شـــاعرٍ لِحِـــماهُ وَهْـــوَ للعُـــرْبِ ينتمـــي والـــشُّهْبِ
شعراءُ الأجيالِ يمشونَ فوق الـ ـأرْضِ طُـــرًّا ومَـــشْيُهُ في الـــسُّحْبِ
مـــلأ الكـــونَ شِـــعْرُهُ شَـــغَلَ النَّـــا سَ بـــأحوالِ جِـــدِّهِمْ واللَّعْـــبِ
ســار في الكــونِ جائبًــا كــشُعاعِ الـ ـشمسِ يَذْكُو في كلِّ قُطْرٍ وشعبِ
فَهْـــوَ مِـــسْعارُ ثـــورةٍ وهُـــدى قلـــ ـبٍ ولحْنُ الهَوَى وحَدْوُ الرَّكْبِ
شِـــعْرُهُ صـــورةُ الحيـــاةِ لهـــذا يَتَمَـــشَّى مـــعَ الحيـــاةِ لجَنْـــبِ

دمعة على صديق[1]

مَنِ الخالدُ الباقي سوى الله فاسْتَقِمْ ... ولا تَجْنِ إلَّا الخيرَ في إبَّانِهِ

يَوَدُّ الفتى ما اسْطاعَ أنْ يَخْلُدَ اسْمُهُ ... فيصرفُ أقصى الجُهْدِ مِنْ إمكانِهِ

وإنَّ خلودَ اسْمِ الفتى ليس مُمْكنًا ... على الدَّهْرِ لو كان ابنَ سينا زمانِهِ

ولكنَّما يمتدُّ في الدَّهْرِ صِيتُهُ ... بمِقْدارِ ما يَعْلو على أقرانِهِ

فمَا ذو فُنونٍ خالدًا بفُنونِهِ ... ولا ذو بيانٍ خالدًا ببيانِهِ

ولم يبقَ مِنْ كِسرى سوى ذِكْرِ عَدْلِهِ ... وعَصْفُ البِلى أخْنَى على إيوانِهِ

وطولُ مدى كَرِّ الجَدِيدَيْنِ لم يَدَعْ ... لنُوحٍ سوى الإخبارِ عن طُوفانِهِ

فكمْ نابِهٍ أحْيَا على الدَّهْرِ أمَّةً ... وقوَّضَ صَرْحَ الظُّلْمِ مِنْ أركانِهِ

وكم خامِلٍ في الدَّهْرِ عاش مُشَرَّدًا ... ولم يلقَ حتَّى العَطْفَ من إخوانِهِ

ومَنْ ماتَ أمسى وَهْوَ حيٌّ إلى مَدَى ... متى كان ذا فَضْلٍ على أوطانِهِ

* * *

هو الموتُ لم يترُكْ على الأرضِ نابهًا ... ولا خامِلًا لمْ يَفْرِهِ بسِنانِهِ

---

(١) قصيدة الشاعر الكبير محمد الفراتي في رثاء العلامة عز الدين التنوخي، وهي في أوراقه لدى المجمع.

تساوَى بِهِ مَنْ لفَّعَ الشَّيْبُ فَوْدَهُ ... ومَنْ جُذَّ مِثْلَ النَّبْتِ قبلَ أوانِهِ [1]

ولمْ يحملِ الإنسانُ يومًا لقبرِهِ ... سوى الذِّكْرِ لا الفَضْفاض مِنْ أكفانِهِ

وما إنْ لهُ في ظُلْمَةِ اللَّحْدِ مُؤْنِسٌ ... سوى لَمَعَاتِ النُّورِ من إيمانِهِ

* * *

بكى بردى بالأمسِ مَنْ غالَهُ الرَّدى ... بدمعٍ بهِ روَّى صدَى غِيطانِهِ

نعى الضَّادَ للفُصْحى امرأً مُنْذُ أنْ شَدَا ... شَدَا عَنْدَليبًا في ذُرا أفنانِهِ [2]

تردَّدَ في آفاقِ يَعْرُبَ نَعْيُهُ ... إلى الدِّينِ والفُصْحى «بديع زمانِهِ»

فَلِلنَّثْرِ تَرْثيهِ فرائِدُ دُرِّهِ ... وللشِّعْرِ تَرْويهِ عُقُودُ جُمانِهِ

فكمْ كان بالذِّكْرِ الحكيمِ مُدَلَّهًا ... قضى وَهْوَ مَفْتونٌ بسِحْرِ بيانِهِ

حَفِيٌّ بهِ في هَدْأةِ الفَجْرِ عاكِفٌ ... على فَهْمِ ما يتلُوه مِنْ فُرْقانِهِ

كَرُمْتَ «أبا قيسٍ» فقد كنتَ واحدًا ... لدى المَجْمَعِ العِلْمِيِّ من أعيانِهِ

* * *

فيا صَرْحَ عِلْمٍ بين أبناءِ قومِهِ ... بِهُلْكِكَ بانَ الصَّدْعُ في جُدْرانِهِ

فَقَدْناكَ فُقْدانَ الغَمَام تلهَّفَتْ ... رِياضُ الرُّبى العَطْشى إلى تَهْتانِهِ

خلا منكَ وادي عَبْقَرٍ يا بنَ يَعْرُبٍ ... وقد كنتَ في المَيْدَانِ مِنْ فُرْسانِهِ

وما كنتَ إلَّا في الرِّهانِ مُجَلِّيًا ... لدى كلِّ مَنْ جاراكَ في مَيْدَانِهِ

وما كنتَ إلَّا «العَيْنَ» عند خليلِهِ ... وما كنتَ إلا النُّورَ في «إنسانِهِ»

---

(١) حذفت عقب هذا البيت بيتًا مخرومًا أوله، ولم يتبين لي.

(٢) كذا ورد في الأصل.

وكنتَ مُحِيطًا «بالمُحِيط» وغَمْره ... وما كنتَ «فيروزًا» على شُطْآنِهِ

فيا سَعْدَ من كانتْ مزاياكَ عندَهُ ... يَتِيه بها فَخْرًا على أخْدَانِهِ

فَذِكْرُكَ عند الدَّهْرِ أعْذَبُ نغمةٍ ... تَرِنُّ على الأيامِ في آذانِهِ

فلم تَجْنِ شَوْكًا في طريقِكَ للعُلى ... ولكنْ قطفتَ الوردَ من بستانِهِ

تعِبْتَ كثيرًا في حياتِكَ فاسْتَرِحْ ... ونَمْ مُطْمَئِنًا في ظِلالِ جِنانِهِ

محمد الفراتي

دمشق

صورة تذكارية للرعيل الأول من أعضاء المجمع العربي العلمي

بمناسبة زيارة العلامة الشيخ طاهر الجزائري

الجالسون من اليمين : محمد أمين سويد، أنيس سلوم، الرئيس محمد كرد علي، طاهر الجزائري، سعيد الكرمي

الوقوف من اليمين : متري قندلفت، عيسى إسكندر المعلوف، عبد القادر المغربي، عز الدين التنوخي

رحلة التنوخي مع أساتذة وطلاب كلية الآداب إلى تركية صيف ١٩٤٩م

الوقوف من اليمين : عز الدين التنوخي، عبد الكريم اليافي

في الوسط : سعيد الأفغاني

الوقوف من اليسار : مازن المبارك، محمد خير أبو حرب، عمر الدقاق، بشير العرجا

الجلوس من اليمين : حسن ملّا عثمان، محمود نظام مكتبي، عبد الصمد عويتي، فؤاد ساطع، مأمون منيّر، عبد القادر الريحاوي، عزة حسن

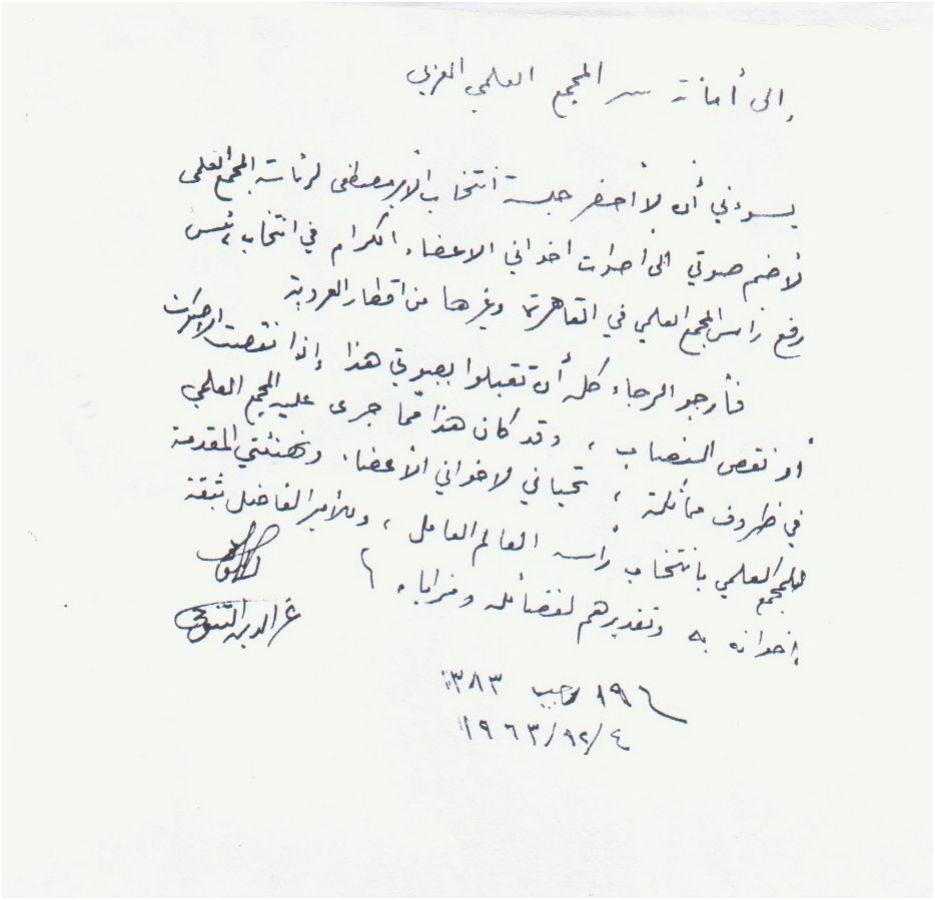

إلى أمانة سر المجمع العلمي العربي

يسرني أن لا أجد فرصة انتخاب الأستاذ مصطفى لرئاسة المجمع العلمي
لأضم صوتي إلى أصدقائي الأعضاء الكرام في انتخاب شمس
رفع راية المجمع العلمي في القاهرة وغيرها من أقطار العروبة

فأرجو الرجاء كله أن تقبلوا بصوتي هذا إذا انقضت الأشهر
أو تقص النصاب، وقد كان هذا مما جرى عليه المجمع العلمي
في ظروف مماثلة، تحيتي لإخواني الأعضاء، وتهنئتي المقدمة
للمجمع العلمي بانتخاب رأسه العالم العامل، والأمير الفاضل ثبته

إخلاصه بـ وتقديرهم لفضائله ومزاياه.

غزالدين التنوخي

١٣٨٣ رجب ١٩
١٩٦٣/١٢/٤

خط العلامة عز الدين التنوخي وتوقيعه

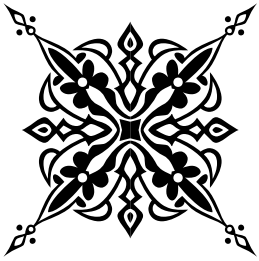

ثبت المصادر والمراجع

- الإبدال والمعاقبة والنظائر، الزجاجي، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٢م.
- الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام، جميل صليبا، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- إحياء العروض، عز الدين التنوخي، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٤٧م.
- الأدب العربي المعاصر في سورية، سامي الكيالي، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م.
- تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، أدهم آل جندي، دمشق، ١٩٦٠م.
- تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة، الجواليقي، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٣٦م.
- تهذيب الإيضاح، عز الدين التنوخي، مطبعة الجامعة السورية، ١٩٤٨م.
- الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨م - ١٩٢٠م، د. خيرية قاسمية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢م.
- خطط دمشق، صلاح الدين المنجد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٤٩م.

- خطط الشام، محمد كرد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠م.
- ذكريات علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر، السعودية، جدة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.
- الرحلة التنوخية، رحلة عز الدين التنوخي من الزرقاء إلى القريات، جمع وتحقيق د. يحيى عبد الرؤوف جبر، عمان، ١٩٨٥م.
- الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الآلوسي، جمع وتحقيق محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠١م.
- سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، قسطنطين بازيلي، ترجمة طارق معصراني، موسكو، دار التقدم ١٩٨٩م.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق ثلة من العلماء بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
- شرح الجامع الصحيح، مسند الإمام حبيب بن عمرو الفراهيدي، السالمي، تحقيق عز الدين التنوخي، المطبعة العمومية، دمشق، ١٩٦٣م.
- شرح القصائد السبع الطوال، الأنباري، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
- شعر الراعي النميري وأخباره، جمع ناصر الحاني، مراجعة عز الدين التنوخي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٤م.
- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، مكتبة عرفة، دمشق، ١٩٣١م.
- صحافة وسياسة، سورية في القرن العشرين، نصوح بابيل، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.

- الصراع على سورية، باتريك سيل، ترجمة سمير عبده، محمود فلاحة، دار الكلمة للنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
- العلامة اللغوي عبد القادر المبارك، إبراهيم الزيبق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ٢٠١١م.
- العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم، إعداد أحمد العلاونة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١١م.
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٣٧م.
- قاموس الصناعات الشامية، القاسمي، حققه وقدم له ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٨م.
- قصة الأشراف وابن سعود، د. علي الوردي، الورَّاق للنشر، لندن، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م.
- كتاب الإبدال، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٦٠م.
- كتاب الإتباع، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦١م.
- كتاب الأعرابيات، خليل مردم بك، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٦٥م.
- كتاب المثنَّى، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٠م.

- كتاب وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع، ابن دريد، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٣م.
- المالكي رجل وقضية، منشورات الفرع الثقافي العسكري، دمشق، ١٩٥٦م.
- مبادئ الفيزياء، فرنان ماير، تع: عز الدين التنوخي، المطبعة الحديثة، دمشق، ١٩٢٨م.
- المذكرات، محمد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٨م.
- مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، عبد العزيز العظمة، تحقيق نجدة فتحي صفوة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.
- معالم وأعلام، أحمد قدامة، دمشق، ١٩٦٥م.
- معاني الشعر، الأشناندانى، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات وزارة الثقافة، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٩م.
- معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، عبد القادر عياش، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.
- مقدمة في النحو، خلف الأحمر، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات وزارة الثقافة، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦١م.
- من حاضر اللغة العربية، سعيد الأفغاني، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.
- هدية العارفين في أسماء المصنفين، إسماعيل البغدادي، استانبول، ١٩٦٠م.
- وديع فلسطين يتحدث عن أدباء عصره، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٣م.
- أوراق التنوخي لدى أسرته (نبذة من ترجمته بخطه، وقصاصات مما كتبه ونظمه في جريدة الأوقات البصرية، وجريدة الكوكب القاهرية، وجريدة القبلة الحجازية، وجريدة العاصمة الدمشقية، وقصائد وموشحات من أوائل نظمه بخطه).

- أوراق التنوخي لدى مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ترجمته بقلمه (من أوراقه لدى المجمع).
- قصيدة «دمعة على صديق» للشاعر محمد الفراتي (هي في أوراقه لدى المجمع).

* * *

الجرائد والمجلات

- جريدة الأوقات، ١٥ نيسان، ١٢ أيار ١٩١٦م.
- جريدة الثورة، العدد ٧٤٥٧، سنة ١٩٨٧م.
- جريدة الكوكب، العدد ٣١، سنة ١٩١٧م، والعدد ٨٩، ٩٥، سنة ١٩١٨م.
- مجلة الرابطة الأدبية، ج ٢، السنة الأولى.
- مجلة الرسالة، العدد ١٤، ١٦ السنة الأولى، والعدد ١٦٤، السنة الرابعة، والعدد ٢٧٤، السنة السادسة.
- مجلة الزهراء، المجلد ٢، ٣
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ١، ٤، ٨، ١٠، ١٣، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٩، ٣٢، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٥١، ٥٤، ٨٦
- مجلة المعرفة، العدد ٥٤، سنة ١٩٦٦م.

* * *

فهرس الموضوعات

الإهـداء **٧**

مقدمة المؤلف **٩**

سنوات التحصيل..... **١٣**

- ولادته وأسرته.....١٣

- ختمه للقرآن الكريم في المدرسة السباهية الابتدائية.....١٥

- دراسته في المدرسة الرشدية الابتدائية العالية ١٥

- انتسابه في يافا إلى مدرسة الفرير الفرنسية ١٥

- سفره إلى القاهرة، ودراسته في الجامع الأزهر.....١٦

- تأليفه أول كتاب له، وهو «الفتح المبين في شرح عينية ابن سينا».....١٧

- عودته إلى دمشق، وتصدره للتدريس في الجامع الأموي ١٨

- اختيار جمعية أهلية له لمتابعة دراسته بفرنسة ١٩

- حصوله على شهادة المدرسة الزراعية العليا من فرنسة ١٩

- سفره إلى الآستانة، وانتسابه هناك إلى جمعية «المنتدى الأدبي» ٢٠

- تعيينه في بيروت معلمًا في مركزها الزراعي ٢١

- تأسيسه في بيروت «جمعية الإفصاح».....٢٢

- استعفاؤه من مركز بيروت الزراعي ٢٢

- تعيينه في طور كرم مديرًا لمدرسة زراعية.....٢٢

الانعتـاق **٢٣**
- نشوب الحرب العالمية الأولى، ودعوته إلى الخدمة العسكرية ٢٣
- إرساله ضابطًا إلى حلب.....٢٥
- انتسابه في حلب إلى «جمعية إخوان العهد».....٢٦
- فراره من الجيش التركي إلى بادية الشام ٢٦
- لقاؤه مع صديقه جلال الدين البخاري، الفار كذلك من الجيش التركي ٢٦
- إقامته في البلقاء في مضارب عرب بني صخر.....٢٦
- انتقاله إلى عرب السرحان ٢٦
- لحاقه بشيخ الحويطات عودة أبو تايه.....٢٧
- وصوله إلى الجوف، وإقامته عند حاكمها الأمير نواف الشعلان.....٢٩
- لقاؤه مع عبد الغني العريسي ورفاقه عند قدومهم إلى الجوف فارِّين
من جمال باشا.....٣٣
- سفر عبد الغني العريسي ورفاقه إلى مدائن صالح في طريقهم إلى الحجاز ٣٤
- سفر التنوخي إلى العراق، وإقامته بالبصرة ٣٥
- إلقاء القبض على عبد الغني العريسي ورفاقه، ثم إعدامهم.....٣٨
- التحاقه بالثورة العربية في مكة المكرمة ٣٩
- تعيينه مرافقًا حربيًّا ثم وزيرًا للزراعة في مكة المكرمة ٣٩
- إقامته بالقاهرة ونشره مقالات وقصائد في جريدة الكوكب.....٤٠
- التحاقه بجيش الأمير فيصل الزاحف نحو دمشق.....٤١
- تدوينه وقائع فراره من الجيش التركي ٤١

الحكومة العربية وإنشاء المجمع العلمي بدمشق **٤٣**
- تعرفه إلى القائد علي رضا باشا الركابي ٤٣
- دخوله دمشق مع الجيش العربي ٤٥
- تعيين الحكومة برياسة علي رضا باشا الركابي.....٤٥
- إلقاؤه كلمة في قصر الحكومة على لسان علي رضا باشا الركابي.....٤٥
- دخول الأمير فيصل دمشق.....٤٥
- تأليف الحكومة شعبة الترجمة والتأليف، والتنوخي من أعضائها ٤٦
- تأسيس ديوان المعارف، والتنوخي من أعضائه.....٤٦
- تأسيس المجمع العلمي العربي، والتنوخي من أعضائه المؤسسين،
وانتخابه أمينًا لسره ٤٧
- توقف المجمع عن نشاطه، وعودة التنوخي إلى ديوان المعارف ٤٨
انكسار الأحلام..... **٤٩**
- إنذار غورو ومعركة ميسلون.....٤٩
- عودة المجمع إلى عمله وتعيين التنوخي مميزًا للرسائل فيه.....٥٠
- تعيينه مميزًا في مديرية الصحة بدمشق ٥١
- تأسيس جمعية الرابطة الأدبية، وإدارة التنوخي لمجلتها.....٥١
- حل السلطة الفرنسية للجمعية وحجب مجلتها.....٥٣
- تعيين التنوخي مترجمًا في مديرية البرق والهاتف ٥٣
- استقالته من وظيفته وسفره إلى بغداد وتدريسه في ثانوياتها.....٥٤

غريب في العراق **٥٥**
- صحبته لعلامة العراق محمود شكري الآلوسي ٥٥
- وفاة الآلوسي وتأبين التنوخي له في بغداد ودمشق.....٥٦
- تعيينه أستاذًا للأدب العربي في دار المعلمين الأولى ببغداد ٥٧
- مراسلاته مع الأستاذ محمد كرد علي ٥٧
- نشوب الثورة السورية ٥٧
- إلقاؤه قصيدة في بغداد يصف فيها فظائع الفرنسيين ٥٩
- تأليفه كتاب «دروس في صناعة الإنشاء» ونشره في بغداد ٦٠
- انتقاله مدرسًا للطبيعيات في دار المعلمين العليا ببغداد.....٦١
- مساعدته للأستاذ ساطع الحصري في إنشاء مجلة التربية والتعليم ٦١
- ترجمته لفصول من كتاب «قلب الطفل» ونشرها في مجلة التربية والتعليم ٦٢
- إتمامه لترجمة كتاب «قلب الطفل» ونشره في دمشق ٦٢
- ترجمته لكتاب «مبادئ الفيزياء» واهتداؤه إلى مصطلح «الفيزياء»
وغيره من المصطلحات العلمية.....٦٢
- وصفه لبعض مخطوطات مكتبة الأسرة السويدية بالكرخ.....٦٤
في رحاب المجمع العلمي العربي بدمشق..... **٦٥**
- عودته إلى دمشق بعد غياب عنها دام نحو عشر سنين.....٦٥
- تقديمه لكتاب «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» ليوسف البديعي ٦٥
- كلمته في المجمع العلمي العربي عن لغة أمير الشعراء أحمد شوقي ٦٦
- ترجمته قصائد لمجلة الرسالة المصرية في سنتها الأولى.....٦٦

- تكليفه أمانة سر المجمع العلمي العربي، والإشراف على جهازه الإداري ومجلته ..٦٧
- انكبابه على تحقيق ثلاثة كتب في اللغة، أوّلها
«المنتقى من أخبار الأصمعي» للإمام الرَّبعي.....٦٧
- تشريحه اللغوي للدراجة، ووضعه مسميات لأجزائها.....٦٨
- انتهاؤه من تحقيق كتابه الثاني «تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة»
للإمام الجواليقي.....٦٨
- انتخابه أمين سر للجنة مهرجان المتنبي.....٧٠
- إلقاؤه قصيدة في مهرجان المتنبي بعنوان «صوت دمشق» ٧١
- إخراجه ثالث كتبه اللغوية «بحر العوَّام فيما أصاب فيه العوام» لابن الحنبلي .٧٣
- مشاركته في تصحيح كتاب «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»
لابن سيِّد الناس.....٧٣
- إلقاؤه قصيدة يصف فيها مزايا نثر الأمير شكيب أرسلان وشعره،
وجهاده في خدمة العروبة والإسلام.....٧٤
- انقطاعه عن نشاط المجمع، وتعيينه مدرسًا في ثانويات حمص، ثم دمشق،
ثم تعيينه مفتشًا للغة العربية.....٧٥
بعيداً عن التدريس **٧٨**
- اهتداؤه إلى قبر الصحابي معاوية بن أبي سفيان ٧٨
- وصفه لوادي الزبداني، ورأيه في إصلاح المرأة.....٨٠
- اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، ومشاركته في حفل تأبينه.....٨٢
- تدريسه للأدب العربي في دار المعلمين العليا.....٨٣

- تعيينه مدير معارف محافظة السويداء ٨٣
- سعيه الحثيث إلى إنشاء المدارس فيها، وحضه أكابر الأمة على بنائها ٨٣
التنوخي محاضراً في الجامعة السورية **٨٥**
- دعوته للمشاركة في تأسيس كلية الآداب في الجامعة السورية ٨٥
- تكليفه تدريس علوم العربية فيها ٨٥
- تأليفه كتاب «إحياء العروض» ٨٥
- تأليفه كتاب «تهذيب الإيضاح» في علوم البلاغة ٨٨
- رحلته إلى تركية مع طلابه في الجامعة..... ٨٩
- نجاح سعي بعض الطلاب في إخراج بعض الأساتذة من الجامعة
منهم التنوخي ٩٠
- عودته مدرسًا للعربية في ثانويات دمشق..... ٩١
أعوام الخصب..... **٩٢**
- إحالته إلى التقاعد من التدريس..... ٩٢
- عودته إلى المجمع العلمي العربي متفرغًا لأعماله..... ٩٢
- اغتيال العقيد عدنان المالكي، وقصيدته في رثائه..... ٩٣
- تعيينه عضوًا في لجنة المجلة والمطبوعات في المجمع ٩٥
- اختياره عضوًا في لجنة ترجمة المعجم الكندي العسكري..... ٩٥
- شروعه في تحقيق ثلاثة كتب لغوية هامة لأبي الطيب اللغوي..... ٩٦
- قصة اكتشافه لهذه الكتب وكان يظن أنها مفقودة ٩٦
- فراغه من تحقيق أوّلها وهو كتاب الإبدال ٩٩

- تقريظ العلامة عبد العزيز الميمني لعمله ١٠٣
- إنجازه تحقيق ثاني هذه الكتب وهو كتاب المثنَّى ١٠٣
- فراغه من تحقيق ثالثها وهو كتاب الإتباع ١٠٤
- تحقيقه كتاب الإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجي ١٠٦
- انتخابه عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.....١٠٧
- انتخابه عضوًا في المجمع العلمي العراقي ١٠٧
- تحقيقه كتاب مقدمة في النحو لخلف الأحمر.....١٠٨
- ثناء العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على عمله ١٠٩
- تحقيقه كتاب وصف المطر والسحاب لابن دريد.....١١٠
- التفاته إلى تراث سلطنة عُمان ١١٣
- انتخابه نائبًا لرئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ١١٥
- انكبابه على تحقيق كتاب معاني الشعر للأشناندانى ١١٦
- شروعه في تحقيق كتاب الدلائل في غريب الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي ١١٧
- بدؤه في تحقيق كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك البغدادي ١١٨

وفاته وما قيل في رثائه **١٢٠**

- دمعة على صديق للشاعر محمد الفراتي ١٢٢
- كلمة الأستاذ عارف النكدي ١٢٣
- كلمة الدكتور شكري فيصل ١٢٣

- كلمة الدكتور مصطفى جواد.....١٢٣
- كلمة علامة العراق محمد بهجة الأثري.....١٢٣
- كلمة العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي.....١٢٤
- كلمة العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.....١٢٤
- كلمة البحاثة علي الفقيه حسن.....١٢٤
آثاره..... **١٢٥**
- التأليف.....١٢٥
- الترجمة.....١٢٦
- التحقيق ١٢٦
- المعاجم.....١٢٩
- المراجعة ١٢٩
- مقالاته في جريدة الأوقات البصرية.....١٣٠
- مقالاته وقصائده في جريدة الكوكب القاهرية.....١٣١
- مقالاته في مجلة المقتطف.....١٣٢
- قصيدته في جريدة العاصمة الدمشقية.....١٣٢
- مقالاته في مجلة الرسالة.....١٣٢
- مقالاته في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.....١٣٣
ملحق:..... **١٤٥**
- لبنان الشرقي، مصطاف الزبداني ١٤٧
- دعوى الصعوبة في تعلم العربية ١٥٥

- نيل المنى (موشَّحة للتنوخي نظمها سنة ١٩٢١م).....١٦٧
- صوت دمشق (قصيدة للتنوخي في مهرجان المتنبي).....١٧٠
- دمعة على صديق (قصيدة الشاعر محمد الفراتي في رثائه).....١٧٤

الصـور **١٧٧**

ثبت المصـادر والمراجـع **١٨١**

فهرس الموضوعات..... **١٨٦**